مطلوعة "خبز وحب"

تأليف: عبد الباسـط باني

فواصل للنشر والإعلام
غرداية _ الجزائر

السداسي :

الثاني / 2022

الردمك:

978 - 9931 - 777 - 61 - 8

فـواصـل لـلـنشر و الإعـلـام
fawassil5@gmail.com
029-237-470/0561-318-454
غرداية .حـي الثنية . مراكـشي

عنوان الكتاب:

مطلوعة
"خبز وحب"

اسم الكاتب:

عبد الباسط باني

تصميم الغلاف:

سمير محرز

تنسيق وإخراج فني:

ساخر أحمد

مدير المؤسسة:

يحيى مدقن

محفوظة جميع الحقوق

رأي الكاتب لايعبر بالضرورة عن رأي الناشر

إلى كل من يربّون الأمل

إلى الأموات على قيد الحياة

كل الشخصيات والأحداث الواردة في هذا الكتاب

إمّا حقيقيّة مطلية بالخيال، أو خيالية محشوّة بالحقيقة

كل تشابه مع الواقع قد لا يكون صدفة

هذه الرواية لا يكفيها الواقع ولا يرضيها الخيال.

حامية، شافية، عامية

يتوقّف الرجل عن الضّرب، يتجمّد في مكانه، ثمّ يلتفت خلفه فيجد الفتى قد غرز في ظهره مقصًّا حادًّا، يهوي الرجل قتيلا، يسقط على الأرض مثل عمارة تنهار بهزة زلزالية قوية، في مشهد دمويّ؛ خدُّ الرجل ملتصق على الأرضية وعيناه جاحظتان أمامه، بركة من الدّماء تسيح على الأرض تبلّل كلّ ملابسه. تخرّ الزوجة بجنبه تبكي وتنحب، تضرب بيديها على الأرض بقوة. أمّا الفتى متجمّد في مكانه كتمثال دون روح، شاخص وغارق في شرود بعيد لا يقوى على تصديق فعلته، والدّماء تقطر من المقصّ في يد الطفل الصغيرة المرتعشة وتسقط على الرّسمة الممزّقة في الأرض.

تصرخ السّيدة ملء حنجرتها:

_مات، مات.. آه ربي يا لهواري.. راجلي مات.. اجروا لي يا ناس راجلي مات.. قتلو.. قتلو..

يتراجع الفتى خطوةً إلى الخلف، ثمّ يهرب مسرعًا يحمل المقص في يده يجر عباءته مباعدا بين ساقيه متجها لواد بوغولة، يصل فيركب فوق صخرة كبيرة تقابل الواد، يتخلّص من المقص في مجرى الواد ويغسل يديه من الدماء والدموع تنهمر من عينيه بغزارة لتختلط بدماء أبيه والمياهِ الضحلة في الواد.

***

ينظر الطّبيب إلى الرجل ويسأله:

_ كم عمره؟

يرد الرجل بنبرةٍ لا مبالية ودون أن يلتفت إلى الطّبيب: ثمانية سنوات أو تسعة أو...

يرد الطبيب بملامح مستغربة:

– غريب! ألا تعرف كم عمرُ ابنك!

_أعرف.

_إذن لماذا تركته إلى هذه السن المتأخرة ؟

_نسيت.

_وهل تنسى ختان ابنك!

_اسمع...لا دخل لك في أموري العائلية.. دعنا من هذه الثرثرة وقم بعملك أو اعطني المقص ودعني أقوم به بدلا منك.

_حسنا...حسنا...هذه حقنة خمس مئة دينار، وهذه حقنة ألف دينار، بأي منهما تريد أن أخدّره؟

– لا هذي...ولا تلك.

_ما قصدك؟

_ افعلها كما فعلناها نحن، حتّى يحسّ أنّه رجل بحقّ.

– هل تقصد دون مخدّر!

_نعم

_ هل جننت؟ هل تعرف درجة الألم؟ لا أظنّ أنّ جسد ابنك الصغير سيتحمّل.

– هل سمعت ما قلته لك، ابني ليس طريًّا، وسيفعلها مثلما فعلها جده وأبوه. بالطريقة التقليدية.

- الطريقة التقليدية!

- نعم قد أخبرتك أن تقوم بعملك وتصمت، وإن كنت جبانًا أعطني المقصّ وسأريك خفّة اليد، هكذا أريحك وأريح نفسي من ثرثرتك ومن مصروفك.

سكت الطبيب لبرهة ثمّ واصل عمله:

_لا لا.. فقط ثبتا رجليه جيدا، وأمسكه أنت من يديه ورأسه.

***

الطبيب بنبرة هادئة يهمس في أذن الفتى ويمسح على رأسه:

– لا تخف يا عزيزي سنجعل الأمر سريعا.

الفتى الصغير لا يفهم ما يحدث حوله بعينين مفزوعتين ينظر إلى وجه الطبيب الذي يواصل كلامه ويقول للفتى:

_أنظر للسقف هناك، هل ترى ذلك العصفور؟

يرد الفتى بنبرة خافتة تتخللها رعشة في صوته:

– ن..ن...ن..... نع...نعم

– جيد، جيد، أغمض عينيك الآن، تنفّس ببطء وتخيل أنّك تركب العصفور وهو يحلق بك إلى أجمل مكان تتمنى الذهاب إليه وقد..

ثم تشك! "ضربة مقص حادّة وخاطفة خادعة".

يرى الفتى العصفور يفرد جناحيه وينظر إليه بعينين جاحظتين يتطاير الشرر منهما.

صرخة طويلة، معدن حاد بارد يقطع جلدة من اللحم، الفتى يتخبط مثل مجاهد يعذَّب على كرسي كهربائي، جسده الهزيل يرتجّ، يرتعش، عيناه تفيضان مدامعًا على شطآن خديه المشمشيتين، يلوي رقبته للوراء، يتخبّط مثل قطّ في بركة ماء، عروق رقبته تنتفخ، تكاد تتقطع، وجهه يحمرّوينتفخ مثل حبّة طماطم، يتخبّط، يحاول الإفلات من بين ذراعي أبيه وقبضة جده، لكن دون جدوى!

يرى في ما يرى المختون العصفور ينفض ريشه ويتقدم نحوه بخيط أسود طويل يحمله في منقاره.

صرخة مبحوحة ومتقطعة، إبرة مدبّبة متبوعة بخيط أسود تخترق جلده، يضرب قفى رأسه على السرير الحديدي، يتألّم داخل الألم، يركل بقدميه المصبوغتين بالحناء، يعض على شفتيه، يشتم بفحش، أبوه يكمّم فمه، يكاد يخنقنه بقبضة يده الخشنة، يرد عليه بعضة حليبية مسنونة، لا تجدي، ثمّ يعود الفتى للسّباب بنعرة أكبر يلعن أباه وجد أباه، يلعن الطبيب ويلعن يوم خرج من بطن أمه دون تاء مربوطة.. ذكرا..

يرى العصفور يحط بين ساقيه، يحضن بيضتيه تحت جناحيه، يمد منقاره الأصفر الطويل وينقر رأس ذكره، كنقّارِ خشب ينحت جذع شجرة.

ثمّ صرخةٌ حادّةٌ ذابلة الصدى، محلول من الكحول ودواء أحمر اللون يصب فوق جرحه المفتوح، يعتصر من الألم، يتخبط مثل أفعى يريد أن ينسلخ من جلده، يحاول ركل الطبيب الأصلع، يتفل في وجهه، لكن ذراع الأب القوية تضغط على رجليه تمنعه من الحراك، يتعذب، يتلوى، يصرخ، يفتح فمه حتّى تبرز كرزة حلقه، تتّسع حدقتا عينيه البنّيتين، ثمّ بعد عشر غرزات مُرّة، يفتر ببطء ويئن بصوت خافت طالبا

الرحمة من الطبيب، ينظر في عيني جدّه، يترجّاه أن ينقذه، أن يوقّف عذابه، كأنّه قد أشف الطبيب ليسرع في خياطة جرح بشولته[1].

ويرى ولا يكاد يرى العصفور يحلق بعيدا وقد أخذ جزءًا من ذكره.

***

– مبروك عليكم، سلّم على جدك، زد على أبيك!

وضعوا الطربوش الأحمر فوق رأسه، خرج من الغرفة يجرّ خفّه الأبيض، يباعد بين ساقيه النحيلتين مثل بطريق صغير خرج لتوه من بركة ماء، تعالت زغاريد النساء الفرحات في ساحة الدار، أمّه فخورة تشير له بالبنان، يمشي تحت برنوس أبيه والنظرات المتلألئة ترمقه.. والبطريق يتمتم بنبرة خافتة:

– آه أيتها اليهوديات لو تعرفن شدّة الألم الذي أشعر به.. أفضل أن أُوَلَّدَ خمس مرات على أن أصارع ألم الختان مرة واحدة..

ويصادف صديقه مختبئا في الزاوية يشد بطنه من الضحك:

_اضحك يا "بلوطة" الكلب اضحك... انتظر حتى أشفى وسأعيد ختانك بيدي...

ثم يمسكه جده في زاوية ويخرج شيئا من جيبه، يضع تلك القلادة على رقبة حفيده، ويوجه إليه كلامه بنبرة خشنة وهادئة وعيناه تلمع مباشرة في عيني حفيده:

– هذي حامية وشافية وعامية.

– ردّد ورائي

---

1 - اسم يطلق على ذكر الطفل الصغير في اللهجة الجزائرية.

"وأعاد رفقة حفيده الجملة ببطء وشرود"

ثمّ كرّر الفتى جملة جدّه وهو يتألم من الوجع ولم يحاول أن يفهم معناها أو المغزى منها:

– حامية. شافية. عامية.

اللاز يربح

في كوخ كاره للحياة، من الطوب والقصب، محمول على أربعة أعمدة نحيفة من الحطب، تغطّيها حبات قرمود أحمر، نصفها متشقّق ونصفها الآخر دامع، ذا هو السقف كما أراده ربي أن يكون.

على شمعتين مرتجفتين ترتعشان من البرد إثر كل نفخة من بطن الجدران القصيرة. كان هناك في الزاوية يمد رجليه القصيرتين المزينتين بالحناء، يستلقي على ظهره صوب الحائط العاري، ببرنوس أبيض رثّ يميل إلى الصفرة، وجهه شاحب يميل إلى لون كرتونة مبلّلة، يرفع البرنوس بيده خشية أن يلامس ما بين فخذيه، يعضّ على شفته السفلى ويئن بصوت خافت من الألم، يحمل في يده الأخرى ورقةً وقلم رصاص، يبدو أنّه يرسم شيئا حتّى يتناسى ألمه، أمامه مباشرة ينظر داخل الطربوش الأحمر المملوء ببعض الدنانير فيخفّ ألمه قليلا، تقترب منه أمّه وبيدها قطعة كسرة وكأس لبن، تمسح على شعر الفتى متمتمةً ببعض الآيات من القرآن وبعض الأدعية للحفظ من العين.

– أنظري أمي هل تكفيني هذه لأشتري دراجة مثل دراجة بلوطة؟

– نعم يا ولدي، نعم، حتّى إن لم تكفيك سأبيع بعض الدجاجات ونشتري الدراجة، لا تقلق.. فقط لتكبر.. كُلْ يا بني هذه اللقمة.

يهز الفتى النحيل رأسه وهو يغمس قطعة الكسرة في اللبن ويمضغ دون أن يردّ على أمّه..

تمسح على شعر ابنها بفخر:

– سعدي وفرحي بولدي كبر وصار رجلًا.

ثم تنهض لتبلّل بعض الكسرة اليابسة وتخلط معها بعض الزيت للعشاء، تاركةً ابنها ليستمتع بألمه اللذيذ.

بعد وهلةٍ نحيفة، ينكسر ذلك الهدوء المسالم، يدفع الباب بثقل كتفه ويقتحم الكوخ، يمشي متثاقلًا، يقف وسط الكوخ ولا يكاد يحمل بعضه بعضا، يقترب رأسه من دعامات السقف، ينظر هنا وهناك باشمئزاز، يعصر عينيه بحمرة الغضب. شفته السفلى مرتخية، اللعاب يسيل من فمه كحصان سباق، رائحة شراب "الروج" تفوح منه كأنّه قد استحم في برميل منه، يترنّح يكاد يهوي، ولا تكاد ساقاه الطويلتان تقوى على حمل ثقل جسده الخشن، يتمايل كناطحة سحاب تهزها الريح، ثمّ فجأة يندفع نحو الأمام ويضرب بيديه الهواء كأنّه يصارع أحدهم بنبرة ثقيلة ومبحوحة:

– هاك، يا لوهراني الكلب، هاك خذ للعين، هاك للكرش، تفووه.

– الوهراني الخداع.. الوهراني الخداع..

– اللّازيربح.. اللّازدائمًا يربح.. اللّازيا لوهراني عمره لا خسر..

ثمّ بعد أن أنهكه صراع عدوّه الوهمي، يتّجه لزاوية من الكوخ ويستلقي فوق هيدورة بيضاء، ينظر باشمئزاز نحو الفتى المقرفص أمامه، والذي لا يزال يعدّ قطع النقود ويضعها في الطربوش الأحمر أمامه، يفتح أصابعه ويعدّها، ثمّ يبتسم ويغمس بعض الكسرة في اللبن معيدا الحساب كرّة أخرى، ينهض الكهل الممتلئ، يتجشأ ويتقدّم نحو الفتى بعينين تشتعلان من حمرة السكرة، رائحة الكحول الكريهة المنبعثة من الرجل تنتن المكان.

يمسك الفتى من شحمة أذنه:

– ذاك الوهراني الكلب الخدّاع. لا يعرف من هو أبوك، لا يعرف مع من يلعب. لا يعرف من هو هواري اللّاز، وهل تعرف أنت؟ هل تعرف أن اللّازدائما يربح؟

"هزّ الفتى رأسه بالإيجاب، وقد تجمّد جسده النحيل تحت ظلّ أبيه المحقون غيظًا وحقدًا على هذا الوهراني".

– سأنتقم لكم، هل تفهم هذا.. سأنتقم ويعرف من هو العروبي ابن العروبي. "قالها بصوت جهوري مخيف. أفزع حتّى زوجته في المطبخ".

– وإلى ذلك الحين، عليّ بهذا من أجل أن أحمل نفسي.

ثم يفكّ الطربوش من بين ذراعي الفتى الضعيف. يتشبّث به بقوة ويتلوّى على ساقي الرّجل كأخطبوطٍ صغيرٍ، لكنّ الرجل لا يفتأ يسحب الطربوش بعنف ويفرغه في جيب سرواله الفضفاض ثمّ يرميه فوق حجر الفتى، ترتجف وترتجّ شفته السفلى لينفجر باكيًا بنبرة شاهقة، كفتاة اغتصبت مضجًا عفّتها أمامها عنوةً وقهرًا، يبكي المختون، يصرخ ويتأوّه، يصيح، يضرب بيديه على الأرض، يحاول النهوض لاسترجاع نقوده لكن دون جدوى، فجرح ختانه لا يزال جديدا، يمنعه.

من المطبخ تسمع الأمّ بكاء ابنها، تهب مسرعة، تفهم من كلام الفتى المختلط بالبكاء ما حدث، تحاول إقناع الرجل بإرجاع النقود لابنها، تنحني له وتقبل يديه، ثمّ تخرّ لتقبل رجليه، تطلب الشّفقة بنبرة متوسّلة متقطّعة. يدفعها نحو الخلف:

- ابتعدي يا بنت الكلبة..

- يا لهواري بجاه الأولياء الصالحين أرجعهم له. عندك ابن واحد فقط.

- عندي الهم والفقر ومعزة جربا.. مثلك

- يا لهواري حق العشرة التي بيننا أرجعهم له، بجاه الصالحين!

ينظر لها بازدراء نظرة مطولة، يصمت لبرهة، يبصق على الأرض، ثمّ يمسكها بقبضته القوية من ذقنها ويضغط بسبّابتِه وإبهامِه على وجهِها يكاد يمزّق وجنتيها وهو يرفعها من الأرض نحو وجهه:

– الوهراني خدعني.. خدعني.. أنت لا تفهمين يا جاهلة. لا أحد يفهم!

ثمّ يرميها ويدفعها بقبضته للخلف ليباغتها بصفعة خاطفة، تطير معها عصابة رأسها الحمراء، فتسقط كأس اللّبن على ورقة الرسم.. ينظر نحو الفتى تحته، ينحني نحوه ويضع إصبعه على جبهته، بنبرة خشنة وبطيئة:

– أنت ومالك لأبيك! أنت ومالك لأبيك! هل فهمت هذا؟

ثم أعاد الجملة وهو يهزّه منتظرا جوابا من الفتى: أنت ومالك لمن؟

خفت بكاء الفتى وابتلع ريقه خوفًا ممّا سيفعله به أو بأمّه إن لم يجبه..

– لأبيك!

- تفوه يا ابن الكلبة

وبصق الرجل في وجه الفتى ذي العينين الوديعتين

– لأبي! هل تفهم أيها الجرو الأجرب؟ لأبي، هكذا يجيبون! هل أنا أتكفل بنفقة تدريسك وأنت لا تعرف حتّى كيف تكمل جملة صحيحة. أمّا هذه الدريهمات مقابل مصاريف ختانك. ولو حسبنا كم خسرت من تعب ومال حتّى تصير لما صرت عليه الآن. لن تسدد دينك ولو عملت حياتك كلها. عليك أن تضع هذا في رأسك. هل فهمتني. لقد كنت خطأً في ليلةٍ باردةٍ.

ثمّ أمسك وجه الفتى الصغير بيمينه، فتح فكيه، لوك كتلة النخام داخل حنجرته رفعها نحو لسانه وملأ بها فمه، ثمّ بصقها بقوة داخل فم الفتى الصغير. وكمّم فمه حتّى يحرص على أن يبلعها.

- خخخخخم تفوووه.

- هكذا حتّى تجيد الكلام وينطلق لسانك وتصيبك بلاغة اللآّز.

ثم انسحب لينام في مكانه جثة سكرانة نتنة..

انبطح الرجل على فراشه دون أن ينزع ملابسه أو حذائه.. همست الأمّ بصوت خافت وهي تلم شعرها لابنها ليقترب منها، راحت تمسح وجهه من البصاق ليهدأ من بكائه وأنينه، سلّمته كوب ماءٍ، أزاحه من أمامه، شعر بتقزّز من المذاق الحامض العالق في فمه، راح يسعل ويصدر فحيحا من حنجرته يريد أن يتخلّص من الطعم الكريه العالق في حلقه، الأمّ تحبس دموعها أمام ولدها الذي سُرِقَت أحلامه من بين يديه قبل أن ينام، نام والغيض يتطاير من عينيه الغارقتان في الدموع، وقبل أن ينام، بطرف من برنوسه همّ يجفف رسمته من اللّبن دون أن يريها لأمّه، التي وعدته ألّا تراها حتّى يقوم بإكمالها.

الأمّ تسحب ابنها نحو حجرها، تربت على شعره الأسود وتغنّي له بصوتٍ حنونٍ هادئٍ:

"نني نني يا بشة

نني نني يابشة

واش نديرو للعشا

نديرو شخشوشة بالدبشة

ولا محجوبة بالحشوة

ويجي وليدي يتعشى

نني نني جاك النوم

أمك قمرة وبوك نجوم

وأنت تمرة في عرجون

وحوتة في بحرها تعوم

وهلال في أول يوم

الناس كلها تراعيله

يسلم ولدي ونحكيله

يكبرويفوز في جيله

يدير حويش نمشيله

نني نني جاك نعاس

أمك فضة وبوك نحاس

وأنت غزال بين الناس

ووردة في كاس

حصوة في عنين الخناس

قل أعوذ بربِ الناس...

وين كان ووين كان؟

متغذي فحوش السلطان

جايني حجره مليان

جوهروعقيق ومرجان

و أنا نفرق عالجيران

برافو عليه وخموس عليه

سيدي ربي يحميه

والموت الشينة ماتجيه"

***

مرّت ثلاث ليالي من البرد والجوع، الزوج لا يصحو من السكر ولا يكفّ عن ضرب زوجته وتعنيفها أمام ناظري الفتى، الفتى يشتاط غيضا مع كل صرخة تخرج من حنجرة أمه، يحزن مع كل عَبَرة تذرفها عيناها، يبكي لبكائها ويتقطّع لحزنها.

ثمّ في ذات ليلة ماطرة، نهض الصبي مفزوعا على صوت صراخ أمّه وتدحرج من سريره متتبعًا الصّوت، اندسّ في الزاوية بقرب المطبخ وراح يراقب ذلك المشهد المرعب، أبوه السكران يشدّ أمّه من شعرها، يضربها على الحائط محاولًا أن ينتزع منها سلسلتها الذهبية والتي كانت كلّ مهرها في زواجها، تحتفظ بها الأمّ لتبيعها وقت الحاجة القصوى.. الزّوج يريد أن يرهنها ويسدّد بها ديونه ويصرفها على الشرب والقمار في القرية مثلما فعل بدراهم ختان ابنه.

يتوقّف الرّجل عن الضّرب، يتجمّد في مكانه، ثمّ يلتفت خلفه فيجد الفتى قد غرز في ظهره مقصا حادا، يهوي الرجل قتيلا، يسقط على الأرض مثل عمارة تنهار بهزة زلزالية قوية. في مشهد دمويّ خدّ الرجل ملتصق على الأرضية وعيناه جاحظتان أمامه، بركة من الدماء تسيح على الأرض تبلّل كلّ ملابسه، تخرّ الزوجة بجنبه تبكي وتنحب، تضرب بيديها على الأرض بقوة. أمّا الفتى متجمد في مكانه كتمثال دون روح شاخص وغارق في شرود بعيد لا يقوى على تصديق فعلته، والدماء تسيح من المقص في يد الطفل الصغيرة المرتعشة وتسقط على الرسمة الممزّقة في الأرض.

الرسمة التي سخّر لها ثلاثة أيام من حياته، ليحرص على رسمها على أكمل وجه، ثمّ أهداها لأمه قبل أن ينام، وعلى بغتة فاجأها زوجها على حدّ الثمالة، خطفها من يدها ومزقها بعدما راحت الأم تتأملها فرِحة وأنستها أن تعدّ له العشاء.

المرأة كالمجنونة تندب وجهها وتضرب على الأرض، تهزّ زوجها لينهض، شعرها الأسود مبعثر في الهواء ويداها ملطّختان بالدماء، تصرخ وتنحب مردّدة:

_مات، مات.. آه ربي يا لهواري.. راجلي مات.. اجروا لي يا ناس راجلي مات.. قتلو.. قتلو..

يتراجع الفتى خطوة إلى الخلف، ثمّ يهرب مسرعًا يحمل مقصّ ختانه في يده ويجرّ عباءته مباعدا بين ساقيه، متّجهًا لواد بوغولة، يصل فوق حجرة الغولة، يتخلّص من المقص في مجرى الواد ويغسل يديه من الدّماء والدموع تستمرّ بالانهمار من عينيه بغزارة لتختلط بدماء أبيه ومياهِ الواد أمامه.

يندس عنكبوت صغير بين أغصان الزعرور، تدمع السماء، يتهاوى العنكبوت، يهوي العنكبوت، تدمع السماء.

ما يبقى في الواد غير حجاره

تفاجأت بجسد يصرخ عالقًا بين أغصان الأشجار المتدلّية داخل مجرى الوادي، يلوّح بيده، يصعد تارةً فوق الماء وينزل تارة أخرى، يلفظ أنفاسه الأخيرة على ما يبدو.

هممت أثبت رجلي على الأرض لأتّخذ وضعية انطلاق عَدّاء، سحبت نفسا عميقا، حسبت المسافة بيني وبين الوادي وكانت ستة أمتار تقريبا، انطلقت أجري، أتسارع، أقفز، أشقّ سطح الماء بأصابعي، أغطس مباشرة، أمسك أنفاسي، أبقى تحت الماء لأقاوم التيار الجارف، أدفع برجلي عكس اتجاه التيار الذي كان قويًّا، ثمّ أرفع رأسي بعد ثوانٍ لأجد أنّي قد جرفت بسرعة نحو الخلف، الرجل على بعد أربعة أمتار تقريبا. ثمّ رحت أسبح بقوة لأقترب منه، أجد نفسي لازلت في مكاني، التّيارات تسحبني نحو الخلف بقوة أكثر، سحبت نفَسًا عميقًا وغطست مجدّدا لأتحدّى أطنانًا من المياه مجدِفًا عكس مجرى الواد، السيل جارف يسحب جسدي يبعدني عنه، أثبّت نفسي، أجمع أنفاسي أكثر. أغمض عيني وأستعين بسمعي لأتّبع صوت الرجل بكلمات متقطِّعة سمعته يصرخ ويقول:

***

ها هي ذي ساعات النهار الأخيرة تلفظ أنفاسها على كتف طريق قرية "البلبال" المعجّنة بالجروح والمطبّات العنيدة. الطريق الترابية التي خلقتها أقدام أهل القرية وحفتها حوافر دوابها، الطريق عجوز طاعنة لم تعد تبالي لا بمن ذهب ولا بمن أتى، تمدّ لسانها لتسخر من أشجار الدفلى المغرورة النابتة على حافتيها، الطريق متجعّدة الملامح أكل عليها الدهر وشربت منها الساعات السمينة، تطول ممتدّة من حنجرة القرية الرطبة إلى جبهة المدينة لتقبل معدنها متعرجة وممتدة دون تفرعات، ترسّمت حدودها ببعض الحجارة المكدسة على قارعتيها المضجرتين، نبات الصبّار البرّي يعشّش منتفخًا على سواحلها ومن جلده الأخضر تنبثق حبّات من التّين الشوكي برؤوسها الصّفراء المكوّرة، تشهد على المُرّ ومن مَرَّ وعبر. زجاجات الشراب الخضراء

الفارغة تطلّ برؤوسها دون خجل، أكواخ من الفقر، إطارعجلة محراث، نبات السّدر يعرض أكياسه البلاستيكية الفارغة، كلاب تنبح وتجري وراء الشاحنات الخارجة من مقلع الحجارة، فتيان يبحثون بين أكوام المزابل، ينتظرون كل شاحنة نفايات جديدة لتتقيّأ لهم نفايات أصحاب المدينة، ينقضون بين أكوام ما تفرغه الشاحنة مثل الكلاب الجائعة، يحملون خطّافات يدوية الصنع لتساعدهم في نبش أكياس القمامة والبحث داخلها عن حاجات مفيدة. حتّى بعض الكهول الكبار تجدهم هناك، يبحثون عن أيّ شيءٍ قد يكون ذا قيمة، نحاس، ألمنيوم، ألبسة، أغطية، ألعاب أطفال صغارمكسورة، أحذية، بعض أدوات الزينة، يتدافع فتية القرية على كومة الخردة والنفايات ويقتحمونها بأذرعهم وأنوفهم. معتادون على الرائحة الكريهة، يسبحون داخلها على أمل إيجاد أيّ شيء يصلح للبيع أو اللّبس أو الأكل أو الاستعمال. وعاثر الحظ من يقحم يده فيمسك حفّاظات أطفال، أوزجاج مكسور يدمي يده.

"زوبية مقران" بمثابة مصدر رزق للكثير من عائلات القرية.

تتلبّد سماء القرية المنخفضة وترتدي وشاحها الأسود، تتسارع الحمائم لإنهاء طقوس الغزل فوق قرميد أكواخ الطوب، مذيعة الدّخول لأوكارها الدّافئة، تنبح الكلاب دون توقّف، تنبح وتتناحب. في محور الطريق تتدحرج كريات الأعشاب اليابسة المشكلة من خليط من الحلفاء والديس اليابس، تدفعها أرجل الريح العاتية، ثمّ ها هي ذي حبّات مطرٍ خجولةٍ باردة تقبّل وجهي. حبّات مطر تعزف بألحان ربانية، تعانق الأرض وتضاجع التراب بلهفة وغنج، تفوح عطرًا سقط من أيدي ملاك يتطهر في عدن، رائحة امتزاج المطر بالتراب يبعث عن رائحة تثير النشوة والقشعريرة في الجسد، حبّات مطر ترشّ الغبار على شواهد القبور المسيحية لمقبرة النّصارى، التي تظلّلها أشجار الدفلى من كلّ جهة برؤوسها الأرجوانية، هناك حِذَاءَ الطريق قبالة تبدو المقبرة النصرانية صامتة في غربة ووحشة، صلبانها تطل برؤوسها البيضاء بثقة على الطريق تنادي بلغة غير مفهومة لا أحد يسمعها أو ينتبه لها، موصدة مذ ذاك العام، بغموض لا متناه يثير في جسدي الرعب كلّما عبرت جوارها، في الجانب الآخر حذاءها تلك السّاحة الترابية الصغيرة وراء المقبرة، أين كنا نلهو بلعب كرة القدم أيام المتوسطة.

نفر من صبية القرية المشاغبين لا نملك كرة قدم حقيقية وبدلها كنّا نحن من نصنع كرتنا، كرتنا عبارة عن جورب محشو بجوارب أخرى مكور ومربوط بإحكام، أو في بعض الأحيان كيس حليب بلاستيكية نملأها بالقش المبلول أو بأكياس أخرى المهم نحشوها بأي شيء طري، ثمّ نحدّد المرمى بصخرتين بعدهما عن بعضهما حوالي عشرة أقدام فتى قروي، وطول الملعب حوالي العشرة أمتار، ننقسم إلى فريقين من ستة أولاد وحارس، أنا الحارس، أطير مثل القط وأقفز لأصدّ الكرة. أقصد الجورب المبلول، بوجهي وأنفي وأي طرف آخر من جسدي، أتصدّى للكرات بحرارة وتضحية من أجل نشوة الفوز ومن أجل أن لا أضطر لدخول الجبانة وجلب الكرة التائهة بين قبور أبناء الرومي، يا حسرتاه على الأيّام، ويا حسرتاه على "علي الكيلو"، فتى قصير خفيف الوزن، ذو رجل ذهبية وتسديدات ثاقبة، مهاجم مهاري من الدوري القروي المحترف، حذاؤه الكروي عبارة عن فردتين من حذائين مختلفين شكلًا وماركة ومع ذلك لا يخطأ المرمى أبدا، خاصّة عندما يضع كالة الشمة تحت شاربه، يتساقط الفتية بين أرجله كالذباب المصروع، هو الوحيد الذي كان يجبرني على جلب الكرة من المقبرة، وأعز أصدقائي "بلوطة" حكم اللقاء، لا يملك صفارة وإنما يملك أصابع، لا يملك بطاقة حمراء وصفراء وإنما يملك قطعتين من غلافي كراس، كثيرا ما كان يتعرض لنطحات رأس جراء قراراته التحكيمية المتسرّعة، كنا نلعب دون وقت حتّى ينهار أحد الفريقين أو تغرب الشمس، الفريق الخاسر يحمل الفريق الرابح على ظهره على طول الطريق، وأحيانا نلعب على قارورة "قازوز" حمراء باردة، عشرين دينارًا، كل واحد يضع عشرين دورو ويلعب كأنه وضع نصف رزقه على طاولة الملعب، لذلك نلعب بشراسة حتّى الرّمق الأخير، إيه يا الدنيا. كم أحنّ لتلك الأيام وكلّما عبرت من هنا تعود بي خيوط الذاكرة لركن مثير من الزمن.

يزيد انهمار المطر وينكسر زجاج السماء ليعكس بريق الحسناء، فيشقّ أمامي أفق القرية المخبّئ في ضباب جيب الجبل العتيق.

أباعد خطاي، أسارع في مشيتي، أنا في الثلث الأخير من الطريق، تزمجر السماء، تنوح على رأسي، تبكي بكاء طفلة صغيرة، لم تبك منذ مدة، أمطار الخير، أمطار متأخرة من فصل الشتاء يسميها القرويون "صلاحة النوادر".

- يا ربي افتح علينا يا رزاق الغوابر..

أداعب قطرات المطر بين أصابعي، أرفع رأسي ثمّ أغمض عيني أترك الأمطار تسقط لتبلل جدار عيني وشعري المغبر، أمد لساني ألتقط قطرات المطر، أبتلعها، عطشانا، أفتح فمي، أشرب قطرات المطر، التي لا تزيدني سوى عطشا.

ثمّ وأنا في طريقي نحو دارنا... وإذ بي أصادف رجلا يظهر عليه أنه غريب، خرج من مزرعة الحركي المهجورة التي لا يدخلها سوى أقوياء القلوب والمتشردين والجن والسكارى، المزرعة ذي على حسب قول الحاج عدة أن المكان يعود لحقبة الاستعمار الفرنسي، حيث كانت مقرا للتعذيب والتنكيل بالمجاهدين الجزائريين، حكى لي الحاج عدة ذات ليلة أن هذه المزرعة كانت مقرا لتعذيب المجاهدين بشتى الطرق التي لا يتخيلها العقل، والتي تضرب حقوق الإنسان بالعقب على الحائط، داخل مزرعة الحركي تاريخ من الدّم والصّراخ، وذكريات من دم يسلخ فيها المجاهدون من جلودهم وهم أحياء ويرش الملح فوق أجسادهم المسلوخة العارية، وبعض المجاهدين تقلع جلدة رأسهم بشعرها، وبعض الضباط الفرنسيين الغاشمين، أشهرهم الضابط الفرنسي "ڤامبو" Gambou " "الذي سميت القرية المجاورة لقريتي على اسمه يحمل في جيبه مقصًّا خاصًّا بالأشجار يستعمله خصيصا لانتزاع أظافر المجاهدين من أصابعهم، ظفرا بظفر حتّى يفشوا أسرار الجبهة التحريرية ومقر اختباء المجاهدين، ناهيك عن الصعق بالكهرباء والتحرشات الجنسية الفظيعة.. انتهاك صريح لحقوق الإنسان، حيث أن المسؤول عن تعذيب المجاهدين داخل هذه المزرعة عبارة عن حركي"خائن"، لذلك يطلق على المكان مزرعة الحركي، لا يدخلها سوى المشردين أو الأشباح أو أنا و"أولاد شعيبي"، بأكياس الحليب الفارغة وعلب الغراء الصغيرة، كنا نزور المكان حينما يشتدّ بنا الفراغ والبؤس من أجل أن ندوخ بالباتاكس[1]، حيث نقوم بإفراغ علب الباتاكس داخل أكياس الحليب الصغيرة الفارغة التي نخرجها من الزبالة ونستنشق الغراء حتّى تصيبنا الدوخة والنقرة، النقرة هي تلك الصافرة التي

1 - ماركة قديمة للغراء. تسود هذه الظاهرة في الأحياء الشعبية الفقيرة. ظاهرة استنشاق الغراء من أجل الحصول على نشوة الانتشاء

كنا نسمعها حينما نبدأ بفقدان الوعي من الدوخة التي يسببها نقص الأوكسجين ورائحة الغراء الشديدة، كان لنا الباتاكس عبارة عن مخدرات رخيصة، مبتكرة ومبهجة، وحين كنا لا نجد الغراء، نستبدله بالوقود، وهذا الأخير هو أقوى مفعولا من الغراء، وبما أننا كنا صغارا ويمنع علينا شراء الوقود من المحطة، كان "للسوكو" أكبرنا وأغبانا، سيارة R4 نلم الدراهم خمستنا، ونملئ خزانها الصغير كاملا، ثمّ نمتص من خزانها الوقود، ونخزنه في قوارير الماء... ونستنشقه كلما تمكن منا الفراغ.

كتفا هذا الرجل أمامي عريضتان ومشيته مريبة وحتى العكازة في يده لا تبدو غريبة عني..

– السلام عليكم.

– ".........".

لم ينبس ببنت شفة.

الرجل نحيف، يرتدي قشابية وبرية بلون بنّي قاتم، يضع قلنسوتها الكبيرة فوق رأسه لتغرق داخلها ملامح وجهه، من قصر القشابة، تبرز ربلة ساقيه، نحيفتين كساقي ديك عروبي أحمر، بحذاء أسود، مطوي عند كعب رجله، لا ينتعله كاملا، ويكتفي بإدخاله في رجله وجره، فوق رأسه قبعة من القش تظلل معظم ملامحه، تغرق داخلها عيناه، عليها آثار الحرق في جزء من حوافها ورغم طول ساقيه، إلا أنّه كان يمشي ببطء، يضم يديه وراء مؤخرته، حيث يقفل يدا ويضم بها الأخرى، مطأطأ الرأس، ينظر نحو الأرض يتثاقل في مشيه، رغم غزارة تهاطل الأمطار كان يقصد في مشيه، لم يغير من سرعته.

- أض...ال...طفي....ض، ما.....ي..ق....في...الواد..غ..حج...ره.

-.....

كان يتمتم بكلمات مبهمة ما إن تصل مجال سمعي حتّى تتلاشى مع صوت هطول المطر.

تعمدت أن أتباطأ وأقترب منه، لأسترق السمع.. مرّبجانب الطريق عجوز يحمل براميل الماء فوق بغلته القصيرة. ثمّ عبربجانبي كلب سلوقي يعرج برجلٍ مكسورةٍ في فمه قطعة قماش. قبل أن أصل الرجل.

- أضرب النح وطفي الضو

...ما.ي..ق....في...الواد..غ..حج...ره.

- آه!

- ما يبقى في الواد غيرحجاره.

- يا ربي أين سمعت هذه الجملة من قبل ثمّ وأنا أحاول معرفة ملامح الرجل، شدّ ضغط أصابعه على عصاه الخيزرانية معقوفة الطّرف المربوط بسلك نحاس رقيق، وزاد من سرعة مشيه ليختفي في ضباب طريق القرية الهلامي.

تعرّق جبيني، وزادت نبضات قلبي، تجمدت رقبتي.

تزداد قفزات قلبي، تتدافع أنفاسي، العرق البارد يتساقط من على جبيني، ساد الظلام في الأرجاء، جاء الليل مصطحبًا خوفي معه وزادني هذا العروبي طويل الركائب خوفًا، الطريق شبه خالية، من بعيد أضواء القرية أمامي تبدوكشهبٍ ينعكس نورها في كوكب عيني، يتثاءب الجليد وينسف في كفّي، تنكمش أصابع يدي وتتصلّب، أقبّل الليل باكرا يزفّ برده الذي راح بالكف والسنداد يدهس أصابع رجلي البريئة، النّافذة مفتوحة من الثّقب الموجود في حذائي "صابر". هطول المطريزداد، ويزيد طرديًا معه إيقاع أنفاسي، من الخوف تكمّشت ودخلت في بعضي، سحبت جثتي الباردة دخلت بين الأشجار واندسست تحت صدرِ صخرةٍ كبيرةٍ بين أشجار الصنوبر العريضة كعنكبوت صغيريندس حين تدمع السّماء، كانت تلك صخرة الغولة هي نفسها التي يأخذني الحاج قدور لنصطاد فوقها أيام الصّيف، وها أنا الآن تحتها في هذا الشتاء الشديد، في انتظارشفقة الأم الطبيعة ورحمة الرب، شعرت بأنّ بطني فارغ. وتمنّيت لوأنّي كنت أملك ولّاعة أوعلبة كبريت، تمنّيت لوكنت أملك سقفًا.

على الأرض إطار كبير لعجلة محراث خلفية قعدت فوقه، أسندت ظهري، مددت رجلي قليلا، وضعت محفظتي، ورحت أنفخ في يدي وقد ابيضّتا بياضًا شديدًا وتبلّلت كل ثيابي، قميصي الجديد بدأ يفقد جماله.. تفقدت محفظتي لحسن حظي وجدت بقايا خبز تبلّل قليلًا وحبّات من التين المجفّف لا أعلم من أين جاءت، أسكتت بها عصافير بطني قليلًا.

_فجأة؟

وبينما أنا شارد في خليط الظلام والأمطار والأشجار، البرد أمامي أكاد أعانقه وأترجاه، أمامي على الأرض العشبية المبللة على بعد مترين، حلزون سمين يتزلج بالعرض البطيء، الحلزون مزيت يلمع بحجم إبهامي على ظهره يحمل منزله المتنقل أنَّ شاء حط الرحال، بلا مبالاة يمد قرون استشعاره، ليعرف الطريق أمامه، يبدو أن آخر اهتماماته هو الوقت، لا أعلم كم تعيش هذه المخلوقات لكنها حتما تعيش كل لحظة من حياتها الحلزونية البطيئة بدقة، لا تحرق سعرات حرارية كثيرة لذلك لا يوجد حلزون نحيف وطعمها لذيذ، خصوصا عندما يطهوها جدي على البخار مع السبانخ والبيض، حيث أنه في أحيان كثيرة كنت أذهب للصيد معه، بجانب هذه الصخرة، جدي يكلفني أثناء ذهابنا للصيد بنبش التربة الحمراء وجمع بعض ديدان التربة الطويلة التي نستعملها كطعم للصيد، ثمّ كنت أثناء عودتنا للمنزل أجمع الحلزونات من على الأرض لتكون على طبق العشاء رفقة بعض السمك من الذي نصطاده من هذا النهر، آه يا حضرة الحلزون لو تقابلنا في زمان غير ذا الزمان لكنت في طبق عشائي.

ثم فجأة وأنا أتأمل اللوحة الزلجة الحلزونية أمامي تناهى لسمعي، صراخ متقطع.

– أش.....أن...أل...مح..رس.

الصوت لم يكن يبدو بعيدا، لكنه غير واضح.

تناهى لخيالي أن جدي رفقتي فوق الصخرة وهو يروي لي حكاية الغولة التي كانت تأكل أولاد القرية في يوم ختانهم، وتسرق أعضائهم الذكرية وترميها في الواد...

– أه يا سيدي ربي فرجها على خير، الحمد لله أنا الآن مختون ومصون.

ثارت حكايات جدي وسرب الأفكار الغريبة والمخيفة حامت داخل رأسي، حشرت رأسي بين ركبتي، تكورت على نفسي وسحبت أمامي محفظتي، واحتميت داخل إطار عجلة محراث في انتظار مرور العاصفة.

– الحمد لله رب العالمين.....قل هو الله...قل أعوذ... تبارك الذي...

شرعت بقراءة القرآن والدعاء في صوت خافت، استحضرت كل ما كنت أحفظه من آيات في الزاوية "الهبرية البلقائدية" بالقرية قبل أن أدخل للمتوسطة وأحتك بالشياطين وشر الناس.

بدأ المطر يخف مع كل آية أقرأها، وحِدّة الصراخ تزيد مع كل سورة أنهيها..

ثم بعد لحظات خف انهمار المطر، لأنهض بحذر من حلقة الإطار وأخرج من تحت الصخرة الصماء، ولا يزال صوت الصراخ يقترب أكثر، شدني الفضول والطريق لأتبعه. رحت أمشي بخطوات قط على حافة الواد.

ابتلعت ريقي.. حينئذ تذكرت أني نسيت محفظتي داخل إطار العجلة، قبل أن أولي أدراجي، كسرت عرف صنوبر نزعته لأحمي نفسي من الحيوانات المفترسة ومن شر ما خلق، من على الأرض حملت بين أصابعي صخرة ملساء متوسطة الحجم، وعدت لجلب المحفظة.

الظلام أرخى ستائره على المكان وأنا على ضفة النهر الطينية الزلقة. متشجع أقاوم الخوف وخيالي الخصب.

عاد الصراخ مجددا...تقدمت نحو حافة النهر أكثر. بدى لي الصوت أكثر وضوحا. يعكره سيران مياه الواد الجارفة التي ارتفع مستواها جراء نزلة الأمطار الأخيرة.

– أش...أ...لا...إل..مح...رس..ا

صعدت فوق جذوع شجرة الصنوبر، حتّى أوسع مجال رؤيتي، لأرى سطح مجرى الواد.

الصدمة!

تفاجأت بجسد يصرخ عالقا بين أغصان الأشجار المتدلية داخل مجرى الوادي، يلوح بيده، يصعد تارة فوق الماء وينزل تارة أخرى، يلفظ أنفاسه الأخيرة على ما يبدو.

نزلت من الشجرة بعدما حددت مكان الصوت، اقتربت من حافة الواد، الرجل يصارع الموت، يضرب بيده في مياه الواد الضحلة وصوت صراخه المتقطع يمتزج بغرغرة انسياب المياه داخل فمه، يغرغر، يتخبط، يتلوى، ينزل، يصعد، يصرخ، ثمّ عيد دورة الموت تلك. بيد يعانق صخرة ملساء زلجة كانت لاكتسائها بصوف الجران، بيده الأخرى يتشبث بغصن شجرة طري رقيق قد ينقطع في أي لحظة، تسحبه المياه الجارفات الساحقات دون هوادة والمخلوق يصرخ بقوة طالبا النجدة.

فركت عيني لأتأكد مما أراه أمامي، جسد يتخبط كالقط في برميل ماء، تكاد تخر قواه وتخونه ذراعاه، هذا يبدو من صراخه الذي يخفت صرخة بعد صرخة، تراءت لي فكرة أن أذهب نحو القرية للاستنجاد بأحدهم ليقدم المساعدة. ثمّ عرفت أنه لا جدوى من ذلك، وأنَّ هذا الرجل أمامي لن يقاوم أكثرولم يعد باستطاعته أن يتمسك لمدة أطول بتلك الصخرة، وحتما إن بقي هكذا لمدة وجيزة ستجرفه مياه النهر الهائجة وسيلقى حتفه لا محالة. يعني أنه لا فائدة من الاستنجاد بآخرين، وعلي أن أتصرف لم يعد أمامي خيارسوى أن ألعب دور البطل.

رميت جذع الشجرة داخل المجرى لأتفقد سرعة المياه، وما كاد يلامس الجذع سطح الماء حتّى اختفى مع السيل في لمحات من البصر. تنهدت، ورجعت للخلف ثلاث خطوات على وجه الخوف، نزعت محفظتي وضعت فوقها الصخرة التي كانت بيدي، ثبت كيس أدواتي وأوراقي مخافة هبوب الريح وتعريت من نصف ملابسي،

كانت الأمطار دافئة والريح باردة تنخر ساقي، حشرت ملابسي داخل محفظتي ثمّ فركت كفي، وها أنا أستعد للقفزة، نسيت البرد ونسيت الطريق، كل ما كان أمامي هو إنقاذ هذا الرجل، رجعت للخلف خطوتين على مقياس الشجاعة والمخاطرة حتّى أزيد سرعة قفزتي، أجريت في الحسبان سرعة النهر القوية إضافة إلى سرعة الريح وسرعة جريي مع شدة تبلل ضفة الواد، إذ لا حل أمامي سوى أن أقفز بمسافة أمامه وأسبح تاركا مجرى تدفق الواد يسحبني بمسار مائل نحوه. إذ كلما سقطت أقرب منه كان هذا من صالحي ومن صالحه. فهذا من خبرتي التي أخذتها في الصيف هنا، حيث أعرف واد بوغولة جيدا.

هممت أثبت رجلي على الأرض لأتخذ وضعية انطلاقة عداء، سحبت نفسا عميقا، حسبت المسافة بيني وبين الوادي وكانت ستة أمتار تقريبا، انطلقت. أجري، أتسارع، أقفز، أشق سطح الماء بأصابعي، أغطس مباشرة، أمسك أنفاسي، أبقى تحت الماء لأقاوم التيار الجارف، أدفع برجلي عكس اتجاه التيار الذي كان قويا، ثمّ أرفع رأسي بعد ثوان لأجد أني قد جرفت بسرعة نحو الخلف، الرجل على بعد أربعة أمتار تقريبا. ثمّ رحت أسبح بقوة لأقترب منه، أجد نفسي لازلت في مكاني، التيارات تسحبني نحو الخلف بقوة أكثر، سحبت نفسا عميقا وغطست مجددا لأتحدى أطنانا من المياه مجدفا عكس مجرى الواد. السيل جارف يسحب جسدي يبعدني عنه، أثبت نفسي، أجمع أنفاسي أكثر. أغمض عيني وأستعين بسمعي لأتبع صوت الرجل بكلمات متقطعة سمعته يصرخ ويقول:

– آه آ..أشه...أن..لا...آه...مح آه...

– آه أشه... أن... لا... إل... محم...ر

عرفت أني في المسار الصحيح. دفعت برجلي أكثر.

– أشهد.. أن.. لا إله.. محم.. آه... رس.. ال.. آه

تابعت وزدت دفعا بذراعي.

– أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله

عرفت أني وصلت لما بدا الصوت لي مفهوما وواضح كان يذكر الشهادتين، كان مذعورا يائسا.

رفعت رأسي وأمسكت بكمه وكتفه من الخلف ثمّ تشبثت بالصخرة أمامه.

– ششششت...اهدأ

– أ...م...ي..م..ة....أه...آه..آه...أم..ي..

والذي فاجأني حينما وصلت إليه بدأ بالبكاء، كان يردّد اسما لم أتذكره تحديدا. ولم أتمكن من التعرف على ملامح وجهه بسبب الظلمة والفزع الشديد الذي كانا يعتريانه... تشبث بي بقوة.

أحاط بي بذراعيه كاد يخنقني. كبل يدي لم أقوَ على التجديف. كان يلتفّ حول جسدي الصغيربجسده الضّخم كأخطبوط يتشبّث بفريسته.

أنا أتخبّط، أغرق والرجل يغرق معي، التيار يجرفنا للمنحدر بشدّة، الماء يدخل من أنفي، من حلقي، الماء يسدّ أذني، تقلّصت أنفاسي، أحسست ببرد رهيب في أطراف أصابع رجلي، أسعل، أختنق، الرجل يعصرني بين ذراعيه أكثر، يسحقني كسمكة سردين طريّة، الماء يغمرني حتّى أذني، أرفع رأسي لأصطاد الهواء، أتصارع مع الرجل ومع النهر ومعي.

فكّرت في نفسي، هل أنزلق من بين ذراعيه وأتركه للموت، هكذا ربّما أتمكّن من الوصول للضِّفة وأنجو. لكن إن أنا سلّمته للموت لماذا تكبدت عناء إنقاذه من المرة الأولى أصلا! تكالبت ضوضاء من أنصاف الأفكارداخل رأسي، تضاربت عليّ مشاعر الفزع والخوف والشجاعة، أدركت حينها أنّ على المرء أن يعيش من أجل هدف إمّا أن يحققه أو أن يموت لتحقيقه. وبمقابل ذلك وجدت نفسي في الفراغ لا أملك شيئا ولم أرد من الموت أن يأخذني هكذا معدمًا، لا لأنّي أردت الحياة ومتاعها. وإنما أردت العيش من أجل شيء يستحق الموت لأجله أو العيش لتحقيقه.

في تلك الأثناء تذكّرت كيف كنت ألعب مع بلّوطة حين كنا نغرّق بعضنا في الماء، تذكّرت الطريقة التي كنت أحبس بها أنفاسي تحت الماء عندما يريد أن يغرقني ثمّ أنزل تحته، أمسكه من رجليه وأوقع به.

حبست أنفاسي كما كنت أفعل. في تلك الأثناء أحسست أنّ الرجل بدأ بتحرير يدي، صعدت لأتنفّس قليلا. جدفت برجلي بسرعة ودفعت بيدي بقوة نحو الضفة القريبة، صمت الرجل، ارتخى ومال نحوي بكامل جثته، وبذلك سهّل عليّ المهمة، ثمّ بعد صراع وتخبط وابتلاع الكثير من مياه النهر المعكّرة تمكّنت من إخراجه.

مدّدته على الضفة، تفقدت نبضه. لا يزال حيا. كان رجلا ضخم الجثة لا أعرف حقّا كيف تمكّنت من إخراجه من المياه، حتّى أنّي لم أستطع سحبه لأضعه تحت الصخرة التي كنت أحتمي بها.

كان الليل حالكا والأشجار ترخي ظلالها على ضفتي الوادي، ضوء خفيف من القمر الذي ينعكس على سطح الضفة الطينية للوادي يعطيها لمعانا غامضا وفاترا، أسندته في مكان غير بعيد من الضفة. رميت فوقه بعض أوراق الأشجار، وأغصانها لأخفيه من الحيوانات الليلة وأحميه من الأمطار، ثمّ انطلقت مسرعا لأحضر بعض المساعدة من القرية أجري وألهث وأسعل المياه التي شربتها.

دخلت لاهثا إلى مقهى بلهاشمي في مدخل القرية.

– يا عمار اجري

– غير الخير، غير الخير!

– أحضر معك الجماعة واتبعني هيا

– يا طفل، ارتاح.. ارتاح.. احكي لنا على مهلك، تريث.

– الرجل يموت..

– يموت! أين!

– هيا بنا..

لما وصلت المكان مع نفرمن قريتي، لم أجد شيئا، الرجل اختفى، لا أثرله، كأنّ الأرض بلعته.

– أين هذا الرجل الذي يموت؟

– كان هنا، أقسم بربي يا إخوتي!

– هل تحسبنا أطفال؟

– لا لا!

– والله في طريقي إلى المنزل لاقيته يغرق داخل الواد، فقفزت لأنقذه، مددته هنا، وجئتكم طالبا المساعدة.

– أظنك جننت على ما يبدو!

و آخروهو يضع الفأس من يده

– ياخي مهبول ياخي.

و أضاف عاشور القهواجي:

– اسمعوا يا جماعة هذا المكان فيه ذوك الناس

_ذوك الناس!

_أششت يسمعونا! نعم مسكونة، وساكنتها جنية رومية، حكى لي الحاج عدة مرّات أنّهم عندما كانوا يمرّون من هنا مع اللّيل يرون الأضواء مشتعلة على طرف الواد ويسمعون أصوات أطفال صغاروزغاريد نساء.

- قل والله! هيا امشي نخرج من هنا، قبل ما يضربنا جان.

- لكني قد شفته بعيني هاتين اللتين يأكلهما الدود والتراب..شفت الرجل يا ناس.

- هذا ما ورثته عن اللاز. الكذب فقط.

- هيا تحرك، تحرك، أو نتركك وحدك هنا.. تتزوج بيك الروحانية...

- يا جماعة وأ..

- ابقى تتخايل هنا لوحدك! وداعا.

ظنّ سكّان القرية أنّي أكذب وحين قصصت عليهم ما حدث رحلوا ضاحكين وتركوني وحيدًا..

رجعت المنزل متأخّرا ومتعبا، بعد يوم طويل وغريب، حين شرعت بتغيير ملابسي لأدخل فراشي شعرت أن هناك شيئا ما ينقصني.

ثم حين وضعت رأسي على وسادتي تذكرته

وضعت يدي على صدري ولم أجدها!

- حامية، شافية، عامية.

بين الورق والرّيش بين المخلب والطحلب بين البذور والطّيور

***

يبدو للمتأمّل عضوا حميميا من أعضاء الأم الطبيعة، جدرانه ندية من حطب قديم يبعث الدفء في أعين الناظرين، تزين خصره طحالب تلبس ثوبا أخضرا خفيفا، عاري الصدر، ينفث بخار ماء خفيف ومكثف، الأعشاب تتسلق جلده كأخطبوط صغير يعانق أباه بأذرعه المتشعبة ويضع رأسه على كتفه مخافة هروبه أو البعد عنه. يتنفس العجوز ويسعل من حين لآخر، يقف صامدا بصمت مهيب.

***

ينتظر عبور غريب يدلّه على طريق العودة. تاه ولا أحد أتاه.

البَلّـبال

بين سحاب هلامي حزين، يغازل حبّات المطر الخجولة، ونسيم هواء منعش يدهن حناجر طيور الحجل والمقنين[1] لتعزف ألحانها الرنانة، فتلطخ بها خلفية اللوحة التشكيلية في سماء فسيحة تتدلى منها عناقيد بنفسجية، تقبل رأس جبل "دوي" المهيب منتصب القامة، كإله صغير يحمي القرية من الريح ويغشاها بظلاله، يتفنّن بسكونه الحكيم، تارة يمسك ريشته ويخلط الألوان حين تحزن اللوحة وتبكي ليلها، وتارة أخرى يمسك عصاه، يلوّح بها في السّماء ليقود الجوقة الموسيقية الخضراء، من آلات نفخية وصخرية عرعارية، صنوبرية، بخارية وقصبية، بلبلية، لوزية وحلبية، تعزف على أوتار ميلاد كل فجر جديد. وحينما يتبجّل ويلبس معطفا أبيضا برّاقا بهيجا، يقود السمفونية السحرية الهادئة، في أثناء تلويح خادمته الشمس بأشعّتها الدافئة، فوق رأسه وأكتافه، فتعرّيه من ثوبه، عشاقة الشقية تلك، تشتاق لمظهره العاري الشهي، كفتاة بريئة في ليلة دخلة.

***

يندس عنكبوت صغير بين أغصان الزعرور، تدمع السماء، يتهاوى العنكبوت، يهوي العنكبوت، تدمع السماء.

حشوة!

***

1 - طائر الحسون باللهجة الجزائرية

تتخبى "جدة قوندة[1] "، تتخبى كقطعة طرية من الإسمنت، تتخبى بين حبات البلوط، تتلوى، كطفلة غريرة، يحرسها جنود من البلوط بقبعات وبرية رمادية، في ثكنات من حطب، يشتهون رائحة الموت، تطحن الجنود لتصنع كسكسا شهيا وبعضها يشوى حتّى يحمر جلده، يصلى على ناردذات شهب زرقاء، وجمر أحمر متلألأ كحبات اللؤلؤ الملتهبة.

نشوة!

***

دعسوقة فخمة، سمينة مكورة لماعة، بجناحين سوداوين مغلفين بغطاء أحمر، أملس ملطخ ببقع حمراء، لا تبالي، ما على بالها شيء تطير بين الزهرة والوردة، تقلب نفسها وتتدحرج على المرج الأخضر.

لوعة!

***

خنفوسة شقية /غزالة فقدت أمها الخنفساء، على المنحدر تتسلل بجانب دار زبيدة، تكوّر وتكوّر وتدفع، تدفع! صاعدة المنحدر الزلق، تثبت ساقيها الخلفيتين القصيرتين في الطين وتدفع بذراعيها وصدرها ملطخ بالطين والشقاء، تجر كرة الروث المتماسكة بهندسة متقنة.

تفلت منها حبة الروث، تتدحرج إلى أسفل المنحدر، تنزلق الخنفوسة بكرشها المنتفخة، من دون تكلل أو تزمل وتلحق بها، تعيد الكرة وتدحرج الكرة، كأن شيئا لم يحدث.

1 - حشرة السرعوف أو فارس النبي.

إرادة!

***

بغلة رمادية صبورة، نباح الكلاب يمتزج بعواء الذئاب ليبطن فضاء القرية، رنين حشرة الزش ينبعث من شجرة الخروب الشامخة في وسط القرية.

معزوفة!

***

أشجار الكاليتوس تعانق الجبال في شموخها، الخروبة عتيقة حتّى السحابة، تدمع معجونا أصفريخرج من بين تجاعيدها الحكيمة أين خصرها العريض، تخفي حكايا أبطال احتموا تحت ظلها ودوي رعود جيوش وأمطاررصاص فضي وانفلاق حناجر دموية وصرخات أوبرا ثورية تفوح بعطر الرجولة، الشهامة والتضحية، في جوفها تحبل صدى مات قبل أن يولد، يسمعه من عاش أيام الثورة والجهاد والبطولة عبارات وعبرات

السي المخفي والحاج عدة والحاج يحي وأحمد البغل.

و حكايا جدات وحكايا.

وراء الخروبة الطويلة. بعشرين قدما على وجه الحميمية الفنية، ينبت مغازلها. مخلوق اللوز الأبيض البسام بهدوء أوراقه الطويلة ونواره الأبيض المنتحروالمتهاوي على أرض بكر، خصبة، تبلغ ذروة نشوتها بطلقات من الريح العاتية والنسيم الفحل، والأمطار المتلاطمة التي تعطي الأكسير السحري لشبق حياة القرية واستمرارية طهورها وصفوتها وغنجها.

بين الورق والريش بين المخلب والطحلب بين البذور والطيور.

تخلق شوارع مجتمع من العصافير المهذبة والحشرات الفنانة والزواحف الأنيقة والصراصير المضيئة سهرانة الليل، فراشات متأنقة ترقص وتغني على أوركسترا الورود المزركشة وتعانقها عين شمس ذهبية من خسرها، والتي ترتمي بخيوط شعرها الذهبي الأشقر لتثير سطح ذاك المنزل الريفي العريق، الذي يتوسط اللوحة الفنية التشكيلية ويقود الجوقة الموسيقية، كعجوز اعتزل الفن وتاه، وظل طريق العودة لبيته، قعد في مكانه يفكر من أين جاء، يتكئ على شجرة الخروب، وينتظر عبور غريب يدله على طريق العودة. تاه ولا أحد أتاه.

يبدو للمتأمل عضوا حميميا من أعضاء الأم الطبيعة، جدرانه ندية من حطب قديم يبعث الدفء في أعين الناظرين، تزين خصره طحالب تلبس ثوبا أخضرا خفيفا. عاري الصدر، ينفث بخار ماء خفيفا كثيفا. الأعشاب تتسلق جلده كأخطبوط صغير يعانق أباه بأذرعه المتشعبة ويضع رأسه على كتفه مخافة هروبه أو البعد عنه. يتنفس العجوز ويسعل من حين لآخر، يقف صامدا بصمت مهيب.

رأسه ملفوف بعمامة حمراء مطرّزة بقطيفة خضراء، يتصاعد دخان خفيف من قلبه، ذاك الذي ينبض بحطب أحمر طازج، يضع كرسيا وجريدة ورجلا على رجل ويتأمل اللوحة الفنية البديعة المحيطة به، ينفث دخانا فحميا من منخاره المجوف بسهاد كربون منعس.

يراقب السيدة التي تجلس محتارة قبالته، تنتظر العجوز ليشرفها أحد من سكانه بارتشاف دلاء من جوفها العاتم، صامتة وتتبادل النظرات في انتظار ذلك الدلو ليداعبها وتسقيه من ريقها.

بالجانب الآخر كتلة عجيبة من الطين تحمل في فمها بعض الحطب الأحمر الشهي. هي ذي "الكوشة"، فرن يدوي الصنع لإعداد خبز الدار والمطلوع قابعة على أرض خصبة خفيفة العشب، متشققة الوجه، حذاءها تضع صينيات مستديرة من حديد، بجوارها شباك صيد نصفها ممزق ومهترأ الخيوط ونصفها الآخر متشابك مع بعضه.

كل هذا المزيج الفني يحيط بالكوخ الشاحب، كل جزء من القرية يسرد قصة في حد ذاته، يبعج الزمن ببساطته وبأصالته، كلوحة فنية كقصيدة شعرية شعبية. مسرحية غير مكتملة حتّى يكملها سقوط نهاريوم جديد على الكوخ الصامد.

صياح الديك منبه موثوق في قرية "البلبال "تستيقظ الحرائر من النساء أولا لإعداد فطور الصباح، قدح من الحليب كامل الدسم مع بعض خبزات من الكسرة أو المطلوع وفي بعض الأحيان تمرولبن. الأطفال الصغار يتوجهون للمدرسة سيرا على الأقدام بوجوه صدئة وأقدام نصف حافية. مآزر حائلة اللون ومحافظ رثة، ويتوجه الرجال إلى العمل في المزارع أو في مقلع الحجارة أو شد الحيطان وارتشاف الفراغ القاتل.

جدة قوندة:

حشرة اليعسوب أو فرس النبي، لعل من الأسباب التي جعلت أطفال القرية يسمونها بالجدة أو سؤالهم لها عن أخوالهم هو شعور شوق يتولّد في الأم التي عادة ما تكون بعيدة عن أهلها، فتلاعب أبناءها وتحبب لهم أخوالهم بطريقة مرحة يزدادون بها شوقا لهم. وأي عيّنة أسهل من السرعوف الساكن الذي يتيح لك التأمّل ومحادثته.

كان الأطفال يفرحون بلقائها وينزلون عليها بوابل من الأسئلة، فيسألونها عن القبلة ويغنون لها "آ سيدي الحاج قلنا وين راهي القِبلة، منا ولا منا؟" أو يسألونها عن أحبائهم "وين راه فلان من ولا من؟" أو أخوالهم "بوشعيرة وين راهم خوالي"، "يا ما عيشة خوالي هاك ولا هاك؟" أو عن أشيائهم المفقودة أو أحبائهم، ويتوددون لها "يا لالة عودة ناسك من ولا من؟". فتتفاعل معهم بحركاتها الرشيقة والغامضة وتنحني نحو أحد الاتجاهات أو تشير بطرفها أو تهز رأسها أو قرون استشعارها نحوه. فيتبعون الاتجاه الذي تشير لهم به.

فهي بوصلة الطفولة، حتّى قيل "كي تهمل وما تعرفش داركم وين راهي سقسي بوشعيرة". "عندما تضيع ولا تعرف طريق الرجوع سل اليعسوب" ويتخيل غيرهم

مسرحية غنائية: "جيدة عريبة ماين كنتي.. ويتخيلونها ترد قائلة: كنت نغسل لوليداتي ... كنت نمسح لوليداتي ... كنت نمشط لوليداتي ... جيدة عريبة واين كنتي.. فترد كنت نجري ورا وليداتي".

وقد يحمله بعض الفتية من وسطه كي يسألوه، بينما يقبل عليه البقية والبنات خاصة ليسألوه بلطف عن جهة زواجهم ويترقبون حركته بفارغ الصبر كي يشير بأحد أطرافه الأمامية ليريهم الجهة التي يسكنها فارس أحلامهن.

ويغلوا بعضهم ويسأله:

_ يا جدة وين نروحو للجنة ولا للنار؟

"يا جدة أين نذهب للجنة أم للنار؟"

في زاوية من زوايا البيت الريفي البديع، تسمع دندنة "عيشة "وهي تدندن أغاني شعبية قديمة في نغمات متوازنة أكثرها لحنا من كلمات..

وهناك بين أحضان الهيدورة الدافئة يرقد بوضعية جنين، فتى نحيل يميل للسمرة بشعر أسود وجبهة واسعة، يضاجع وسادته بلذة وألفة، وسادة حبلى بصوف الأغنام والخرفان حيث يستر المشهد الحميمي حنبل أمازيغي أصيل من الوبر المزركش بالأحمر والأصفر.

صابر

أسمع صوتا خافتا آتيا من بعيد...أشعر بيد تحط على كتفي:

– لقمان! لقمان!

– أممم...أممم

– انهض يا ولدي انهض.. وقت المدرسة

– دقيقة.. دقيقة فقط.... أعدك!

بعد مرور خمس دقائق أو أكثر.

أشعر بنسمة باردة تجتاحني بداية من أصابع رجلي متسللة لأسفل ظهري، فعلت فعلتها وسحبت الفراش كعادتها لأنهض متثاقلا كحلزون ينزلق على أرض مبللة بعد توقف المطر يبحث عن عشب أو حلزونة.

أستيقظ بعد ليل طويل لا أحصي منه أشياء كثيرة..متكاسلا أجر جسدي المتثاقل النحيل، أحمله ويحملني باتجاه الموقد في الجانب الآخر..لأدفئ نفسي قليلا.

بعد لحظات تأتيني القهوة وبعض الفطير في صينية من نحاس قديم أصفر باهت، وإبريق أنيق يلقبونه بالبقراج يشبه مصباح علاء الدين لكنه أكبر منه حجما وأقدم منه قدما.

– هاك يا ولدي، ساخنة كما تحبها...كلّ ولا تنس إخراج زبيدة في طريقك.

– أين المقروط قبل هذا؟

– ها هو! والكسرة دافئة أظن هذا يكفيك حتّى تحمل نفسك، كلّ منه وقت الفطور.

بعينين ناعستين...وجوارب مثقوبة وهيدورة تحتي، وأمي أمامي بعينيها الخضراوين الداكنتين وتجاعيد خفيفة تختبئ بين ملامحها، أفهم معناها دون أن أسألها عن حالها وأرهقها بسؤالي همي لهمومها وشقائها.

– شكرا يا أمي..ربي يحفظك!

بعد لحظات معدودة أنهض من مكاني، أنفض بقايا النوم عني. أمشي خطوات باحثا عن...

– أين هو؟ أين رميته البارحة يا ترى؟ هيا أين أنت الوقت على المدرسة!

– أ ميييبي، أين صابر؟

ترد على سؤالي وهي تحمل بين يديها محفظتي وتضع داخلها كيسا بلاستيكيا.

– شوف تحت سريرك أو عند عتبة الباب.

***

في آخر أيام رمضان قبل خمس أعوام من الشتاء والبرد شديد، واقفا أبيع كسرة المطلوع في سوق الخضر المركزية في البلدة، لا أكف أنفخ في يدي وأمسك أصابع رجلي لأدفئها بها من البرد القارص، جاءتني امرأة تبدوا عليها علامات الثراء، اشترت مني خبزتين وأعطتني ورقة نقدية من الفئة الكبيرة، أخبرتها أن تنتظرهنا سأذهب لإحضار الفكة وأرجع، ولما رجعت وجدت السيدة قد حلت وتركت لي علبة، فتحتها فوجدت هذا الحذاء الأنيق، ولم أعرف من تلك السيدة لحد الآن ولماذا فعلت هذا؟ كان صابر أول حذاء رسمي أنتعله في حياتي، إذ كل ما أجمعه في بيع المطلوع يذهب بين مصاريف الداروالمدرسة.

أصبح هذا الحذاء لا يفارق رجلي ويشاركني في متاعب الحياة لذلك سميته صابر، مثلما يسمي الأثرياء القطط والكلاب والآلات الفاخرة أنا اسمي حذائي هل هذا غريب عليكم؟

***

أقع أرضا منبطحا بوضعية جندي. متقيد بأمر من سلطة أمي الحكيمة في معرفة أماكن تواجد الأشياء.

– ها هو، أخرج! هيا صابر...دعنا نتمشى، همم...همم كيف أخرجه من هناك الآن ؟

كان بعيدا عن متناول يدي، نزلت السلم حافيا مسرعا نحو القبو، أحضرت عصى جدي الخيزرانية وأخرجته بعد مد لسان.

الغريب في الأمر أني كثيرا ما أجد الفردتين منه كل واحدة في جهة، برغم ذلك وبغض النظر عن ذلك كنت أحترمه وأقدره، وأنفض عنه الغبار ولا أقتحم به المزرعة لأفسده بالطين والأوحال.

ها هو ذا بني اللون ذو رأس مسطحة وحواف قصيرة على جوانب قاعدته المنخفضة، يشده خيط قصير يسهل ربطه مصنوعا من الجلد، يبدو كبيرا على مقاس رجلي "رغم أن مقاس رجلي كان في عمر رجل بالغ، الشعر يملأ ساقي، كان إصبع رجلي الأكبر طويلا بعض الشيء" إلا أنه كان مريحا على مقاسي، يناسب أصابع رجلي التي يبرز منها إصبعي الأكبر في تسلل واضح، مع مرور الوقت تشكل على هندسة رجلي ونمط تراص أصابعي ليناسب قدمي، هذا مع الوقت أيضا وللأسف حفر لنفسه في جلد الحذاء حفرة يتنفس منها. كبير إخوته، يطل على العالم الخارجي دون أن يستحي، وهل هناك غير هذا الحذاء ليحمل هذه الرجل الجميلة؟ وهذه الأصابع الغريبة لذلك ينبغي علي أن أحترمه وأقدره وأذكره لكم.

***

ألبس صابر باحترام متبادل، أشد عمامته بخيط أسود متين متوسط.

أضع القشابية المدرعة بالجلد والوبر على كتفي، على صدري قلادتي الفضية التي لا تفارقني ولم تفارقني بمثابة الحرز عندي، على ظهرها مجموعة من الرموز القديمة، هدية من جدي يحي الصابري، يوم ختاني، عرفت بعدها أنها ترجع لخالي

بوعلام الصابري. جد جدي. وهي متوارثة أبا عن جد في العائلة. وهذا سر قدوسيتها وشيء آخر لا أعرفه ولم يرد جدي أن يخبرني به وبمعنى الكلمات التي قالها لي عندما وضعها على رقبتي.

أقبل رأس عيشة التي تقف عند الباب، منذ أن كنت صغيرا وهي تفتح لي الباب، تقبلني كل صباح عند خروجي لا أدري متى ستستمر في فعل هذا...حقا لا أدري!

– اعتني بنفسك يا أمي..

– يعتني بنا ربي.. رد بالك على نفسك!

أجر نفسي وأجر زبيدة لتتناول فطور الصباح...تاركا ورائي عيشة وهي تمخض في الشكوة[1]، تهزها جيئة وذهابا لتشكل زبدة طازجة تسيل اللعاب عند رؤيتها.

هز شاب نشيط في أوج عطائه كانت امرأة في الأربعينات...أما شكلها يوحي بأنها في الثلاثين أو لم تقارب من عمرها... بعينين وهاجتين مخضرتين، ذاك اللون المعكر الطحلبي، يقارب الرمادي ويميل إلى الأزرق.بشعر طويل أسود فحمي تضع فوقه قطعة قماش منقّطة بالأصفر. ضحكتها تطلع معها الشمس وتزهر المقابر.

1 - آلة مصنوعة من جلد الماعز تستخدم في خض اللبن حيث تعتبر الشكوة حلا جيدا لحفظ الحليب وتحويله ألى لبن حامض وزبدة منذ القدم، كما تستخدم أيضا لتخزين السمن والعسل والتمر.

وتصنع الشكوة من جلد صغار الماعز بعد ذبح الشاه، فبعد الذبح يتم قطع الرأس وفتح فتحة بمقدار 30 سم لكى يتحكم الجزار باستخراج جسم الذبيحة، ويستخدم في السلخ آلة حادة واليد هي من تقوم بسلخ الشاه من الداخل بفصل الجسم عن الجلد بطريقة لا تترك أي شوائب أو دهون فى جلد الذبيحة من الداخل وبعد الانتهاء من السلخ تستخرج الذبيحة من جهة الرقبة مع المكان المخصص لها، ثم بعدها مرحلة الدبغ وهي المرحلة الثانية بعد مرحلة السلخ واستخراج الذبيحة ثم بعد ذلك تبدأ عملية الدبغ باستخدام أوراق الزيتون ونبات الشعرة، حيث يتم وضع المياه في إناء كبير يسع حجم الجلد وتضاف أوراق الزيتون أو نبات الشعرة وينقع الجلد في المياه لمدة تزيد عن 10 أيام حسب ما يتطلبه الجلد من وقت وما يراه المصنع، ثم بعدها يتم استخراج الجلد من المياه، فمياه الزيتون تقوم بتسهيل التخلص من الشعر وإزالة رائحة الجلد وإفرازاته تماما كما تعطى الجلد ملمس خاص لا يتفاعل مع اللبن أو الزبدة، وبعد الانتهاء من عملية الدبغ يتم غسل الجلد بالماء والمنظفات ما يقارب عن 5 مرات مع مراعاة التجفيف في الشمس عقب كل مرة ثم أخيرا تُصبح جاهزة للاستخدام بعد فركها بالحلبة والملح المطحون.

بفم صغير وملامح تدل على التعب والاطمئنان، كيف لا، وتلك الجفون الثقيلة تغمض بهدوء مع ابتسامة عريضة ترسمها شفتان مرسومتان بقلم رصاص رقيق، تللك الابتسامة مسجلة في أرشيف ذاكرتي، كل ما اقتربت من الباب لأودعها صباحا، إلا وأظهرتها لي كي أطمأن على حالها. حكايتي مع عيشة حكاية.

لما أعرف أنها راضية عني...فيرتاح بالي وأشد طريقي. وأذهب أين ما شاء الله لي أن أذهب.

قبل خروجي أقبلها على جبينها، فتحرص أن تدس داخل محفظتي بعض قطع الكسر والجبنة وتين جاف.

بمكان غير بعيد ها هي ذي زبيدة في حجرتها المصنوعة من جذوع الأشجار المغروسة بإحكام في الأرض سقفها هو عبارة عن قصبات جافة مصطفة بمحاذات بعضها البعض.

مطأطأة الرأس، واسعة العينين، بيضاء ببقع سوداء أو سوداء ببقع بيضاء لا زلت أتساءل...!

بأهداب طويلة وأنف عريض أسود وفم مملوء باللعاب اللزج يدل على أنها بقرة حلوب، يدل على أنها جائعة وهي تغرس حافرها على الأرض، كأنها تقول...لقد أطلت القدوم اليوم!

– هيا نذهب أنا جائعة!

أضع برفق الحبل الطويل على رأسها "وبرقبتها جرس أصفر كبير مشدود بإحكام ولطف، يحدث نغما جميلا عند مشيها"...مداعبا رأسها:

– حسنا عزيزتي، هيا بنا

وجهتنا إلى مرج "العابد" لترعى

أشد حبل رقبتها تسيروراتي. أنا أصفر وأدفع الحصى الصغيرة برجلي، إلى غاية أن أصل إلى مرج أخضر غني بالعشب على مسافة نصف ساعة من المشي أربطها بإحكام إلى وتد حديدي أغرزه في الأرض، وأستودعها في رعاية "بارجي "على أمل أن نلتقي في المساء على طاولة المغيب أنا وزبيدة "وبارجي "والشمس.

استجواب

السيد سمير بن عودة

***

خرج سمير من القاعة واتجه ليقابل المحقق الماحي مباشرة. نزع قبعته وجلس على الكرسي. قابل المحقق الذي يحمل تفاحة في يده. قسم جزءً منها وسلمه لسمير.

– اسكوبار صديقي، أين اختفيت مؤخرا، كيف حال الحاج عدة أبيك.

_هو بخير.

_لاحظت اختفاءك من حومة ديار السوق! أين كنت تذهب؟

– ماذا تقصد، أنا مع الدراسة، ماذا أخذني لتلك الحومة، أصلا أنا لا أحب أولاد تلك الحومة!

_حسنا خذ كلّ بعض التفاح فهو مفيد لصحتك فأنت هزيل مثل قط.

سكت سمير وأكل قطعة التفاح، قضمها بجنب فمه الأيسر، لأن أسنانه الأمامية شبه متآكلة من الكيف والشرب، ثمّ تابع المحقق كلامهم وهو يقسم نصفا آخر من التفاحة ويأكل منه:

– أنت لم تعد تحبهم! نعم بطبيعة الحال أنت على حق، لأن البيع في المياه العكرة لا يناسبك، أنت تعوم في المياه الصافية تحت ظل هذه المدرسة...هل حسبت أنك بعيد عن عيني؟ والعين عمرها ما تعلا على الحاجب. الآن أخبرني ما هي علاقتك بالضحية؟

– هي مجرد علاقة سطحية فقط، تستطيع القول أنه زميلي في القسم فقط.

– زميلك.فقط! حسنا لا علينا. أخبرني متى كانت آخر مرة تحدثت معه فيها!

– لا أتذكر ربما منذ ثلاثة أيام، لا لا يومين..

– يومين أو ثلاثة أيام، أنت تكذب، لقد تمت مشاهدتكم في غرفة تغيير الملابس قرب ملعب كرة السلة وأنتما تتشاجران بعدها سلمته شيئا وخرجت.

– نعم، أثناء المباراة أصبته بالكرة دون قصد، فنزف أنفه، وثار غضبه مني، ثمّ عند انتهاء حصة الرياضة البدنية، تبعته للحمام لأعتذر منه فلم يتقبل اعتذاري، وبدأ في شتمي. أعطيته منديلا ليمسح أنفه وخرجت!

– هل أنت متأكد من أنه منديل ولم يكن شيئا آخر؟

– نعم أنا متأكد!

ثم أخرج المحقق من جيبه كيسا صغيرا يحمل مادة بيضاء ووضعها على الطاولة!

– هل هذا هو المنديل الذي تقصده!

"ونظرات المكر تبدوا على وجه المحقق"

–.....

– ماذا هل ابتلعت ريقك الآن؟

– لا أعرف ما هذا ولا أعرف من أين جاءت!

– هاه، لكني أعرف في المحكمة أنك ستعترف بأنك قتلته لأنه لم يدفع لك!

– ماذا تقول سيدي أنا بريء، أصلا أنا لم أدخل هذه المكتبة سوى مرتين في حياتي مع فارس.

–نعم الأولى دخلت لتراقبه، والثانية دخلت لتقتله.

–لا سي....

–تستطيع الانصراف الآن، شكرا.

لا أريد من الحب غير البداية.

محمود درويش

أول يوم دراسي

آخر سنة دراسية في الثانوية، أول ساعة دراسية أقفل الحارس الباب في وجهي، قفزت فوق السور الخلفي واقتحمت بهو الساحة، لا شيء تغير في ثانوية "غالمي عبد القادر"، مثل بداية كل عام جديد، البنات في الساحة يصرخن يجرين هنا وهناك ليعانقن بعضهن كأنهن أطلقن من سجن، الأولاد يشكلن جماعات حسب الفئات الاجتماعية، طبقة المجتهدين أو "الخباشين" كما يطلق عليهم، تجدهم في الغالب أمام الأقسام مباشرة، ينتظرون قدوم الأستاذ لحمل حقيبته، تميزهم بمآزر مغلقة ونظارات دائرية يحملون على ظهورهم محافظ سمينة والجدية تطبع ملامحهم السخيفة، ثمّ الطبقة الوسطى تلقاهم يتجولون في وسط الساحة الكبيرة، أغلبهم ذو شهرة واسم مميز، خليط من أولاد الأثرياء وأبناء رجال الأعمال وأبناء الأساتذة والموظفين، تميز أغلبهم من ملابسه الأنيقة والأحذية الرياضية الأصلية حد قولهم، أمّا الطبقة الثالثة تنتشر في زوايا المدرسة أو في المراحيض "يطلق عليهم "الصراصير"، تتميز هذه الطبقة بقلة عدد أفرادها التي تكون عصابات صغيرة لأهداف متعددة، في أغلب الأحيان يتهربون من ارتداء المآزر ورفع العلم الوطني، ويتهربون من الساعات الدراسية الأخيرة، مآزرهم مقطوعة الأكمام عن الأكتاف تحمل رسومات يعبرون بها عن أنفسهم، تنانين، وجوه أبطال أندية كرة القدم، سجائر حشيش بوب مارلي، وأنا أرسم لهم أي شيء مقابل المال هذه موهبتي ومهنتي، الرسم على المآزر وهل ترون هذه الرسمات الجدارية والعبارات الثقافية والآيات القرآنية الموزعة في أرجاء الثانوية، معظمها من رسمي إن لم أقل كلها ولم تكن موجودة قبل أن أدخل هذه الثانوية.

تستطيع تمييز جماعة الصراصير من ألبستهم الملونة، السراويل المقطعة والقبعات الرياضية وتحليقات الشعر الغريبة وبعض الأوشام "أينما كان الرسم أكون" وأقراط الأذن، لهم علاقات كثيرة مع الطبقة الثانية. طبقة أصحاب النفوذ، علاقة عداء في الظاهر لكنها علاقة تكاملية في خباياها، الصراصير يستغلون نفوذ المدللين والمدلين يستغلون قوة الصراصير وشجاعتهم، يستفيدون من تلطيخ أيديهم

من أجل بعض الدراهم وقضايا مختلفة. نفس الأحداث، نفس العباد، نفس الروتين الممل يتكرر نقف في صفوف لرفع العلم الجزائري، هنا تسهل عليكم الملاحظة، أنظروا معي الطبقة الأولى "الخباشين" في المقدمة، ثمّ الطبقة الثانية "المدللين" في الوسط وفي آخر الكتيبة الطبقة السفلى "الصراصير". الفتيان بالمآزر الزرقاء والفتيات بالمآزر الوردية الفاتحة بعد أن أنهينا نشيد "قسما ”، انسحبت من وسط الحشود والضجيج.

تمشيت من جهة مخبر المدرسة سمعت صوتا حادا، تبعته، فلاحظت أن هناك شجار بالأيدي، على كل حال مثل هذه الأمور عادية في هذه الثانوية وكثيرة الحدوث حتّى أفكر أحيانا أنه لا يفصل بيننا وبين السجناء سوى القضبان الحديدية والاختلاط بالفتيات، هنا مثل السجن تماما هناك جدران عالية مسيجة وساحة فناء كبيرة، بالإسقاط نجد أن غرف الأقسام بمثابة زنزانات. بحيث تحمل تقريبا نفس العدد بين الثلاثين والأربعين شخصا، فقط لا يوجد حراس الأبراج لكن عوضا عنهم هناك المساعدين الإداريين المنتشرين في كل مكان. إدارة صارمة القوانين وكثير من التشابهات بين المؤسسة العقابية والمؤسسة التربوية، حتّى تتم التربية على أكمل وجه يجب أن يكون هناك عقاب. والعقاب أسلوب من أساليب التربية.

وسط الشجار أمامي رأيت فتى ضخم الجثة أصلع الرأس، يرتدي سروالا قصيرا ومحفظة بحزام واحد، ينهال لكما فوق فتى أشقر طويل، يخنقه تحت ذراعه القوية مرددا كلمات غاضبة.

_آه قلها، تكلم، تفووه، حقار..

ثمّ ينتبه إلي، ينطح خصمه بآخر نطحة ثمّ يفلته.

_لا تتحرك، مازالت رقصتنا مستمرة.

يقترب مني وهو يمسح شفته من بعض الدم..

– أيها الوغد!

يعانقني ويضرب على كتفي:

– أنت تبدو نحيلا بعض الشيء، ألم تأكل في الصيف؟

– كيف حالك صديقي؟

– الحمد لله على الصحة والباقي لا يهم

_ هل ما زلت تستعمل هذه الجملة؟ اشتقت لك يا طارق صديقي.

– يشتاق لك الخير. المهم، سأنهي بعض الحسابات وألتحق بك..

لكمني مجددا على كتفي بقوة أكثر هذه المرة وانصرف...

أكملت مشي وقد كان الجو حارا والسماء صافية، شعرت أن مثانتي ممتلئة فتوجهت مباشرة نحو المرحاض لأتبول، أول ما لاحظته أنهم قاموا بدهن السقف واستبدال الأبواب لكنها بالرغم من مساحيق التجميل لا تزال مثل المعتاد، مكتظة، مقززة، من أربعة غرف، غرفة واحدة فقط تتوفر على الماء، وباق الغرف للتدخين والتبول بالوقوف، غيوم الدخان تملئ المكان.

كان هناك في الزاوية تحت مرآة الحائط الوحيدة، يقعد القرفصاء، أسمر، نحيف، بلحية خفيفة وعيون مرتخية، تحليقة شعر مارينز مشوكة، يلبس حذاء أسود ماركة ARINIE وقميص أبيض ماركة la couste سروال جينز ممزق عند الركبتين وعلى خصره ساكوشة زرقاء "حقيبة خصر صغيرة" مثل تلك التي يستعملها جامعوا التذاكر في الحافلات، يتجمع فوق رأسه حوالي سبعة فتية يفرش محفظته في الجانب على الأرض:

_ هاك الخير هاك.. هذا العام أبكي على جيبك...هاك الحمرا، الروش، طرامادول، Lcd24، الغبرة، ليكستا، دومينو. تاكسي. "هاك أنظر صاحبي السلعة ذي تخليك تطير، عالم آخر"، "أنت من الشلة أعرفك مئة وخمسين وحبة من عندي" "آيا روجي هاك سلعتك تنعنع، من تيميمون، من الحدود."

_الشيكولاتة هاك ذق البنّة.. سلعة كتامة هنا... كتامة بورقتها الخضراء"

ثم عندما لاحظ تواجدي، نهض مباشرة:

– أووه من هنا! يوووو مطلوعة!

ثم التفت إلى الفتية خلفه:

_خلاص، روحوا الآن! رفعت الجلسة.

أغلق محفظة ظهره تقدم نحوي مبتسما وقبل أن يصل أمامي ينادي عليه أحد الفتية من الخلف.

– يالفاريالفااااااار! عندي أربعين ألف هذا ما في رزقي، وغدا أزيدك...

و دون أن يلتفت نحو الفتى رد بنبرة مبحوحة:

– قل لطارق يعطيك رقمي واتصل بالحصة صديقي، طارق سيتكفل بك.

وضع يده على كتفي:

– مطلووعة ياه! انقطعت أخبارك، أين اختفيت في الصيف؟

– يا سمير، أنت بالهاتف قد تطورت، لم تصبح متاحا لنا!

– آ ذي هي الدنيا صديقي، ما أكسبه في النهار أصرفه على رأسي في الليل، أنت تعرف كم ليلنا ثقيل.

– وكعادتك لا تزال تجري وراء الموضة.

– بدون أن أحكي لك. فقراء وزعماء. لا نلبس غير الأصلي، الأصلي، قلب الحبة، أنت. تعرف. قد اشتريتها من عند مروان على كل حال بنصف الثمن.

ثم أشعل سيجارة وناولني سيجارة أخرى، فابتسمت ابتسامة سمينة، تعبيرا عن الرفض، نظر نحوي بنصف عين مد يده في الحقيبة على خصره وأخرج منها سيجارة حشيش وهو يبتسم "أو هل تريد هذه؟".

– لماذا هذه النظرة، أنا أمزح يا ممل، المهم أنظر هذه السلعة الجديدة!

–....

ثم من جيبه الخلفي، أخرج صفيحة أقراص بيضاء.

– أمزح، أمزح صديقي بدون هذا الوجه العابس!

–.....

– بالمناسبة كيف حال خالتي عيشة؟

– الحمد لله على كل حال. وعمي عدة كيف حاله هل شفي من ألم ظهره؟

– هو مع الصحة و..

ثم بسرعة غيّر الموضوع حين سألته عن صحة أبيه.

– المهم. أنظر داخل هذه الحقيبة هنا، نوعية أصلية، حبة واحدة وتحلق لعالم آخر، "ليريكا "صاحبي، إذا قال لك أحدهم على الصاروخ أرسله لصديقك وعندك مني هدية على كل شخص ترسله لي.

– الصاروخ!

– إيه هكذا يقولون لحبة ليريكا الصاروخ... هناك ال150 ملغرام وال 300 ملغرام، الطرواسو صاحبي حبة واحدة فقط تدوخك. إلى المريخ مباشرة. هذا آخر ما وصلنا من الحلويات.

ثم تابع مبتسما:

– لا تستغرب صديقي هذه ليريكا هي في الأصل دواء مخدر، يوصف من قبل الطبيب للتخفيف من ألم العظام عند الكسر أو عند العمليات الجراحية.

– أنت مستشفى متنقل يا صاحبي، صدقني إن بقيت هكذا ستفتح صيدلية هنا.

ضحك سمير وظهرت أسنانه المتساقطة جراء الكيف ومختلف الأنواع من المهلوسات والمخدرات...

– إيه قل لي، هل رأيت "المارطو"؟ أحتاجه.

_من طارق؟ نعم لقد تركته أمام المختبر يطحن في أحدهم...

– هههه. مثل عادته كتلة عضلية متحركة دون عقل، عنده طاقة زائدة، إذا لم يخرجها فوق حلبة الملاكمة، يخرجها في الشجار! المهم أنا سأتركك لأكمل ما تبقى لي من الحلويات وإذا احتجتني أنت تعرف المكان. أو أعطيك رقمي الجديد إن أردت هههههه...

ضحك سمير ثمّ غمزني وانصرف. بمشية متعرجة بسبب حذاءه الرياضي الضيق على رجله.

خرجت من المرحاض لأصادفه أمام المكتبة يحمل بين ذراعيه مجموعة من الكتب.

_أوووه فارس هل ما زلت....

هل سقطت من الجنة؟

صريرأبواب، جركراسي، أصوات أطفال، تمتمة بنات، حفيف أوراق كراريس، ضحكات، كلمات شتم متقطعة، صورة مضببة، خد مخدر، لعاب يسيل، قلم رصاص يخزني في جنبي.

_مطلوعة مطلوعة!

– هاه همم.

– انهض، انهض...إنه.. جاء الأستاذ...

– أزيد قليلا يا أمي...قليلا

_أمك؟

_خمس دقائق ربي فقط!

– ماذا تقول؟ الأستاذ هنا. كفاك حلما هيا.. انهض قبل أن يطردك.

نهضت مصروعا بعد وخزات متكررة، كأني لم أنم البارحة، ورأيت فيما يرى النائم.

_مروان!

_لا أمك هيه.

في القسم تحديدا في الطاولة الأخيرة، أبعد ما يكون على مكتب الأستاذ، تيمنا بقولة الشيخ يحي "ابعد عن الشر يبعد عنك "، أربعة صفوف، في كل صف أربع طاولات، ثمانية وعشرون تلميذا من قسمي العام الماضي وأربعة جدد، وتفاصيل أخرى خير مهمة.

ثمّ يدخل البيزنطي / أقصد أستاذ التاريخ والجغرافيا كما تلقبونه، تنتظره سارة بنت القاضي عند الباب، بضفائر شعرها السخيفة ومقوم أسنانها النجمي.

– صباح الخير أستاذ!

وتحمل محفظته تضعها على المكتب.

يصعد البيزنطي فوق المسطبة بقامته الفارهة ورأسه الأصلع وحذائه الكبير الغريب:

– كما تعرفون...

ثم رفع سرواله وشد حزامته، كح مستديرا ثمّ قال:

– الدولة التي لا تملك تاريخ ليست دولة و...

تمتمت في سري:

– بارك الله فيك يا شيخ. التاريخ يكتبه الغالب وليس المغلوب. لذلك أنا أكمل نومي..

– درسنا اليوم.. على.. الحض.ر..

– مروان إذا أتى من هنا الأستاذ نبهني. سأنام

أسند خدي على سطح الطاولة، أراقب مروان وهو يحشر سبابته في أنفه يبحث عن الفهامة ثمّ بعد لحظات قليلة:

_وقوف!

غمزني مروان، غمزة بلهاء يزم فمه ويرفع حاجبيه. مال نحوي هامسا.

_انهض.. المدير هنا ومعه..

– معه...!

– قم لترى بنفسك.

نهضت متكاسلا، من بين الرؤوس والمآزر الزرقاء ألمحت المشهد.

اقترب مدير المدرسة من أذن البيزنطي، في موقف سخيف، المدير قصير ذو كرش مكورة وشكل غريب والأستاذ طويل لحد العياء، انحنى البيزنطي، ليسمع المدير، ابتسم البيزنطي وهز رأسه ثمّ أشار المدير بإصبعه نحو الباب وقبل أن يتم حركته.

نطق البيزنطي:

– رحبوا معي بزميلتكم الجديدة.

دخلت القسم كعارضة أزياء بخطوات موزونة ومتناسقة. وقفت أمامنا كدمية "باربي" خرجت لتوها من العلبة، انزحت من مكاني بين الصفين، لأقابلها مباشرة. تجمدت، تسمرت. كانت......ت...شعرت...هـ.. انحنت...كنهوي تبي بي ككوتخ تجكت. مخاحح نالق.

توقف! توقف! شد..شد.. هربت الحروف، لم أجد الكلمات، كيف أصفها لكم؟

كراقصة بالي محترفة قدمت لنا التحية، لاحت، أشرقت، تفتحت، أنارت، توهجت، متوسطة الطول جسدها منحوت، بتنورة زرقاء ليلية ممشوقة ومتوسطة القامة وفي رجليها الملائكيتين حذاء كلاسيكي لماع بربطة أنيقة، دخلت في بعضي حينما أبصرتها، اقتربت منها خطوة على وجه الهيام، سبحان رب من نحت هذه العيون الخالدة، سبحان من رسم هذه الشفاه العنبية الممتلئة، شقراء كأن شعرها الذي يصل لأسفل ظهرها مدهون بماء الذهب، شامة في رقبتها كأنها توقيع الرب عندما انتهى من رسمها. عظام رقبتها بارزة مثل منبت أجنحة كأن خالقها كان سيخلقها ثمّ سواها بشرا. أنا أتساقط مع كل رمشة من عينيها بلون الربيع والمرج الأخضر. بيضاء بلون حليب زبيدة، وجهها صغير خدودها موردة وعيونها خضراء بحجم فمها، اقتربت

منها خطوتين على وجه الفضول والجمال، رائحتها شهية، تتوسط ذقنها فلقة الحسن وفي رقبتها وحمة سوداء صغيرة غامضة، رائحتها منعشة كأنها تتوضأ بالنعناع وتستحم بدموع الملائكة، بيضاء طرية شهية مثل عجينة المطلوع في قصعة عيشة، اقتربت منها خطوة أكثر، أغرق داخل أنفاسها أكثر، في الواقع تبدو عليها ملامح الثراء. هل سقطت من الجنة؟ حاشا أن تدخلين المرحاض أنت! أفروديت. أمامي.

ثم بعد وهلات من الهيام، يسحب مني الواقع بساط الخيال، وأرجع بالعرض الخلفي البطيء، وأجد أني لازلت متجمدا في مكاني، أضغط على الطاولة. متأملا اللوحة الفنية أمامي. وكم فنان قد ألهمته ليعيد رسمها أو عزفها أو كتابتها أو نحتها كم يا ترى؟

– جلوس

قعد الجميع وأنا لا أزال واقفا، أتأمل الشمس حين تغرب، خصص لها الأستاذ الطاولة الأولى مباشرة أمام مكتبه، دخولها رفقة المدير وتعامل البيزنطي معها بلطف والمقعد الأول دليل على أن هذه الفتاة ذات شأن.

يشدني مروان من كمي.

_أقعد أقعد..

– آه آسف، قد نسيت روحي.

– هل وقعت في حبها من أول نظرة!

– وقعت؟

– الرجال لا يقعون يا صديقي.

_ لكنك وجهك أصبح وجه طفل صغير. أو خيل لي؟

_ تفاصيلها فنية. كأنها هاربة من لوحة تشكيلية. تشهي الألوان وتثير انتصاب الريشة لتغترف من حوافها المنحوتة.

_ أظنك عشقتها يا صديقي

_ سبحانك قد خلقت الجمال وقلت اتقوا.. فكيف نرى الجمال ولا نعشق؟

ضحك مروان.

– يظهر عليها الثراء

– نعم

– أظنها بنت رجل أعمال أو سياسي ما.

–سنبحث عن تفاصيل الحسناء

قال مروان بعدما لحظة من الصمت:

– "يا مزين من برا كيف حالك من الداخل "

– ماذا تقصد؟

– لا تتعب نفسك معها. مطلوعة، لي ما هو ليك غيريعييك.

– إذن سأقوم بإعيائه قبل إعيائي

– أنت عنيد. دعنا منها وركز مع الدرس..

– نعم. أنت محق أنت ركز مع الدرس وأنا سأركز في الدرس.

_ههه. لقد خطفت قلبك.. والآن ستخطف عقلك.

***

استجواب

السيد فارس باني

***

– اجلس يا شكسبير.

_لم نلتق منذ مدة.

_نعم.

_هل تأكل التفاح!

_لا شكرا.

– أخبرني ماهي علاقتك بالمرحوم. وهل قتلته؟

– هو زميلي في القسم، وبعد الدوام زميلي في الدروس الخصوصية...لا لا لم أقتله، ولا سبب يدعوني لفعل ذلك!

– آه لا سبب يدعوك، لكن قد تكون مشاركا في قتله!

– مشاركا في قتله!

– نعم، حسب كلام صديقات أميمة، أنهن قد سمعنه يحدثها عن رواية تحت عنوان "رحل من دون وجه" وهذه الرواية هي نفسها التي كانت ملقاة جنب الضحية وسبحان الله هل من الصدفة أن تكون نفس عدد الطعنات الموجهة لشخصية الضحية في الرواية هي نفس عدد الطعنات الموجهة لضحيتنا !

_لا أدري.

_ ما هو تفسيرك إذن؟

– هناك الكثير من الروايات في المكتبة ربما تصادف أن كانت تلك الرواية بجنبه عندما تم طعنه تلك الخمس طعنات ولست أنا الوحيد الذي يقرأ الروايات، الكل يقرأ الروايات وأرى أن اتهامك لي بشكل مباشر بالقتل عن طريق ربطك للحادثة بمجرد رواية بوليسية هو استنتاج غريب من رجل ذكي مثلك، وله شهرة تسبقه في فك ألغاز جرائم قتل معقدة كتبت عنها الكثير من الجرائد. أو أن هناك خلفيات أخرى أنت تخفيها عني وعنا جميعا.

_خلفيات! ماذا تقصد؟

_لنكن واقعيين يا سيد ماحي، كيف لمحقق بشهرتك أن لا يكون على علاقة برجل ثري مثل السي عثمان أب الضحية والرب عالم بخفايا الأمور.

ثم تغيرت ملامح المحقق وغير من وضعية جلوسه. قسم التفاحة إلى نصفين وغرز السكين بقوة على الطاولة.

_أخبرني من يحقق مع الآخر هنا، أنت تحقق معي أم أنا أحقق معك؟

_أنت معلم ومنك نتعلم.

_اسمع. هل تتذاكى علي أم ماذا! هل أجعلك تجلس في مكاني!

_وهل تخاف الأفعى من سمها! من يعلم أنه لا يوجد في بطنه التبن لا يخشى من النار.

– إذن هذه هي خطتك! أن تماطل علي، وتريد أن تأخذ المحاورة إلى منحى آخر، اسمع إذن يا ولد حميد بين الخبرة والمعرفة، تغلب المعرفة في عالم النظري وتغلب التجربة في عالم التطبيق، أنت تحتاج لمزيد من الخبرة كي تحور استجوابي وتصل لإثارة عواطفي، أنت هو القاتل! ليس هنالك غيرك في المدرسة على ما أعتقد يعرف أن أمير بطل رواية رحل من دون وجه، طعن خمس طعنات!

–حتّى المرحوم قرأ الرواية أيضا! وهي بأفكار سوداوية ثقيلة وقد يكون ا...

– انتحر! هل تظن هذا! أم تريد أن تبرأ نفسك! تحت شهادة زملائه المرحوم فتى عقلاني وسجله الطبي والنفسي طبيعي... أمّا أنت فنحن نعلم حكايتك مع الأطباء النفسيين بعد حادثة أمك التي..

أطلق فارس زفرة طويلة:

_لا تذكر أمي على لسانك.

ثم تغيرت ملامح المحقق كليا وهو يوجه كلامه إلى فارس:

_آسف لكن التاريخ لا يرحم. قد ذبحها أبوك من الشريان إلى الشريان قبل ثمانية أعوام من الآن وكنت المحقق في تلك القضية ورأيت ملامحك حين رأيت أمك تسبح في بركة من الدماء وتابعت تصرفاتك وكان القاتل إمّا أنت أو أبوك ومن المرجح أن يكون أنت وقد تستر عليك أبوك وأخفى سلاح الجريمة في جيب سترته حتّى يغطي عليك. وعدم زيارتك لأبيك حميد في السجن ما تكون سوى تمثيلية قمتما بها سويا، وهذا يبقى احتمال وارد. ومشاكلك مع جدك الذي يربيك ويتعب من أجلك رغم انحناء ظهره لأنك ترفض زيارة طبيبك النفسي وأخذ أدويتك.

رد فارس بطريقة هادئة وهو ينظر في عيني المحقق مباشرة:

– لا أظن أن ذكرك لهذه القصة يدخل في التحقيق في جريمة قتل الفتى!

_نعم هو يدخل وبشدة.

_لا أظن هذا.

ابتسم الماحي ابتسامة خفيفة ثم قال بلهجة تميل الاستهزاء والسخرية:

_ذكرتك بهذه القصة فقط حتّى أشير لك بأن في عائلتكم دما إجراميا وأنت تعرف المثل الذي يقول من شابه أباه فما ظلم، أي أن بعض الصفات مثلا تنتقل بشكل تلقائي، أظنكم درستم هذا في مادة العلوم الطبيعية "اسمه الانتقال الوراثي "أم أنك تهتم بالفلسفة أكثر.

_لا أظن أن هذا هو هدفك. ومن غير اللائق أن تستند على قضية قد مضت منذ أعوام وتحشرها داخل قضية آنية وأرى أن ذكرك لقضية مقتل أمي رحمها الله له غاية نفسية بحتة. وهي إرضاء لجرح نفسي قد خدش أثناء حوارنا. أما أنا طبيعي ولا أعاني من أي مرض نفسي، الأطباء النفسيون هم المجانين ويريدون إخراجي من عقلي بأدويتهم القذرة هذا كل ما في الأمر. ولكل واحد فينا جانب مجنون يخفيه وراء القناع الذي يرتديه كل صباح، أولم تكن يوما كذلك يا سي الماحي؟ على كل حال أنا على الأقل أعرف أصلي رغم كسري.

صمت المحقق لبرهة وبلع ريقه:

_ ما الذي تشير إليه هنا.

_أنت تعرف وأنا أعرف وعلينا أن نلعب دور من لا يعرف.

– حسنا دعنا منا. ولنرجع إلى موضوعنا الأصلي.

_نعم

_ بذكرك للجنون، أخبرني ماهي نسبة جنون صديقك سمير؟

– سمير!

_نعم

_هو هو، وأنا أنا.

صمت المحقق ينتظر إجابة أخرى من فارس.

_في الحقيقة إن كل شخص منا له نسبة معينة من الجنون و....

قاطع المحقق فارس قبل أن يفلسف جوابه مرة أخرى ويحور الحديث إلى جهة أخرى.

– في الرابع من ماي الساعة الخامسة، من صيدلية ديار السوق! اشتريت علبتين من دواء ليريكا..

صمت فارس لبرهة ينتظر من المحقق أن يكمل كلامه.

– وفي نفس اليوم ألقينا القبض على سمير بعلبة ليريكا فارغة! زعم أنها من أجل بحث مدرسي! هل هذا صدفة أيضا!

– نعم لقد اشتريت علبتين، علبة وصفها لي الطبيب تحت ضغط من جدي لأبقى نائما ويرتاح من مشاكلي، وعلبة أخرى من أجل جدتي التي تعاني من آلام الظهر، وأنت تعلم أن دواء ليريكا مصنوعا خصيصا للتخفيف من ألم العظام. وجدي وجدتي هما الوحيدان اللذان أعيش معهما في المنزل وعلي أن أعرف كل الأدوية الخاصة بهما.

– جدتك تأكل ليريكا، سبحان الله! هل لجدك حساب فيس بوك أيضا؟ لا أظن، وماذا تقصد بكلمة "يرتاح من مشاكلي"؟ إذن أنت تعترف أن لك مشاكل نفسية، ربما أردت أن تستدرج المرحوم وتقتله بنفس الخطة التي في الرواية، القتل مثل الروايات تجربة جديدة ممتعة أليس كذلك!

_أظن أن هذا استنتاج غير منطقي و بعيد عن الواقع.

_لا يهم رأيك على كل حال، أخبرني أنت تذكر في نهاية الرواية ماذا حدث للمجرم أليس كذلك!

– نعم أعتقد ذلك.

– إذن لا تقلق ستكون لك نفس النهاية يا عزيزي.

_هناك فرق كبير بين القاتل وصانع القاتل.

_ماذا تقصد بصانع القاتل؟

_صانع القاتل أشد خبثا وخطرا من القاتل.

_ رغم هذا يبقى التحقيق ليكشف كل الجرائم.

_وهل سيصل مستوى تحقيقك لأن يميزبين من يحقق في القتل ومن يحقق القتل ومن يحق للقتل.

_ماذا تقصد؟

_ هذه جملة ذكرت على لسان بطل الرواية. اقرأ الرواية ربما ستتمكن من فهمها ذات يوم.

_اقرأ الجغرافيا أكثروستعرف أن مكانك بجوار أبيك.

بلوطة

يا لرايح وين مسافر تروح تعيا وتولي

شحال ندموا العباد الغافلين قبلك وقبلي

أغنية شعبي للمطرب دحمان الحراشي

قبل أسبوع

طار النعاس من عيني، فقررت أن أخرج لأستنشق بعض الهواء كان القمر في القرية يتأرجح في السماء فوق رأس جبل "دوي "كلؤلؤة تضئ الكون، اتكأت فوق كومة تبن حتّى بدى أمامي ظلا طويلا بين الضباب لمحت من بعيد رجل يضم يديه خلفه ويحمل متاعه على ظهره، كان المخلوق يسير في خطى متمايلة ويردف رأسه نحو الأرض شدني فضول قط. فاقتربت منه أكثر لأعرفه من قشابيته السوداء التي تميزه، وقفت أمامه!

– غير الخير خويا وين رايح؟

– أنا أبقيك على خير يا مطلوعة. وداعا.

– اصبر اصبر، احكي لي، ما لذي أصابك؟

وضع يده على كتفي، وأزاحني ببطء من طريقه وعلامات الحزن تتلون في وجه الشاحب تحت ضوء القمر. لم يرد وأكمل مشيته. تبعته وأوقفته:

– اسمع أمين بيننا عشرة طويلة، أنت أخي احكي لي!

تدحرجت دمعة سمينة على خده اليابس.

– وليد الكلب، الع...

– من هذا؟

_.....

– اقعد، اقعد، افهمني القصة بهدوء.

سحبته نحو الخروبة الكبيرة القريبة وسط ساحة الشيوخ...

وضع متاعه من على ظهره، استلقى على جذع الخروبة، قعدنا وكان الهواء خفيفا دافئا وهدوء غامض يشقه نباح كلاب القرية، وصياح الديك من بعيد يتلاشى يغلفه صوت الشيخ بوعلام مؤذن مسجد القرية.

وضع يده في جيبه وأخرج سيجارة مرة من علبة "ريم "كانت تبدوا أنها آخر سجائره وأشعلها بعود ثقاب ثمّ رمى العلبة خلفه نظر نحو السماء المتلألئة:

– شوف أنت خويا مطلوعة، سأحكي لك وهنا ستموت الكلمات...

_.....

هززت رأسي بأي نعم..

قبل يومين. وكالمعتاد وأنا أجول في أرجاء القرية أبيع المحاجب، أنت تعرف أخيك قليل المدخول، لقمة من هنا ولقمة من هناك، وآكل من عرق جبيني.

– آه يا بلوطة. هل أنت تحكي لي عن نفسك وقد تربينا في حجر واحد ورضعنا من صدر واحد. هل نسيت الأيام، أنت الحليب والمحاجب وانا المطلوع والبيض، يا حصراه...أزيدك يوم نطحك علي الكيلو برأس من وقف معك. هل تذكر هذه!.

ابتسم ابتسامة حزينة، وعدل من جلسته.

_ البارحة كما المعتاد كنت أتجول بقفتي ودلو الحليب، دخلت مقهى بالهاشمي بالقرية.

– في أي وقت!

– مع المساء المهم. قلت لك وأنا أطوف وأبرح وسط المقهى، رأيت رجلا يجلس لوحده في زاوية المقهى يدخن النرجيلة وحوله غمامة من الدخان، كان الرجل يبحلق فيَّ بنظرة غريبة، حسب بذلته وتسريحة شعره الأنيقة وحذائه اللامع، يبدو ثريا، اقتربت من جهته أكثر، على طاولته علبة سجائر حمراء مارلبورو من النوع الفاخر وجمرات للشيشة، كنت أبحلق في الرجل مثلما يبحلق في، كأنه يتحداني، لم أنزل عيني من عينيه.

– أيا محاجب...محاجب سخونين وحارين

– أيا يالجيعان، البنة بعشرين دينار

– محااااجب، محاااا....

أشار نحوي بيده.

نزع نظارتيه لتظهر عيني قط خضراء حادة وجاحظة، فوق عينه اليمنى ندبة.

– شحال عمي، زوج، ثلاثة، قل!

–.....

لم يرد وواصل ينظر في عيني مباشرة. نظرات غريبة.

حك ذقنه وقال:

_ أقعد.

وأشار نحو الكرسي أمامه، وضعت القفة بجانبي. سلمني أنبوب النرجيلة، ترددت في إمساكها.

– همم.... لا تدخن!

–.....

سكت!

أشار للنادل بيده.

– كأس شاي منعنع بالعسل للرجل هنا.

استغربت!

نظرت نحو علبة المارلبورو فوق الطاولة، تناولها الرجل، وأخرج منها سيجارة وقدمها لي، لم أتردد في أخذ الفرصة، أخرج ولاعة من جيبه، ولاعة حديدية، لم أر مثلها قبلا، رأسها على شكل فم أفعى كوبرا... ثمّ أشعل لي السيجارة.

– استرخي يا عزيزي. خذ وقتك، فمن أراد الربح فالعام طويل.

استغربت يا مطلوعة، من معاملة الرجل الغريب لي وطريقة كلامه معي. واستغربت أكثر من تلك القطعة الفضية التي يحركها بين أصابعه برشاقة.

بعدها توقف عن تحريكها وعرضها أمامي ببطء، لم أر مثل تلك القطعة من قبل. ثم ابتسم ابتسامة غريبة معجنة بالخبث على حد معاملته الغريبة لي.

طرة أم نقش؟

– كيف؟

– كتابة أم رسم؟ اختر هذه الجهة أم هذه الجهة؟

-.....

و أضاف:

أنظر أنا لا أملك كل الوقت ولكني أملك المال وأنت تملك الكثير من الوقت ولا تملك المال، أنظر عزيزي سنقوم بهذا الرهان. إن أنت فزت ستأخذ كل المال والشيكات التي أضعها في جيب سترتي الداخلي، كلها، هل تدري معنى كلها. وابتسم مجددا تلك الابتسامة الباردة التي تتلألأ بنجوم فمه البيضاء رغم التهامه للكثير من الدخان.

سألته مترددا:

– وإذا خسرت؟

_حينها ستضع كل المحاجب وقارورة الحليب وتغادر من دون عودة ولا تنظر ورائك.

نظرت في عينيه الحادتين الباردتين وهو يحرك القطعة النقدية بين أصابعه التي تحمل خواتم فضية مرصعة بأحجار كريمة. وبتردد أجبته يا سيدي.

– لا.

صمت لبرهة. ثمّ اقترب مني على بعد شبرين من وجهي:

– هل تعلم نحن البشر يطحن أحلامنا الخيال قبل أن تنبت على أرض الواقع.

– لم أفهمك لكنها تبدوا فكرة مجنونة. لا؟

رفع الرجل حاجبيه وزم شفتيه وبنبرة ساخرة:

– ولدت بائع محاجب فقير وستموت بائع محاجب فقير.

ثم صمت أمين وتنهد بعمق:

– تعرف ذاك المثل الذي يقول من خاف سلم..

– إيه وبعد ذلك..

وفي اليوم الذي يليه، التقيت بالرجل نفسه قرب جسر واد بوغولة , لما عرفته اقتربت منه، لا أكذب عليك أنا الغبي، جرني الطمع والجشع فعدت نحوه، طمعا في أن يمن علي بسيجارة من تبغه الرفيع.

– محاجب...محاجب!

– محاااج....

– كيف حال الخواف؟

– أحسن منك ولست خواف وإنما عاقل.

– يا بني، لم تعرف شيئا من هذه الدنيا ولا تزال ترضعك في حليبها. أنتظر حتّى تنبت أسنانا وسترى. كيف ترميك.

– أعرف هذا. وأنت لا تعرف أن هناك من ولدوا بأسنانهم.

رد بنبرة هادئة بطريقة مستفزة:

– تعرف كيف ترد. لكنك لست موسى ولا تعرف أن الخواف رزقه قليل!

– لست خوافا قلت لك!

و شددت نبرة صوتي واتخذت مع الحقير موقف ند لند. ثبت عيني في عينيه متحديا، دون أن يزيح عينيه من عيني، ومجددا أخرج القطعة الفضية نفسها.

– هذه المرة سأعطيك آخر فرصة وسيكون العرض أكبر.

ثم واصل كلامه وهو يرمي السيجارة من فمه ويسحقها تحت حذائه اللامع.

– أخبرني...ماهي كل ممتلكاتك؟

فاستغربت من سؤاله ولكني أجبته باختصار لأعرف ماذا يرمي إليه من سؤاله لكني مشيت معه في الحكاية:

– كوخ، بقرة، وعشرين ألف دينار ودعاوي الخير...

صمت الرجل صمتا مرعبا، وسادت لحظة صمت مخيفة، حتّى رفع الرجل يده الثقيلة وضعها على قفاي وسحبني نحوه.

– خواف.

– .....

عرقت جبهتي واستفزني أسلوبه.

– ماذا تريد مني؟

– لا شيء...فقط أنت تذكرني بنفسي حين كنت في عمرك.

– أذكرك بنفسك؟

– نعم

وراح الرجل يحكي وأنا في أشد انتباه لحديثه الذي لن أنساه هل تعرف ماذا حكى لي؟

_.....

قال لي:

_ هل ترى سيارة الجاكوار هناك وهذه الساعة الفخمة بيدي وكل هذه الثياب الأنيقة؟ هل تظنها نزلت علي من السماء! وحتى إن ولدت بأسنانك مثل موسى فلن

يكون لك ملك مثل ملك فرعون، اسمعني مليح وافتح أذنيك. اسمع إني قد كنتُ أشد منك بؤسا يوما في زمن مضى، أذكر أني كنت أضع الخبز اليابس في الماء وآكله وأضم ركبتي إلى صدري أتكمش فوق كرتونة بالية وأنام تحت الجسور وفي الأزقة المظلمة وفوق الكراسي في الحدائق العامة وأنام على الرصيف البارد، هل تعلم معنى أن ينام المرء في ليلة ممطرة في العراء وفخذك تلتصق مباشرة بأرضية الرصيف الباردة؟ حتّى تتخدر رجلاك إلى أن لا تقوى على النهوض، طبعا لا، ما يحس بالجمرة سوى من كوته، إيه يا ولدي أتذكر ذلك اليوم كأنه البارحة وكيف لي أن أنساه؟

يوم اشتد بي الجوع في ساحة من ساحات وهران خطفني الليل ولفني البرد، فتكمشت في زاوية مظلمة، في إحدى الشوارع العبقة بالشرور والجرذان العملاقة التي قد تقرض لك إصبعا أو أذنا إن غفلت عنها، أتمدد بطولي على الرصيف، وألصق خدي على الكرتونة البالية تحتي، ليس ببعيد عن مكاني تصلني أضواء حانة صاخبة، تنعكس على شعري الأشعث ولحيتي الطويلة الوسخة وثيابي الرثة النتنة التي لا تصلح حتّى لتنام فوقها الكلاب.

أسمع أصوات الموسيقى تخرج من الحانة الصاخبة في الجانب المقابل من الطريق، أغاني الراي تمتزج بتأوهات فتيات الهوى، طالبا رحمة الناس وشفقتهم مقهور الحال والجوع يكاد يفتك بي كأني رجل هرب من الحرب العالمية الثانية ولم يجد شيئا أمامه.

نزعت قبعتي وضعتها فوق الرصيف واستلقيت على الحائط ضاما ركبتي إلى صدري، ثمّ تذكرت أن تحت الكرتونة مزمارا وجدته في إحدى مكبات القمامة، التي قد يرمي داخلها الناس كل شيء إلا أنفسهم، أخرجت المزمار، ورحت أعزف وأحلق في ألحان الغيضة والغايطة.

الشيء الوحيد الذي كنت أراه حينها هو الأحذية السوداء الكلاسيكية وهي تعبر أمامي.

ثم فجأة وأثناء انغماري بين ألحاني.

توقف زوج من الأحذية أمامي، بجنبه حذاء عالي الكعب، وقد أطالا الوقوف والاستماع لألحاني فزدت النفخ ورفعت اللحن، عسى أن يمنا علي ببعض دراهم. رفعت رأسي لأراهما، كهلا قوي البنية يلبس ملابس سوداء غريبة كأنها تعود لجيل التسعينات كانت رائحة الكحول الممتزج بالعطر الذكوري الفاخر تفوح من ثيابه الراقية الغريبة.

يمسك تحت ذراعه شابة في العشرينيات من عمرها تلبس فستانا قصيرا، عاري الصدر ووشاحا أسود، تضع أحمر شفاه شديد الحمرة، شعرها أصفر فوقه قبعة سوداء محنية الأطراف.

صعد فوق الرصيف ليقابلني مباشرة ونصف ابتسامة ترتسم على وجهه.

– أكمل عزفك!

ما كان مني إلا أن متابعة العزف / النزف رغم أن أصابعي لم تقو على شد المزمار وأنفاسي تخونني بين كل نفخة ونفخة.

لاحظت أن الرجل يومئ برأسه وينظر نحو الفتاة كأنه يقول لها هل تسمعين. كان رجلا متذوقا للفن على ما يبدوا وهذا ربما ما جذبه نحوي.

وخانتني أنفاسي في النهاية لأتوقف. دنا الرجل مني بخطوة وبريق عينيه يزيد اشتعالا من أثر الكحول أو شيء آخر تخبأه نفسه يدريه الله وحده فقط.

ثم بحركة خاطفة أدخل يده في جيبه ليخرج هذه القطعة الفضية التي أحملها الآن بين أصابعي، نظر نحو الفتاة وجرها من وشاحها ليلقيها بجانبي ثمّ بثقة وضع يده في جيبه الآخر ليلتقط مسدسا أبيض صغيرا.

نظر مباشرة نحوي بعينين محمرتين:

– إن خسرت أيها البطل ستموت برصاصة واحدة هنا!

مشيرا لجبهتي.

_و إن فزت... فستموت الفتاة وتكسب أنت نصف ثروتي هل أنت موافق؟

عدت إلى نفسي وإلى حالي التي يشفق عليها ورأيت أن موتي خير من حياتي. إن بقيت على هذه الحالة.

نظرت نحوه ساخرا من ذلك المسدس الذي يحمله بين أصابعه فلم يعد لي شيء آخر لأخسره غير حياتي، الغريب في تلك اللحظة يا صديقي أني لم أشعر بالخوف أو يمتلكني الرعب كما تظنّ، ببساطة لم أعد أحسّ بشيء وهل يستطيع المرء أن يفقد الإحساس دون أن يموت؟ لكنّي أدركت حينها أن قيمة الحياة تختصر بما نعيش من أجله، وأنا لم أعد أملك شيئا إلا روحي لتزهق أمامي في طلقة واحدة، العيش بدون هدف كالعيش بدون روح، ذلك البريق الذي يلمع في عيني الرجل أظنه من امتزاج لذة القتل بلذة الخمر تقابلها امتزاج لذة اللامبالاة بلذة الموت وهل للموت لذة؟ ربّما يكون كذلك حينما تتمنى الموت لتوقف الألم بداخلك، أذكر ذلك للصرصور الأسود الغامض، كان أمامي بجانب قدم الرجل، جامد دون حراك كأنّه ينتظر نهايتي، ذلك الصرصور يملك جناحا واحد على ما أتذكر، وأظنّ أنّ سبب وقوفه ليشاهد تلك اللقطة ما يكون إلا أنه تمنى الموت ذات مرة لأنه سيصبح مشوها وحكرا على جماعة الصراصير، لأنه يملك جناحا واحد فلا بدّ له أنّه قرّر أن ينهي حياته ذات يوم ولم يستطع وها هو ذا أمامي الآن، يتمنى لي الموت على ما أظن، وهذا ما سار في خاطري تلك الليلة ولما يكون ذلك الصرصور هناك هكذا فقط!

ليس سهلا أن تنهي حياتك مثلما تريد. صدقني!

الأصعب من الموت هو محاولة معرفة متى نموت وكيف نموت. إن التفكير في الموت لا يؤجل الموت بل يؤجل الحياة. والجحيم أعد للمنتحرين لأنهم جبناء لا يريدون المواصلة ويهربون من مواجهة الحياة وأهوالها، الجنة ليست للجبناء والضعفاء.

ثم بابتسامة مجنون رفعت رأسي وبثقة:

– نعم، أختار طرة... لا يهم.

ليرمي الرجل القطعة الفضية في الهواء فتسقط فوق سطح كفه، رفع مسدسه وصوبه نحو رأسي مباشرة.

ظننت في تلك اللحظة أني خسرت وأني ميت لا محالة إنها نهايتي وسأحقق أمنية الصرصور، ولا أعرف إن كانت أمنية خفية في جانب من جوانب نفسي الغامض التي طالما تلذذت بالألم وجذبتني للألم عن قصد أغمضت عيني لألقى مصيري لا مباليا بماذا يحدث بعدها أين أذهب؟ أو ماذا يحدث؟ اعترتني رغبة عارمة في أن أعرف شعور الموت ذلك الشعور حين تحس أن روحك تخرج من جسدك! كيف يكون ومن جربه ليرجع من الموت ويسرده أو يكتب فيه مخطوطات وكتب وربما يؤلف كتابا بعنوان" إحساس الموت" يكون الإهداء فيه لروحه المفقودة – اشتقت لك – أليس ذلك ضربا من خيال! أليس ذلك ما عجزنا عن الوصول إليه! كيف نفقد الإحساس، وهل نستطيع أن نتخيل إحساسا لم نجربه ولم نصل إليه؟ أو نتجرأ ونكتب فيه ونتطرق لندرسه، أنه الموت، الحق، النهاية، أو ربما البداية، أين تذهب الروح؟ وماهي الروح أصلا؟ نبقى نتخبط ونموت قبل أن نموت، نموت بأسالتنا المبهمة التي مهما ادعينا العلم والفهم، لا نستطيع حلها أو الوصول لتحليلها والخروج بفرضيات مقنعة تشفي غليلنا وتعطشنا للمعرفة..

أغرقتني دوامة من التساؤلات، وسرحت بذهني ثمّ تملّكني برد رهيب في رجلي وأطرافي، أحسست بفروة رأسي تنمل وبتخدر في فكي السفلي بحيث لم أستطع أن أحركه من فرط ذهولي ودهشتي حين سمعت دوي الرصاصة بقربي، فتحت عيني لأجد الفتاة مرداة قتيلة على الأرض والدماء تسيل من رأسها، ثمّ بعد ثوان ساد الهدوء والصمت المرعب يتخلّله الفراغ القاتل.

أخرج الرجل قلما وشيكا واقترب منّي. همس في أذني محدثا بنبرة، جافة من المشاعر كأنها نبرة انتقام بارد تدل على السخرية والشفقة:

– هل تدري أيها المخبول أنك قد خسرت في الرهان.

ولكن هل تعلم من هذه الفتاة؟

حرك رأسه قليلا نحو اليمين ليبصق في المكان الذي كان فيه الصرصور، هناك لاحظت أن الصرصور اختفى ربما أرعبه سماع دوي الطلقة. أكمل كلامه مشيرا نحو الفتاة بيده، صارما شفته العلوية نحو اليسار.

– هذه حبيبتي....نعم هي حبيبة عمري سارة.

بعد هذه الكلمات، صمت لبرهة تمكن فيها أن يهدأ من روعه وتابع قائلا بوجه رجل متحصر حزين. عرفت ذلك الوجه لأني رأيته سابقا ولم أنساه...وكأنه يريد أن يبث حزنه.

– هذه الجميلة الهامدة الآن بجنبك هل تعرف الذي فعلته؟ هل تدرك أي فعل تقوم به المرأة بحق الرجل لا غفران له سوى القتل؟

أقترب مني أكثر ووضع يده على كتفي أحسست بيد باردة أكثر من الأرض التي كنت أنام عليها حتّى تتخدر أطرافي. ورفع صوته في وجهي حتّى كادت تخنقني رائحة الكحول المنبعث من ثغره:

_لا أظنك تدري أيها البائس الغبي؟

ثم تابع والدموع تنهمر من عينيه "دموع رجل مقهور يا صديقي دموع يخاف الشعراء من وصفها ويهاب الرسامون رسمها".

– البارحة قد كذبت وأخبرتها أنني قد خسرت كل ثروتي في جلسة قمار.

– هل تدري ماذا فعلت هذه الجميلة الحسناء؟

_أعلنت الانفصال عني بعد يوم من إخباري لها بالحادثة نعم بكل برودة أخبرتني أنها لا تريدني وبنفس البرودة أطلقت النار على رأسها. لا تتعجب من دموعي...لأنك لم تجرب هذا الشعور أيها البائس الفقير وأتمنى لك أن لا تجربه أبدا. عرفت أنها كانت تحبني من أجل مالي وفقط. إن أردت أن تعرف صدق امرأة في حبها لك جربها بالمال أو بالخوف.

وهي قد ظهرت على حقيقتها ولقيت جزاءها ولم تكن أنت سوى وسيلة لذلك ونصف ثروتي ستكون لك فقط. فقط لأنك قبلت التحدي وراهنت بحياتك كلها دفعة واحدة والشجعان مثلك لا يليق بهم الفقروالنوم على أرصفة الشوارع.

ثم سلمني الشيك والقطعة النقدية قائلا:

_الحياة مجازفة أو لا شيء

ثم انصرف الكهل وهو يعرج على عصاه الخشبية.

_والآن هل عرفت معنى الشجاعة ومعنى...

أنظر ها أنا أمامك بكل خير، ثريا بين ليلة وضحاها وها أنا ذا أعرض عليك نفس التحدي فإن وقعت القطعة على الوجه الذي اخترته أنت ستفوز بكل ثروتي، وإن لم تقع على الوجه الذي اخترته ستخسر كل ثروتك، ثروتي مقابل ثروتك، أليس هذا رائعا، خياران متعاكسان أمامك في كفة متوازنة، خيرواختار.

_يا مطلوعة، صاحبي في تلك اللحظة وضعت قفة المحاجب من يدي وفكرت في ما قاله لي البارحة، أني ولدت فقيرا وسأموت فقيرا وبلغت في رأسي كلماته هذه ما بلغت.

– ماذا تختار؟

– قررت المغامرة واخترت مثلما اختار عندما ربح الكهل... طرة.

جحضت عيني وابتلعت ريقي. وبلوطة يتابع الحكاية.

ابتعد الرجل بخطوة للوراء ليرمي القطعة الفضية في الهواء، في تلك اللحظة كنت في أتم تركيزي.

ومراقبتي لدوران القطعة في الهواء، سقطت القطعة على الأرض وليتها ما سقطت .

أصابتني الدهشة وتجمدت مكاني وعرقت جبهتي واشتد خفقان قلبي وابتلعت ريقي.

فجأة صمت بلوطة

– إيه....كيف وقعت القطعة؟

–........

– زد أكمل...تكلم

–.....

– هاااااي

هززته ليكمل

– اوووف القطعة، القطعة، لا أدري كيف والله و...وقعت على حافتها متوازنة بين الجهتين لا طرة ولا نقش، تجمدت لم أفهم الذي يحدث.

– نظرت نحوه بفم مفتوح.

ابتسم الرجل ابتسامته الخبيثة كاملة هذه المرة:

–لم أكمل لك الحكاية. بعد لقائي بالرجل استغرقت خمس أعوام وأنا أتدرب على رمي هذه القطعة لتسقط متوازنة ما بين الجهتين وهذا ما أكسبني ضعف نصف ثروة الرجل العجوز التي ربحتها في الرهان معه.

يا مطلوعة صديقي لم أعرف ما أفعله في تلك اللحظة وحيث كان الرجل يقف على حافة الجسر، فدفعته ليسقط داخل واد بوغولة وهربت مسرعا.

وها أنا ذا راحل ولا أعلم أين؟ لأترك لك بارجي وزبيدة فاعتني بهما فسأعود

يوما ما سأعود يا صديقي، ثمّ نهض ونظر نحوي نظرات منكسرة وضع يده على كتفي.

– نلتقي في ساعة خير، وغير الجبال التي لا تلتقي.

ثمّ رفع سرة رحله على كتفه ورحل في اتجاه الشمس مع خيط أول إشراقة، انتصبت في مكاني أراقب أعز صديق لي راحلا، يذوب في طريق القرية تاركا إياي شاخصا حيرانا أسفا، أربط الأحداث داخل رأسي.

***

شعرت برأسي يدور كزوبعة صغيرة. وداخل أذني صوت مستمر زنننننننننننننننننننننننننن. زنننننننننن .

كصوت صفعة ضخمة مباشرة على أذنك، أو انفجار قنبلة أمام وجهك. رأسي يدور وسمعي يتلقف أصواتا غريبة مختلطة لا أكاد أبين، صراخ، صياح، صوت منشار، عويل امرأة، بكاء رضيع، أذان صلاة، تلاوة قرآن، محرك توليد الكهرباء في المزارع، الله أكبر الله أكبر، أهدر، قر، وين راهم صحابك، تفوووووه...

salaud, merde، هاي، هاي، هاي، خطفتني الأرض تتحرّك، نحو كل الجهات، الأبقار تزقزق، الجمال تطير، الجدران تسيل، أنفي يطول مثل مكنسة. أتلمّس تحت يدي على الأرض أعواد التبن، عرقي بارد، دقّات قلبي تتعالى، رأيت في ما يرى "المباتاكسي"، يقفز أمامي حلزون بحجم الكلب، يمسك في قرون استشعاره ملعقة وسكينا بنفسجي اليد، بجنبه ذبابة بحجم دجاجة عرب كبيرة عارية الرقبة، عيونها الشبكية جاحظة بحجم فنجان قهوة، تحمل تحت جناحيها ذبابتين زرقاوين غليظتين سمينتين.

***

ذئب بوجه خروف

ودعت بلوطة صديقي كلي حزنا وأسى، ومع ذلك الصباح الذي يعانق الليل ويودعه ليحزم حقائبه راحلا، بين حقول القمح الممتدة التي تقابل رؤوسا بقبعات قش تصعد تارة وتنزل تارة أخرى، فلاحون يعملون بجد وكد يحملون مناجل معقوفة الطرف يتقنون استخدامها بتفنن وبراعة، السماء فوق رؤوسهم قاتمة اللون وكأنها تشفق عليهم وبرفق تسقط أشعة شمسها على رؤوسهم البيضاء الشائبة وجباههم الحمراء المتعرّقة. بعضهم يغني والآخر يحدث نفسه وفي الناحية الأخرى أطفال يحملون الماء وبعض الكسرة لإطعام آبائهم وإخوانهم وعشيرتهم، وفوق الجميع يبدو كالفارس مبجل فوق محراثه على رأسه قبعة قش واسعة وبين شفاهه يحمل سنبلة يابسة والابتسامة تعلو محياه، الغريب من أمر عمي عدة، أنه يعمل طيلة النهار ولا أذكر أني يوما رأيته يشتكي أو يمل من عمله، إذ قل ما كنت أراه يتكلم. ألقي عليهم التحية وأعبرهم ليشدني الرحال كالمعتاد.

جاء المساء خرجت من المنزل وفي يدي قفة المطلوع متوجها نحو السوق كعادتي. وأنا في طريقي إلى السوق لاحظت وجود سيارة جاكوار سوداء قرب كوخ بلوطة، اقتربت لأتطلع على الأمر، رأيت رجلا ببذلة سوداء رسمية يضع نظارات سوداء على عينيه وساعة بارزة من يده. يقف منتصب القامة عريض الكتفين نادى علي، دون أن يتحرك...

– هاي أنت!

– من أنا؟

– نعم أنت، هل تسكن هنا؟

– ومن أنت؟

ثم كرر سؤاله بنبرة أكثر هدوء. أشرت بيدي إلى المنزل المقابل:

– نعم هناك أنا قريب من هنا..

– لكن لماذا، وماذا تريد؟

– أنت تسأل أكثر مني يا فتى، رغم أني غريب عن المنطقة

– آه براني..

– ماذا!

– لا شيء. لا شيء..

ثمّ حين سألني إن كنت أملك عملا وماهي ثروتي؟

فقفزت للخلف مذعورا لما عرفت أنه نفس الرجل الذي حدثني عنه أمين. لذلك كنت أعرف بقية القصة والحديث!

– لا لا...سي...تو.

ما بك لا تخف يا بني اقترب وعندما اقتربت لاحظت الخواتم على أصابعه وحينها تأكدت أنه هو.

– قل لي ماذا تعمل كيف تكسب رزقك؟

–.....

– مدخول!

– لا لا

– حسنا المهم أنا أحتاج لأحدهم آمنه على هذا الكوخ، فقد قررت أن أشتريه و أشتري الأرض التي بجانبه لأستثمر فيهما، إني أرى هذي القطعة تصلح مزرعة جميلة ولا أعرف كثيرا من الناس في هذه القرية لأني جديد في المنطقة.

_...

_عذرا نسيت أن أعرفك بنفسي أعذرني يا بني، يالي من وقح.

ومد يده بلباقة ليصافحني:

– جمال جديد هنا في الولاية، صاحب محلات OM للمجوهرات. إن كنت سمعت بها من قبل...! آاا على ما يبدو أنك غير مهتم بالموضة

– وأنت!

– مطلو....آ لقمان.

– متشرفين لقمان يظهر عليك أنك فتى خلوق، وجه الخروف معروف

– خرووووف!

– لالا أقصد أنك تبدو فتى طيب.

– طيب! ....اسمي لقمان قلنا. وليس الطيب.

– ههه، المهم هذي بطاقتي، خذ. إن كنت مهتما بالفرصة وتريد أن تكسب مصروفا جيدا... اتصل بي.

ثم ركب في سيارته الجاكوار وأطلق عجلاته للريح

_ذيب بوجه خروف يبدو وديعا أكثر مما وصفه لي أمين...سبحان الله وجوه ملائكة وقلوب شياطين..

***

ثم أسرع المحقق نحو الشاب. ودعاه للجلوس على سطح مكتب فارغ في المكتبة ثمّ رمى له التفاحة بين يديه وبدأ باستجوابه:

– يبدوا أنك مكتبي المدرسة؟

– لا سيدي. أنا عامل فيها فقط.

_ماذا تقصد بعامل ما هو دورك؟

_أنا خازن الكتب. أقوم بترتيب الكتب ونقلها ووضعها في الرفوف وفي المخزن وأحرص على توفيرها من خارج المدرسة وأحيانا أنوب على المكتبي وأسجل التلاميذ الذين قاموا بإعارة الكتب.

_إذن لماذا لم تنب اليوم على المكتبي؟

_لا أدري لم أكن أعلم أنه سيغيب عن العمل اليوم.

_حسنا سأسألك بعض الأسئلة يا رحيم، لا تعتبره تحقيقا وإنما حديث بين شخصين مهنيين يتعارفان لتوهما.

– طبعا سيد...

– المحقق محي الدين سعدي.. يمكنك مناداتي الماحي.

– هل أنت المحقق الذي ألقى القبض على حميد البغل، أكبر اللصوص في حي ميلودي، شاهدت لقاءك في التلفاز، تشرفت بك.

– جميل، أنت تتابع أحداث المدينة مؤخرا، أنت مهتم بعالم الإجرام والتحريات إذن!

– لا. أقصد أن الجميع قد سمع بالحادثة، على كل حال. أنت مشهور نوعا ما أليس كذلك؟

ثمّ مد يده ليصافح المحقق.

– رحيم الشاوي عامل في مكتبة المدرسة.

– تشرفنا يا رحيم لندخل في الموضوع مباشرة. منذ متى وأنت تعمل هنا؟

– منذ عامين تقريبا.

– أين كنت عندما اتصل بك المدير؟

صمت رحيم قليلا ثمّ أجاب:

_كنت في الملعب.

– ماذا كنت تفعل؟

_لا شيء فقط كنت جالسا وأقرأ في كتاب.

_لا شيء هاه.. تقرأ في كتاب فقط هل أنت واثق؟

_نعم.

_أي كتاب؟

_رواية اللاز للطاهر وطار.

ثم نظر المحقق للشاب وهو يستمر في تدوين ملاحظاته:

– جميل. أخبرني هل لك علاقة بالضحية؟

– لا سيدي لا أعرفه.

_حسنا و ماهي علاقتك بالمطالعة...الروايات؟

_نعم أنا أحب القراءة. لذلك اخترت أن آخذ هذا العمل. بدل أن أجلس في المنزل أقرأ الكتب من دون عمل. أنا أقضي وقتي بين الكتب وآخذ راتبا لا بأس به.

_إذن أنت تعرف معظم عناوين الكتب الموجودة في المكتبة حسب كلامك؟

_في معظمها نعم؟

_إذن هل تعرف رواية تحت عنوان "رحل من دون وجه ".

_رحل من دون وجه؟ من كاتبها؟

_هذه الرواية أقصد!

ثم عرض المحقق الرواية أمام رحيم.

_كاتبها اسمه "فارس ياني ".

_لم أسمع به من قبل.

_ هل أنت من وضعتها بجنب جثة الضحية أو في الرف الذي وقعت بجنبه الضحية؟ بالمناسبة هي الرواية الوحيدة الموجودة هناك.

_لا لست أنا. وهذه الرواية ليست من روايات المكتبة.

– هل أنت واثق من هذا؟

_نعم أنا واثق. فلو كانت كتابا مدرسيا تعليميا لشككت في ذلك. لكن بما أنها رواية فالروايات الموجودة في المكتبة لا تتجاوز المئة عنوان وأنا مطلع على معظمها وهذه الرواية لم تكن هنا مؤخرا.

_مؤخرا! منذ متى لم تتفقد الكتب الموجودة في قسم الروايات؟

_أسبوع تقريبا لأني كنت مشغولا بالكتب التي في المخزن والأرشيف.

_غريب.

_هل هي رواية بوليسية!

_نعم. وكيف عرفت ذلك؟

_من العنوان فقط.

_هل أنت متأكد من ذلك؟

_نعم دعنا نبحث عنها في جوجل.

بعدما بحث الماحي عن عنوان الرواية في محرك بحث جوجل عقد حاجبيه وغرق يفكر في صمت لبرهة.

– من معه مفتاح المكتبة غيرك؟

– لا أحد، أقصد ما عدى المكتبي. ومدير المدرسة طبعا لأني أضع نسخة من المفتاح في إدارة المدرسة.

– همم، وماهي آخر مرة غيرت فيها ملابسك وتركت المفتاح داخلها؟

– لا أذكر، لكن ربما آخر مرة عندما دعاني بعض الأولاد لأدير مباراة كرة قدم ولإلحاحهم علي، وبما أني كنت ألعب من قبل كرة القدم وأنا حكم سابق، قررت أن أشارك في المباراة معهم.

– مع من لعبت؟

ثم ذكرله العامل الأشخاص المشاركين في اللقاء وشكره على تعاونه وانصرف.

***

قبل عشرين عاما

مدينة وهران الباهية.

بين العمارات الشاهقة والمحلات التجارية المبهرجة، بين المساجد والمدارس بين الكباريهات والحانات، الميناء ونوارسه ومناراته، الصيادون بصنارتهم وشباكهم، العشاق بالهوى والكلمات المتراقصة والوعود المثيرة، رصيف" فلوند مار" يطل على ميناء وهران الباهية، رجل قصير القامة أشيب الشعر رفقة ولدين صغيرين، بيده خيط يمتد في السماء لطائرة ورقية، عجوز قصير محني الظهر بنظارة طبية غريبة الشكل يرتدي قميصا أبيض شديد النظافة ويقف أمام عربة صغيرة بعجلات دراجة نارية يرتب العلب البيضاء الصغيرة، ليبيع داخلها حبات قلب اللوز، بعده بخطوات على الرصيف يقف رجل أسود، أنفه كبير مكور وأسنانه شديدة البياض، يرتدي عباءة زرقاء وعلى رأسه عمامة بلون أرجواني غامق، يحمل على ذراعه إبريق شاي فوق موقد جمر في يد وفي يده الأخرى سلة بلاستيكية، ممتلئة بأكياس مختلفة الألوان. الجو دافئ بطريقة غريبة يبعث الاسترخاء في الجسد، رائحة عطر خفيفة تسبح غير بعيد تعبق ليل وهران الطويل، يقف وسط الطريق، عيناه ذابلتان فوق رأسه قبعة زرقاء يضعها بالمقلوب، يحمل بيده مضخة صغيرة يرش بها المارة وتحت ذراعه مجموعة من قارورات العطر البلاستيكية الصغيرة، من العطر المميع الذي يرش به المارة، كل الماشين على واجهة رصيف فلوند مار ذوي بشرة سمراء، يتمشون ببطء، يبتسمون، هل يبتسم الناس هنا كل يوم؟ لهجة وهرانية معجنة تنبعث من فم كتل الجماعات المشكلة على طول الرصيف، أكثرها كلمة "واه" وتعني نعم وهذا يميز الغرب الجزائري، مثل كلمة "يا خو" التي تميز العاصمة الجزائرية وكلمة "هيه" التي تميز الشرق، أصوات البواخر وهي تغادر الميناء، وهدير محركات الدراجات النارية، أضواء السيارات في تللك الطرق المزدحمة التي تتعكر برائحة بخار المصانع وسيارات الأجرة الموثقة وغير الموثقة، في واحدة من ليالي يناير الباردة، مطر خفيف يحط فوق أسطح البنايات ذات اللمسة الفرنسية من حقبة الاستعمار بمعمارها

الكلاسيكي المحدث، مطريحط فوق رؤوس العشاق على رصيف..."فلوند مار"مطر ينتحر ويذوب بين عبق الكلمات

يذوب

يذو

يذ

ي.

ها هو ذا تمثال القديسة صوفيا يفرد يده للسماء، بلونه الأسود يتوسط شارع العقيد لطفي، قرب الميترو الذي يشق سرة مدينة وهران بهدوء واتزان، وهران لا تنام وهران جمرة مشتعلة على لهيب الفن وريح الذكريات.

على رصيف فلوند ماركلب كانيش تجره سيدة من حبل رقيق مربوط برأسه، ممشوقة القوام بساقين نحيلتين تنتعل حذاء ذو كعب عال، على رأسها قبعة فرنسية سوداء وواسعة تتدلى من على حوافها شراشف سوداء شفافة تشبه تلك التي في العروض الليلة، ونظارات شمسية سوداء وحقيبة يد حمراء صغيرة في وسط يدها الأخرى، السيدة لتوها نزلت من السيارة، رمت المفتاح داخل حقيبة يدها أقفلت الباب بعقب رجلها، عدلت من ثوبها القصير الأحمر، خفضته على ركبتيها، اقتربت من محل لبيع المثلجات في الزاوية، جاءها النادل مسرعا إذ بدى أنه معتاد على التعامل معها، خصص لها طاولة جانب حديقة المحل الصغيرة في الهواء الطلق.

ثم بإشارة من يدها عاد النادل مسرعا بزيه الأبيض والأسود وربطة عنق حمراء جميلة، الشاب أسمر أنيق الشعر مرتب الهندام، يتكلم بانضباط وإحكام، خاطبته السيدة بنبرة أنثوية خافتة.

_نعم سيدتي سارة.

_مثل المعتاد رنجيلة. وشيء أبرد به حلقي وطعام "ريو"

هز برأسه بجدية ثمّ عاد بعد لمحات من البصر حاملا في يده علبة طعام كلاب صغيرة فتحها وضعها في الأرض أمام الكانيش، وضع الشيشة وبعض المثلجات على الطاولة أمام السيدة، لم تبدِ السيدة أية ردة فعل، وإنما فقط وضعت رجلا فوق رجل ليبرز قوامها الرشيق والنحيل من ذلك الفستان القصير كأنها تقوم بعرض أمام المارة... ولا تنتظر أن يأتي أحد.

تشعل السيدة سيجارة وتدخن بتأني وتفكير طويل قبل أن تمسك أنبوب الرنجيلة، تعبر أمام السيدة فتاة بيضاء قصيرة تلبس سروال جينز ضيقا أزرق اللون يكاد ينفجر من فوق فخضيها.

– اليوم السهرة حتّى للصباح على حساب رامي!

– اتصلي بأبيك، اصنعي له حجة، قولي له أن فتيحة دخلت المستشفى وعلي أن أبقى معها.

يتابعان طريقهما، ليمرا بجنبهما رجل جاد الملامح عريض الكتفين، يسعل سعلا غير طبيعي. يكاد يسقط من السعال حتّى تمسكه الفتاة:

– هل أنت بخير هل نستطيع مساعدتك؟

يشير بيده للرفض وينهض متثاقلا في مشيته وينصرف.

تنظر الفتاة لصديقتها:

–هل رأيت ماذا سعل على الأرض!

– نعم ربي يشفيه مسكين.

يكملان مشيتهما فيصطدمان بسيدة. وتسقط حقيبتها على الأرض

***

على الرصيف تسير سيدة عريضة الوجه خشنة الهيئة، وجهها ملطخ بشتى مساحيق التجميل، تصطدم بفتاتين مسرعتين، تسقط منها حقيبة يدها، تعذر منها البنتان. تقبل اعتذراهما، وتواصل طريقها وهي تجرجر بيدها فتى سمين الجسم منتفخ الوجه.و الفتى يبكي يأبى المشي، تبدو السيدة متعبة منه والعرق يتصبب من جبينها:

– أيها الحمار تحرك تحرك وإلا لن تخرج معي ثانية..

يبكي الفتى مجددا، ويجلس على الأرض.

عادت السيدة مسرعة لتحمله من على الأرض فأبى. لاحظت بقربها في جانب السور. متسولة بجانبها فتى كئيب الملامح، تنهدت السيدة قليلا ووضعت يدها في حقيبتها لتخرج بعض العملات المعدنية، حتّى تعطيها له كخدعة منها لينهض ولتعلمه شيئا آخر. فتحت السيدة حقيبتها، ثمّ صرخت بهستيريا:

– هاتفي ي ي ي ي أين هاتفي!

ثم خرت على الأرض تنوح.

– سرقوني يا ناس سرقوووني اجروا لي...

انصرفت السيدة المسروقة تجر ابنها وتصفعه، تخرج فيه جل غضبها.

المتسولة ذات العجار تراقب السيدة المفزوعة، وترتب أوراق الكرتون تحتها، بجنبها قطة سوداء مبتورة الأذن نائمة قرب فتى نحيل يخفي مقصا صغيرا تحت يده ويسند ظهره إلى الجدار ضاما رجليه بيده نحو صدره، أشعث الشعر، يصر شفتيه ونظرات الخوف بادية عليه.

حافي القدمين وفوق جسده الهزيل بعض الأسمال الرمادية البالية والمثقوبة من كل جهة، ساكنا من دون حركة كأنه إعتاد على الجلوس في تلك الوضعية...الدهر حفره والدنيا آلمته كثيرا.

كانت تلك السيدة تبدو غامضة تخفي ملامحها بعجار أسود يمتد حتّى ذقنها، وعلى رقبتها وحمة على شكل نصف قلب، جسدها هزيل تغطيه بحجاب أسود باهت اللون، بيمينها القطة والفتى الكئيب، وفي حجرها تحمل رضيعة صغيرة ذات شعر ذهبي تشع جمالا وعلى يسارها صحن فارغ أزرق اللون داخله بعض العملات النقدية الصغيرة، تجمع فيه ما شاء الله أن تجمع من صدقات من بقي في هذه المدينة من المحسنين وذوي القلوب الرحيمة. وعند فراغها من جمع التبرعات داخل الصحن، تفتت بعض الخبز والماء أو بقايا طعام داخل ذلك الصحن لتطعم القطة مبتورة الأذن والفتى الصغير.

***

كل يوم سكران نندب فوق الكونتوار

سبابي العديان جرحوا قلبي بالكلام

مقطع من أغنية راي للشاب حسني

نزل من سيارته السوداء الفخمة، يرتدي معطفا جميلا من الفرو وحذاءً كلاسيكيا لامعا، يسير ببطء قابل لافتة مكتوبة بأحرف فرنسية مضيئة DJAWHA-RA + ملامح وجهه تعبر عن الثقة والخشونة، شعره أصفر لامع مدهون بمرهم، شق طريقه نحو مدخل الملهى. وكان أمامه رجلان ضخمان يقفان عند الباب وبمجرد أن اقترب منهما أفسحا له المجال. ونظر أحدهما للآخر ليرفع له الستار المعلق في المدخل. يبدو ثابت الخطى لم يغير من مساره، الضجيج يملأ المكان وأضواء الحانة تنعكس على وجه السيد وتظهر شاربه الطويل ولحيته الخفيفة، رائحة التبغ الممتزجة بالكحول تعطر المكان، الملهى مشكل من عدة طوابق، في الطابق السفلي كانت هناك المخمرة وخشبة الرقص ومكان مخصص لتدخين الشيشة أمّا في الطابق الثاني كانت هناك الكثير من الغرف. وفي الطابق الأخير كان المسبح.

مشى الرجل قبالة وجلس على كرسي مرتفع متحرك أمام الكونتوار وضع ذراعه فوق لوح الكونتوار، لتظهر يد مرصعة بأربعة خواتم تحمل على ظهرها قطع من الأحجار الكريمة خضراء وحمراء وزرقاء والأخيرة كانت لا تظهر جيدا لأن معطفه الطويل يغطيها... اقترب منه الساقي ليقوم بعمله؛ بنبرة خشنة.

و مبحوحة:

– كأس ويسكي مع بعض الثلج من فضلك!

– حاضر، أمرك سيدي.

أحضر الساقي الكأس ووضعها أمام الرجل وهو يمسح سطح الكونتوار بقطعة من القماش ويعدل ربطة عنقه...

– كأسا أخرى....كح كح!

قالها الرجل بعدما ارتشف الكأس دفعة واحدة كأنه شرب كأس ماء.

وضع الساقي الكأس الثانية أمام الرجل وقبل أن يزيح يده خطفها الرجل وكبها في فمه...ثم أرخاها على سطح المخمرة وكان الرجل يبدو شارد التفكير..و قبالته نظرة الحيرة والاستغراب تملأ الساقي الشاب الوسيم عريض الحاجبين أبيض الوجه...

يسعل الرجل!

– كح كح كح...!

ثم يواصل كلامه بنبرة صوت مبحوحة وعالية

– أحضرلي.....ال....ك..ا..م...!

ثم يضع يديه على وجهه، يعض على شفته السفلية، يتوجع من ألم غيرظاهر!

بحركة نصف دائرية من يده يشيرلقارورة كانت بجانب الشاب، يستدير الشاب نحو الحائط المملوء بمختلف أنواع الشراب، يضع يده فوق قارورة بيضاء ذات رأس طويلة، على سطحها كتبت بحروف أجنبية "vodka...ثم نظر نحو النادل.

هز الرجل رأسه دون أن يتكلم واكتفى بإشارة بيده

الساقي بلهجة لا مبالية كأنه ينبه الرجل:

– أن تشرب الويسكي ثمّ تتبعه الفودكا كأنك تضع روسيا واسكتلندا في حجرة واحدة.

ثم صمت قليلا ولاحظ أن الرجل لم يلتفت نحوه فرفع صوته قليلا:

– أنت تعلم الذي سيحدث أليس كذلك؟

وضع الرجل يده الأخرى على سطح المخمرة وبنصف ضحكة ساخرة من دون أن يرفع رأسه قال:

– أنا أحب السفر كح...كح...كح! صب..صب..

واصل الرجل نوبة سعاله ثمّ التفت نحو النادل:

– أوووف...و أنت لا تعلم ذلك!

– أحضرلي زجاجة الفودكا... وأسمعني صمتك!

ابتسم الشاب ابتسامة ساخرة وحائرة في نفس الوقت واضعا زجاجة الفودكا أمام الرجل بعدما أدخل الرجل يده في جيبه ليستل سيجارة. نظر هنا وهناك بعينين ذابلتين يضم السيجارة بين شفتيه يمسح عقبها بلسانه ليبللها. ينظر في الأرجاء باحثا عن شيء ما.

يلحظ في الزاوية رجلا أصلعا أعور العين. أشار له بحركة من يده إن كان يملك ولاعة...لم يستجب الأصلع، كان يعبث بهاتف ينعكس ضوء شاشته على وجهه ليبرز أنفه الكبير وأسنانه الصفراء البشعة، أعور العين وذا حاجبين خفيفين باهتين ووجهه مائل للشحوب...لا يكف عن حك أنفه ومسح المخاط على سرواله. يهز رأسه ويضغط على الهاتف ثمّ يقرب الهاتف من وجهه ليتمكن من قراءة ما كتب على شاشة الهاتف. بأصابع تحمل أظافر طويلة متسخة "تركيزه مع الكتابة على لوحة المفاتيح دعاه ليخرج لسانه من بين شفتيه الرقيقتين"ليشكل رقما نقله من ورقة صغيرة. تارة يقرب الورقة من وجهه وتارة أخرى يعود للهاتف ليدون الرقم الذي كتب على الورقة بحركة بطيئة...مع مرور الوقت بدأ صوت الموسيقى بالانخفاض تدريجيا. على الجدار ساعة كبيرة معلقة مباشرة فوق زجاجات الكحول تحتها مباشرة مجسم سفينة مصنوعة بالخشب القديم، وفي منتصف الجدار المطلي بالأسود الفاتح، تلك اللوحة الفنية لصورة امرأة عارية نحيلة الجسد بشعر أصفر طويل يتدلى واصلا حتّى الأرض...ذات نهدين صغيرين تخفيهما بذراع واحدة وترفع ذراعها الأخرى نحو السماء.

وعلى رأسها تاج مصنوع من الأزهار. عند رجليها يزحف رجل ضخم وعاري الجسد على بطنه، يبدو عريض الكتفين ولحيته تحت رجل تلك المرأة..."كانت ترتدي في أسفل ساقها النحيلة الملساء عند عظمة الرجل بالتحديد خلخالا تتدلى من عليه خيوط قصيرة من النحاس...".

و من ساقها الأخرى يمسكها الرجل الضخم، ليمنعها من المسير... وبعض الغبار يملأ شعر الرجل الأشقر الأشعث...كأنها استطاعت أن تجره من ورائها، محدثة الغبار فوق الأرض الترابية والأشجاروالسماء سوداء ترسم أفق الصورة.... المزيج مذهل من الألوان...".

بعد لحظات توقف صوت الموسيقى كليا، يبدو أن السهرة انتهت هناك في الأعلى، فجأة تتعالى ضحكات وأصوات نقر بالأحذية كانت آتية من أعلى السلم، ليظهر مجموعة من الشباب إحداهن كانت في حالة سكر يرثى لها حيث أنها لم تقو على المشي، اقترب منها أحدهم ورفعها في الهواء من خصرها وألقاها على كتفه...في حين أنها كانت تردد كلمات متلعثمة:

– أنا أحبث شامي، أنا أتير... واه ويأيه.."ثم بدأت تضرب ظهر الشاب ورجلاها تلوحان في السماء أمام وجهه مباشرة".

بقي الرجل شاخصا في مكانه...لا يحرك له ساكنا، سيجارته في فمه، فجأة تظهر يد من خلفه.يد رقيقة أضافرها مطلية بالأحمر.. تحمل ولاعة من حديد غطائها على شكل رأس أفعى كوبرا أشعلت سيجارة الرجل... وجلست بالكرسي جانبه:

– يقولون شكرا!

رد الرجل وهو يأخذ نفسا طويلا من سيجارته:

و دون أن ينظر نحو الفتاة:

– شكرا لأنك أنقصت من عمري...!

–...

لم ترد وواصلت النظر مباشرة في عيني الرجل وضعت رجلا على رجل ليبرز فخضاها وسيقانها الطويلة وهي ترتدي "جوارب شبكية سوداء شفافة طويلة وتنتعل حذاء لامع أحمر ذا كعب عالي"..بعد وهلة وجيزة اقترب الشاب الساقي منها:

– نعم سيدتي!

– عصير ليمون.

ثم وهي تتم حديثها نظرت نحو الرجل تفترسه من أخمس قدميه لأعلى رأسه.

– وشيء لأبرد به حلقي.

الرجل يشرب ويدخن ويسعل. غير آبه بالسيدة جنبه، يفتح ربطة عنقه السوداء الطويلة المتدلية فوق صدره العريض، أنهى سيجارته الأولى في أنفاس معدودة، ثمّ بدأ بالبحث في جيبه عن سيجارة ثانية...أخرج العلبة ليجدها فارغة، اعتصرها بيده وبقبضته القوية رماها على الأرض ورائه، ارتسمت على ملامح الرجل علامات الحيرة. حرك رأسه هنا وهناك يبحث في الأرجاء... نهض من مكانه واتجه نحو الرجل الأصلع في الركن...حيث كان ذلك الرجل لا يزال يحاول تسجيل ذلك الرقم بشكل صحيح... ضرب بيده على الكونتوار ونهض متجها مباشرة نحو الرجل الأعور مد يده بحركة خاطفة ويأخذ منه الهاتف والورقة.

سجل له الرقم المدون على الورقة بسرعة. ورد الهاتف له وتركه جامدا في مكانه، لم ينبس ببنت شفة "ظهر الأعور محدبا لذلك لم يعدل من وضعية جلوسه واستمر ينظر للرجل فوقه بنصف عين"

– الآن هل معك سيجارة؟

أجاب الرجل الأعور وهو ينظر للرقم ودون أن يعير اهتماما للرجل الواقف فوق رأسه.بنبرة تلم على نوع من الاستهزاء والسخرية...

– هل أنت سكران أم ماذا؟ كيف أملك سيجارة وأنا لا أملك ولاعة واخبرتك بهذا منذ دقيقة!

– لم أكن أقصد منك من قبل أن كنت تحمل ولاعة؟

واصل وهمس بضحكة هادئة ومنخفضة:

– هيه هيه،....بل أردت مساعدتك في تسجيل الرقم، لأني حقا انزعجت مكانك وأثرت أعصابي.

لم يرد الرجل الأعور واستمر في تفقد الرقم الذي كتب له!

– أعور يملك هاتفا...-خص الفرطاس غير حك الراس...-

ثم عاد ليجلس مكانه. كان لا يزال هناك بعض الشراب المتبقي في زجاجته فأفرغها في فمه وقد شمر على منكبيه، التفت فجأة لينظر نحو الفتاة الجالسة بجنبه، وهي تقدم له سيجارة مبتسمة حيث التقت نظرات الرجل بنظرات الفتاة. بقي صامتا يمد يده نحو يدها كأنه لتوه لاحظ وجودها، بدى في تلك اللحظة أنه صحى لتوه من سكرته...أمسك السيجارة وفي نفس الوقت مد يده يتلمس متعمدا سطح يد الفتاة وعجل في سحب يده:

– شكرا.

ثم صمت قليلا وأتبع قائلا:

– آنسة...

وكأنه ينتظر منها أن تخبره أسمها!

– لا تقل لي شكرا، لأني أنقصت من عمرك بهذه السيجارة أليس كذلك!

مال الرجل إلى الخلف قليلا وهو ينظر نحو الفتاة نظرة إعجاب وحيرة:

– ما لذي أحضر فتاة جميلة ومحترمة مثلك إلى هنا، أتعجب من أمرك حقا!

ثم قاطعته الفتاة مبتسمة وهي ترتشف من عصير الليمون في يدها.

– كان هناك رجلان...قرر الرجل الأول أن يذهب للمسجد والثاني أن يذهب للحانة. من هو الرجل الطيب ومن هو الرجل السيئ في رأيك؟ نعم أنت تظن أن الرجل الأول هورجل طيب.. والثاني رجل سيء أليس كذلك؟ "وأمالت رأسها بحركة صبيانية" لكن في الحقيقة لا! لو أخبرك أن الرجل الأول دخل للمسجد ليسرق الأحذية والثاني دخل للحانة ليدعي أنه يشرب ويعض الناس ويساعدهم ليتوقفوا عن الشرب...أجل! أجل! نحن مجتمع نقيس الأشخاص حسب مظاهرهم.

رد الرجل كأنه معجب بكلام الفتاة مناديا على الساقي.

_فاتح!

_نعم سيدي

_أحضر كأسا للآنسة هي على حسابي

قاطعته الفتاة:

– لا لا داع، لهذا فأنا لا أشرب، ولا أقبل الهدايا من أشخاص غرباء، وخاصة إن كانوا سكيرين..."واصلت كلامها وهي ترسل نظرة حادة تحمل الشفقة."

– أنا يا عزيزتي عندما أريد أن أصحو أسكر.

– الرجال كلهم همهم الوحيد هو الجنس وإن لم يحصلوا عليه يخدعون وإن حصلوا عليه يخدعون. الرجال خداعون في كل الأحوال.

بنبرة واثقة قاطعها الرجل!

– وهل جربتهم كلهم يا عزيزتي حتّى تعرفي هذا؟

– لا ولكن....

– ولكن ماذا! تكلمي؟

ثمّ أطرقت الفتاة وجهها شاخصة نحو الأرض.

و بالتحديد في تللك الأثناء بدأ الرجل الأعور بالصراخ.

و إحداث أصوات وقد تمكن أخيرا من إجراء اتصاله يضرب على الطاولة أمامه وهو يتحدث في الهاتف كأنه سمع خبرا غير سار...

– فتيحة دخلت المستشفى، متى؟

–......

– لكن! ماذا حدث لها؟

–....

– واه، واه هل اتصلت بأمك؟

–......

– هاتفها مغلق! لا لا أعرف منذ متى تغلق هاتفها!

ثم صمت وهدوء يكسره بكاء الرجل الأعور في الزاوية. وهو يشرب من فم قارورة الخمر مباشرة. بحرقة.

نظرت الفتاة نحو الرجل نظرات طفلة بريئة منكسرة...

- اسمع ليس الأمر مثلما تعتقده.
- أعتقده!
- نعم.. فإن التقينا هنا لا تظن بي سوء ولا تحسبني مثل الفتيات الأخريات.

سأجيبك عن التساؤلات التي تدور في رأسك بخصوصي الآن. إن تعجبت عندما أخبرتك أني لا أشرب فلا تتعجب إن أخبرتك أني لا أدخن ولا أفعل الكثير من الأشياء الأخرى، أما بخصوص الولاعة فقد نسيتها في محفظة يدي وذلك كان أثناء إشعال الشموع في حفلة عيد ميلاد صديقة لي والذي كان قبل لحظات فقط لذلك خرجنا لنحتفل، أرسلت لي رسالة تخبرني عن مكانها وأنا أعلم من طيشها ما لذي سيحل بها، فحتى هي الأخرى لم تعتد الدخول إلى مثل هذه الأماكن. وإنما جرها "منير" الكلب، الذي نصحتها بأن تبتعد عنه وإلا ستجني على نفسها في الأخير سوء العاقبة. بحثت عنها ولم أجدها...تعبت من البحث فأردت أن أحتسي شيئا يخفف عني قلقي لا أكثر... أما هذه السيجارة التي في فمك الآن أنظر للعلامة التجارية التي تحملها الآن... هي نفسها التي تحملها السيجارة في فم الساقي...أنظر جيدا يا سيدي وإن كنت تتساءل متى تم ذلك...فسأترك لك المجال للتفكير متى غفلت عني أو نهضت من مقعدك.

صمت الرجل قليلا ثم استرسل قائلا:

– حسنا، حسنا، ربما أخطأت الظن بك. ولكنك حتما أخطأت الظن بي أيضا... ليس لأني أشرب أمامك الآن فأنا شخص سيء وفاشل ربما حقا مكان تواجدي هنا بالأصل أمر خاطئ. ربما أنا حقا ثمل ولكني في كامل وعيي.

فضحكت الفتاة من آخر جملة قالها الرجل وأخفت ضحكتها بيدها!

واصل الرجل حديثه واضعا يده جنبه وهو يزم شفتيه. يشد الضغط على زجاجة الفودكا بيده، يقاوم الألم، اقتربت منه الفتاة لتساعده ونظرة خوف وشفقة بادية على وجهها، منعها الرجل بحركة لطيفة بيده ثمّ فتح ربطة عنقه قليلا.

كانت الأضواء خافتة والنسيم الليلي البارد يتسرب إلى داخل الحانة انطفأت سيجارة الرجل الثانية وقبل أن تنتهي، أخذ منها الرجل نفسين متتالين بشراهة... نهض من مقعده واقترب من الفتاة بخطوات شبه مترنحة وبعينين تكتسيها حمرة في الجانبين.

– مشاعر باردة، آه آه آه...هل تقصدين هذا الشيء "و أشار لقلبه"

اسمعي يا صغيرتي لو كان هذا باردا حقا لما كنت هنا، لو كان باردا ما شربت يوما، ولو كان باردا كما تقولين لما كنت أتألم الآن بسبب كبدي اللعينة التي هشمتها بشربي المتواصل. ورئتي التي أحرقتها بالتدخين والتدخين لو كان باردا لبكيت أمامك الآن واستطعت البكاء، هل تعلمين لماذا لا يبكي الرجال بسهولة؟ لأن قلبهم حار وإن بكا الرجال فلأنهم خسروا أشياء صنعت منهم رجالا.

مثلما يبكي ذلك الأعور هناك بعين واحدة. لأنه رجل ويحس أكثر منك ومني ربما وربما أنا أنسحق الآن أمامك ولكنك لا تدركين وربما تظنين أنني بارد مشاعر! جبال الثلج يا عزيزتي. جبال الثلج يظهر فقط منها جزء صغير يطفوا على السطح ولكن أنت لا تدركين ما تحمله تحتها، وما أشد عمقها، وكذلك لا تدركين إلى أي حد يمكنني إخفاء مشاعري وعواطفي، حتّى أني عندما أنظر في المرآة أرى شخصا واحدا بنفس تقاسيم الوجه كل يوم. بنفس الضحكة، أصبحت أملك ضحكة واحدة، جافة وباردة أقابل بها الجميع، والسيء في كل هذا. أخبرني الطبيب أني مصاب بسرطان الرئة ولم يتبق لي كثيرا وأغادر الحياة وأنسى كأني لم أكن.

"عاش ما كسب، مات ما خلى"

أنا ميت على كل حال فلما لا أشرب؟

هل تعلمين شيئا آخر. أنا محظوظ لأني على الأقل أعرف تقريبا موعد موتي... ليس مثل الكثيرين يجرون وراء الدنيا كأنهم خالدون...حتى يتخطفهم الموت وهم غافلون، كح كح كح! صدقيني إن قلت لك أنني أحس بكبدي يتمزق ويتناثر داخلي مع كل شربة وشربة، كل هذا الألم الذي لا يطاق لا يحزنني بقدر حزني أني وحيد، وهل تدركين معنى أن يكون المرء وحيدا في هذه الحياة أن لا يجد شخصا يحن إليه ويبكي على صدره ويتألم حزنا أمامه، لا لا طبعا لا تدركين هذا! برغم مالي وما أملك من ثروة لازلت أشعر أني حزين. لأني أنام وحيدا وأنهض وحيدا وأشرب وحيدا وسأموت وحيدا. آه وتبا من يحضر جنازتي! سوى الغرباء لا أملك صديقا يحزن بعد رحيلي أو

أمّا تبكي علي بحرارة على فقدان فلذة كبدها أو أبا يذكرني بمحاسني ويتفاخر بي بين أقرانه وإن حزن أحدهم على موتي حقا، فلن يكون سوى الطبيب والصيدلي وبائع السجائر وصاحب المخمرة. يحزنون لفقد جزء كبير من مدخولهم هذا كل ما في الأمر.

آه يا عزيزتي كيف لا يبرد قلب المرء هكذا؟ أخبريني بربك كيف؟ ولو كان هذا الذي فوق كبدي اللعينة "ثم توقف ليسعل يسعل ويسعل...! وهو يشد على جنبيه ناحية كبده ويعض على شفتيه ويعتصر عينيه من الألم، واصل بعد أن هدء قليلا وعدل من وضعيه جلوسه ليجلس مقابلا الفتاة مباشرة".

و بنبرة هادئة:

لو كان قلبي باردا حقا. لما شعرت أني أحبك منذ أول نظرة في عينيك وأنا ثمل.

فأنا أثمل ليبرد قلبي وأنا أعرف أني الآن في حالة يرثى لها من السكر، وأحسست أني أحبك فماذا لو صحوت من سكرتي هذه ورأيتك...ربما لن أتذكر اسمك ولكني حتما لن أنسى وجهك ولن أنسى ابتسامتك ولن أنسى فعلتك من أجلي، أنا لا أعلم سبب أفعالك اتجاهي...رغم أني شخص سيء وعربيد. عندما أحزن أشرب وعندما أفرح أشرب وعندما أصحوا أشرب. أتمنى أن تنتهي ثروتي من شربي للخمر لكنها لا تنتهي

_تبا.. كح كح كح!

"ويبصق على الأرض ويواصل كلامه متقطعا"

أنا حز......ين ولا أري...د شيئا.. س.. وى

ثم لم يكمل كلامه ويسقط مغما عليه.

و في الصباح يجد الرجل نفسه ممدا على أريكة الملهى... صداع داخل رأسه يستيقظ على صوت النادل. يتفقد نفسه فيجد حذاءه وربطة عنقه موضوعين بجانبه ولا يتذكر من ليلة امس سوى وجه تلك الفتاة..

يلبس حذاءه مسرعا ويرتب ربطة عنقه أمام زجاجة الفودكا التي لا تزال فوق سطح المخمرة ثمّ يتجه نحو الشاب ليسأله عن الفتاة. كل ما يخبره أنه فقد وعيه وسقط مغشيا عليه. فلم تتمكن الشابة من سحبك إلى هنا، فنادت على الرجل الأعور الذي كان يجلس على الأريكة هناك ليساعدها في حملك.

ثم قاطعه الرجل قائلا:

– أتعرفها؟ ألم تخبرك شيئا؟ أو تترك عندك رسالة. أو شيء من هذا القبيل.

– لا سيدي!

قالها الشاب وهو يقوم بتنظيف الأرضية وترتيب الكراسي

حمل الرجل نفسه وخرج من الملهى، وصل إلى مكان ركنه سيارته وضع يده ليخرج مفتاح سيارة، حتّى تفاجأ بورقة موضوعة في جيبه. فتحها وقرأ بخط جميل.

– لاقني في نفس المكان بعد أسبوع.

#سارة

علم الرجل على فوره أنها تلك الفتاة واسمها سارة. شغل سيارته وانطلق منتظرا ليمر هذا الأسبوع بشغف وشوق مرهف ليلقاها.

مر أسبوع مثل عام على الرجل. انتظرها وأقسم أن لا يشرب قطرة خمر حتّى يراها صاحيا ويتمعن فيها جيدا ويغازلها ويعبر عن إعجابه بها.

دخلت الفتاة نفسها إلى الحانة مجددا بفستان أسود وحذاء أحمر كالمعتاد وعلى رقبتها وشاح أبيض من الفرو... يغطي رقبتها وجزءً من صدرها..

تحدثا وضحكا وتسامرا. ليبوحا في الأخير بحب بعضهما لبعض. ثمّ بعد أشهر تطورت علاقتهما.

وفي يوم من الأيام... استدعى الرجل فتاته في موعد مفاجئ. وسرد لها فاجعة

أصابته. حيث أعلمها أنه خسر معظم ثروته وما عاد يملك فلسا الآن. وأنه لا يملك حتّى ثمن ما يدفع به من أجل البيرة التي كان يحملها وهو يسرد لها قصة خسارته لثروته. في جلسة القمار تلك.

ظهرت على الفتاة علامات الخوف والارتباك، تلعثمت في كلامها. ابتعدت عنه قليلا. ثمّ قالت:

– يعني أنك لا تملك مالا؟

أجاب وهو يثبت نظراته في عينيها:

– نعم يا عزيزتي! قد خسرت كل شيء، بقيتي لي أنت فقط.

نهضت من مكانها، ونظرت نحوه بنظرات اشمئزاز واستحقار أدهشت الرجل:

– أنت سكير وستبقى سكيرا...تعبت وأنا أنصحك بأن تكف عن الشرب وأنت لم تسمع لكلامي، أمّا الآن فوداعا. هذه القطرة التي أفاضت الكأس.

أمسكها الرجل من ثوبها، بنظرات انكسار يترجاها أن لا ترحل:

– توقفي أرجوك...على الأقل قبل ذهابك...! ادفعي مقابل هذه البيرة... بجاه الأيام الجميلة بيننا وبجاه كل ما أنفقت عليك من مال ولم أحدثك عنه يوما ولم أشعر بالندم لأني أنفقت عليك.

وضعت يدها على حقيبتها وبنبرة صوت ساخرة تتصنع التأسف:

– لا أملك نقودا... هيا وداعا...!

تبعها الرجل، أمسكها من رقبتها مباشرة وشد الخناق على قبضتها. استسلمت الفتاة، وقادها إلى جانب مظلم من الشارع... سمع لحن مزمار حزين تبع الصوت لآخر الرصيف، قابل متشردا رث الثياب أشعث الشعر. يعزف ألحان حزن كأن لم يبق له

أمل في الحياة...فجأة دفع الرجل الفتاة بجانب ذلك المتشرد واستل مسدسا صغيرا أبيضا من جيبه وبدأ في الحديث مع ذلك المتشرد كأنه يوجه له سؤالا ما. وبعدها أخرج الرجل قطعة فضية من جيبه "كانت تلك القطعة كلما وجده في حقيبة الفتاة" ورماها في الهواء، وقعت على كف الرجل، لتكون بعد لحظات الفتاة مرداة قتيلة.

اقترب الرجل من المتشرد ليكتب له في ورقة، يسلمها له وينصرف لحاله يجر معطفه الأسود بمشية عرجاء هادئة يخترق الظلام ويختفي وسط الشارع.

_استجواب _

السيد مروان مقدمي

***

عندما جلس مروان أمام المحقق، دفع المحقق حبة التفاح أمام مروان. أمسكها مروان ووضعها بجنبه، نظر المحقق في عينيه لبرهة وجيزة يختبر تواصله البصري معه، هز رأسه ثمّ سأله:

– أين كنت أثناء وقوع الجريمة؟

– كنت في المرحاض

– هل دخلت المكتبة اليوم؟

– لا لم أدخل هنا.

– رفقة من كنت في المرحاض؟ ومتى آخر مرة رأيت فيها المرحوم؟

– كنت رفقة لقمان وبعض الأولاد الآخرين. كنا ندخن سيجارة نتناوب عليها، حتّى سمعنا الصرخة المدوية، فهرعنا مسرعين إلى المكتبة، وكانت آخر مرة رأيته فيها وهو يدخل القسم صباحا، وبالمناسبة لم يحضر آخر حصة صباحية.

_آخر حصة. هل تقصد من الساعة ال 11:00 إلى 12:00؟

_نعم.

– لماذا برأيك؟

– لا علم لي، لكن علامات القلق كانت تبدو ظاهرة على وجهه. كأنه يخفي شيئا ما! أو يخطط لفعله؟

– يخطط لفعل شيء ما، ما لذي كان يخطط له برأيك؟

_لا أدري؟

_إذن كنت رفقة لقمان، هو صديقك المقرب هكذا!

– نعم يجلس معي في القسم. كنا ندخن سيجارة كما أخبرتك عندما سمعنا الصرخة.

– هل أنت متأكد أنكما كنتما في المرحاض ولم تكونا في مكان آخر؟

– نعم، وماذا تقصد بمكان آخر!

– لقد شوهدتما وأنتما تحاولان الفرار من فوق سور المدرسة الخلفي، هل اختلطت عليكما الخطة؟

سكت مروان لمدة وجيزة، غير من نبرة صوته وأجاب بثقة:

– حسنا أنت على حق نسبيا. لكن الحقيقة ليست مثلما تتوقعه.

_إذن ما هي الحقيقة؟

_ الحقيقة أن حصة الفرنسية هي حصة مملة وثقيلة لا تستهويني لا أنا ولا لقمان، لذلك قررنا الهروب كالعادة من السور الخلفي، لأن الباب الرئيسي مغلق حتّى الساعة الأخيرة من الدوام المدرسي، وحين وضعت رجلي على السور سمعنا الصرخة.

– لكنك الآن قلت أنكما كنتما في المرحاض حين سمعتما الصرخة، أنت متناقض في كلامك أنت لا تجيد الكذب ياسي مروان.

– نعم أعرف هذا لكن...

وصمت مروان. بعدها عرض المحقق مخططا أمامه على الطاولة.

– هذا مخطط قسمكم، أريني مكانك بالضبط ومكان جلوس المرحوم.

– هنا، أقعد أنا في الطاولة الأخيرة في الصف المقابل للباب، أمّا هو فيجلس في نفس الصف، بعدما غير مكانه، من الطاولة الأولى قرب المكتب رفقة أميمة.

– غير مكانه إذن؟

_نعم

_هذا خيط جيد، أخبرني منذ متى غير مكانه وما سبب ذلك في رأيك؟

– منذ أسبوع تقريبا، لا أدري السبب حقا.

– أنت تكذب مجددا، أتقصد أنه لا دخل لك في علاقة المرحوم بأميمة!

– ليس تماما، وهذه العلاقات لا تخصني، لكن ما دخل هذا في موته.

– لقمان صديقك، وبطبيعة الحال ستساعده إن احتاج لك أليس كذلك؟

– نعم هذا ما يفعله الأصدقاء لبعضهم.

– بالضبط! إذن أنظر في عيني الآن...أخبرني بصدق هل ستساعد لقمان في القتل لو كان ذلك في سبيل صداقتكم؟

ابتلع مروان ريقه وتعرق جبينه وأجاب بنبرة خافتة:

_لا.

_ وإن كنت مضطرا أوتحت التهديد هل ستفعل هذا؟

– هو صديقي حقا، لكن لا.

_لماذا؟

_ لأني لست قاتلا. بالرغم من الرابط الذي يجمعني به لن أفعل ذلك.

_هل تخفي عني شيئا ما يا مروان؟

_لا سيدي.

– هل عندك ما تضيفه!

– لا سيدي

الحج بعيد على صاحب الحمار

يا فتاح يا رزاق.

ها أنا قد وصلت السوق باكرا محتميا بظل الرب وظل إشارة الوقوف الحمراء في منعطف الطريق في مدخل السوق فوق رأسي، أمزق كرتونة، نصفها أفرشه على الارض أضع فوقه قفة المطلوع، ونصفها الآخر أطويه لأقعد عليه، أخرج المطلوع الساخن المغطى بقطع قماش حمراء وصفراء عليها بعض البلل المشكل من البخار المنبعث من المطلوع الساخن، قفتي تحمل عشرين مطلوعة، أضع دلو اللبن تحت ظل القفة حتّى لا يفسد، أختار المطلوعتين الأكبروالأجمل تلكما اللتان تحملان بعض الحمرة الجذابة وأعرضهما على سطح السلة، أحرص على أن تبقى وريقات "الدوم" ملتصقة بسطحهما، فذلك يضفي على المطلوع منظرا شهيا، حيث يبدو مطرزا بخيوط الدوم اليابسة.

السوق الشعبية تقع وسط المدينة، بمحاذاة أقدم المعالم المعمارية المشهورة والمميزة" مسجد الخضراء" المسجد الكبيرفي قلب ولاية عين الدفلى، الذي أخذ اسمه من لونه الأخضر، بعدما كان في الأصل كنيسة في حقبة الاستعمار الفرنسي ثمّ أعيد ترميه بطريقة إسلامية ليصبح مسجدا. رواد السوق من مختلف طبقات المجتمع، السوق مخصصة لبيع الخضاروالفواكه، تزدهر في هذا الشهر من العام بالتحديد، شهر رمضان حيث كما هو شهر عبادة هو شهر عمل والعمل عبادة، لهذا في شهر رمضان أبيع ثلاثة أضعاف ما أبيعه في باق الشهور، وعيشة المسكينة يشيب رأسها إذ في هذا الشهر تعمل مثل الآلة دون توقف حيث تحلب البقرة وتخض الشكوة دون أن ترتاح "الناس تطورت الآن أصبحت تملك آلات عاملة في المزارع تتكفل بحلب الأبقارومخض الحليب وأمي لا تزال تعتمد على ذراعيها لفعل كل شيء، هي الأم والأب" تحطب الأشجارفي الغابة لإشعال الكوشة، تعجن المطلوع، وتحضرلنا الإفطار البسيط.

في هذا الوقت تحديدا قبل الغروب بنحو ساعة، تكتظ السوق لآخرها، تسمع مختلف الأصوات:

"شاربات بوفاريك برد يا عطشان."

"أيا الهندي والهندي والماء والموس من عندي "

"أيا الدلاع، بطيخ، بطيخ"

تشم خليطا من الروائح تعبق السوق، رائحة أعشاب البقدونس، رائحة باعة البهارات، تمتزج هذه الروائح بالبخار المتصاعد من طناجر ربات البيوت في العمارات المجاورة.

ينتشر في رمضان باعة الحلويات التقليدية المخصصة لمثل هذا الشهر، مثل حلوى قلب اللوز أو الشامية كما يلقبها أهل الجنوب الزلابية، البقلاوة، القطايف، الشاربات، باعة السمك الجوالون وباعة أعشاب التتبيل، بعض السيارات تحاول العبور بصعوبة بين الناس، لأن السوق في الأصل هي عبارة عن طريق للسيارات يصطف على أرصفتها كل الكثير من الباعة لكل طريقته في الإشهار لسلعته.

– آيا مطلوع سخون مطلوع سخون!

– مطلوع محمر على حطب كندا.

مثلما ينادي بائع الشاربات، شاربات بوفاريك تيمنا بالمنطقة المشهورة بصناعتها لنوعية ممتازة من العصائر منذ القدم لاحتواء أراضيها على الحمضيات ذات الجودة.

و مثلما ينادي بائع التين الشوكي:

_هيا الهندي، الهندي والماء والموس من عندي.

أنادي أنا بطريقتي، بحيث أن لكل بائع طريقته للإشهار بسلعته، لا يهم أن تغني أو تهرج، المهم أن لا تبور سلعتك والأهم أن تبيع هنا.

– مطلوع كندي ولبن البقرة الضاحكة هنا، قرب يا عطشان...

رغم أن الإشهار مبالغ فيه، والناس تعرف هذا، إلا أنه نداء خاص بي، يجذب الناس بطريقة غريبة وحقوق التأليف محفوظة لصالح البائع، من طرف كبار باعة السوق هنا.

– مطلوع محمر على نار كندية...لبن البقرة الضاحكة سيدتي...كالسيوم طبيعي قوي عظام ابنك، يكبر ويرجع لك مالك.

– يالله يالله

– هاك عمي، أنظر إلى البخار سيدي. خارجة من الكوشة لتوها، تشهي!

– هاك هاك! قرب قرب!

أمامي على الرصيف المقابل رجل عجوز ذو لحية بيضاء طويلة بعباءة بيضاء مصفرة، محني الظهر يستند في وقفته على عصى خيزرانية، نظراته صوب الأرض، يرفع عصاه أمامه ليعبر الطريق ببطء وهيبة مغبرة، كأنه في وسط ساحة الوغى، يحمل رمحه ويصيح بالله عليكم ارحموني فأنا عبد مأمور، كلامه الخافت كأنه مصحوب بضجة الطبول والمنجنيق وهو يتسبب عرقا كالمغشي عليه أو كمثل من أصابه مس يتخبط بينهم كالهارب من السجن ورماح وسهام تلاحقه، يقطع الطريق ويمسك خبزة محروقة الجوانب أخذها من قفة عاشور. يصيح كشخص ينقب عن الذهب "كم ثمن هذه الخبزة؟ "فيرد عاشور بنبرة طفولية يشوبها بعض الخوف:

_" ضعها، ليست للبيع "

ليست للبيع جملة مسمومة ارتطمت بطبلة أذن العجوز وتلك الوحيدة قليلة السمع، كأنه أصيب بسهم قاتل يلاحقه كالصاروخ فيسقط فارغ الكفين يطأطئ رأسه ويحني ظهره ويتابع مشيته المميزة ببطء.

أناديه بصوت عال حتّى يسمعني.

_عمي المخفي...عمي المخفي...

ألوح له بيدي مشيرا ثمّ أغمد له خبزة مطلوع وأسلمها لها، يعلقها في طرف عصاه الخيزرانية وينصرف "المخفي "مناديا بعبارته المشهورة التي يعرفها الصغير والكبير في السوق:

_"ما يبقى في الواد غير حجاره."

_" ما يبقى في الواد غير حجاره "

ما أغرب هذا الرجل حين يقف أمامك تتعجن داخلك المشاعر، مشاعر الخوف والشفقة، الإعجاب والتعجب، الضعف والقوة..

المخفي، أسطورة زمانه، عمامته الصفراء ترمز للصمود والمقاومة، وعباءته الباهتة تلك ترمز للدين والأصالة، يا ترى كيف لرجل هزيل الجسم مثله أن يحمل رشاشا بطوله ويشن حرب عصابات ويرعب جيش فرنسا المدجج بطائراته ودبابته، بمكحلة وبغلة وعمامة ومطلوعة وكأس لبن. حتما إن لم تكن تحارب معه الجن كما حكى لي جدي، فهناك قوى علوية تنصره، وما هو إلى وسيلة لإعلاء كلمة الحق، يتركك المخفي حيرانا.

توجه نحوي عاشور كأنه يريد الاستفسار عن شيء ما.

– مطلوعة أريد أن أسألك.

– هل تريد أن أعطيك صرف العملة، أم اختلط عليك الحساب مجددا!

– لا لا، قل لي عندما لم أقدم الخبزة للحاج المخفي، قال لي جملة لم أعرف معناها.

_جملة!

_نعم.

_ماذا قال لك؟

_أظنه قال: "المذبوحة تطمع في المسلوخة".

_ههه

_لماذا تضحك هاه! أنا خائف يامطلوعة.

_من ماذا أنت خائف؟

_ من إن كان قد دعا علي بأن تبور سلعتي، فهو حافظ للستين ودعوته مقبولة.

– لا يا عاشور لا تخف، فهذا مثل قديم يتداوله الكبار، معناه أنك أسوء منه حالا وهو يطمع في أن يأخذ منك، أي أنك أنت المسلوخة وهو المذبوحة.

– هاااي، يا ربي تقصد أن الحاج المخفي يريد أن يذبحني، عرفتها من الأول، ذلك العجوز مجنون.. مجنون.

ثم انصرف عاشور مسرعا نحو مكانه حمل قفة المطلوعة وانصرف خائفًا.

عاشور أحد الفتية الأربعة هنا بجانبي، فتى في الرابعة عشر من العمر، في الصيف يبيع قوارير الماء البارد في محطات نقل المسافرين ويظل يحوم حول الحافلات تحت أشعة الشمس الحارقة مناديا "سعيدة باردة"، المسكين قد توقف عن الدراسة منذ سنوات، فبعد أن كان يعمل خلال العطل فقط، فضل التوقف تماما عن الدراسة ليتفرغ للعمل طوال السنة، وفي كل مرة يغير مجال تجارته، فمن التجول في الأسواق لبيع الأكياس وغيرها خلال الشتاء، يحول النشاط في الصيف إلى بيع المياه المعدنية الباردة التي يجني من خلالها 5 دج في القارورة الواحدة، وهو

مبلغ ليس بالهين بالنسبة له، فهو كفيل بتوفير قوت عائلة كاملة. ويبيع خبز الدار في رمضان.

أمّا الفتى بجنبه هو الهواري، فتى أسمر في عمر الثلاثة عشر رمضانا، قد التحق بعالم الشغل كبائع للأكياس البلاستيكية. وهي تجارة جيدة لمثل من هم في سنه وغالبا ما يدخل الناس السوق دون أن يلتفتوا إلى الأكياس التي يحملها الهواري في مدخل السوق، لكنهم يبحثون عنه بأنفسهم عند الخروج من السوق خاصة النساء اللواتي يحرصن على شراء "ساشي شباب" حكى لي الكثير من الطرائف مع السيدات، فمنهن من يناديها بأختي ومنهن من لا يتردد بمناداتها "أمي أو عمتي" فيرق قلبها نحوه. ويضيف أن الكثيرات يدفعن له قطعة 20 دج ويتنازلن عن الباقي عن طيب نفس وخاطر، وهناك من تعطف عليه وتمنحه قطعة نقدية خلسة وكأنها تخفي صدقتها حتّى لا تحرجه، خاصة في أوقات عصيبة كالبرد الشديد أو الحر.

مثله مثل ابن عمه الطاهر، والذي مازال يتمتع بنوع من الحياء في التعامل مع الزبائن كونه جديدا في الميدان، هو من بين الفتيان القلة اللذين ما زالوا يحافظون على العمل والدراسة، كثيرا ما أساعده في حل بعض المسائل الرياضية على حد علمي هو يدرس الخامسة ابتدائي ولا يبيع الأكياس إلا عند خروجه من المدرسة في عشية الإثنين والخميس لأنهما وقت راحة، كثيرا ما يأتيني خجولا يختبئ ورائي ويقول إنها آنستي، آنستي، ويقصد معلمته، خاصة وأنها غير راضية عن عمله هذا، وقد سبق وأن حذرت والدته من إرساله إلى السوق للعمل لأن هذا سيؤخره عن الدراسة، حسب ما أخبرني به، لكن الطاهر يؤكد لي دائما بأنه يحب المدرسة ولا ينوي مغادرة مقاعدها، لكن الفقر هو الذي دفع به إلى امتهان بيع الأكياس البلاستيكية التي يجلبها له والده كي يساعده في مصروف البيت، يقول أيضا أن والده يشتريها بالجملة وهي رخيصة بثمن الجملة، لكن التجزئة تجعل فيها ربحا وغالبا ما تفرح به والدته، خاصة في المناسبات وعلى رأسها شهر رمضان الأخير الذي عمل فيه وكسب جيدا ليس فقط في بيع الأكياس، بل "المطلوع" أيضا و"الديول" مثل جميع الفتية الآخرين الذين يأخذون هذه المهنة في هذا الشهر، رغم ذلك أنا أساعدهم في البيع ولا يزاحمونني أبدا لأني أبيع المطلوع طوال العام ولي زبائني الخاصون، يبيع الطاهر باجتهاد حتّى

يكسب بعض المدخول يشتري به ملابس عيد الفطر ويتفاخر بها بين أقرانه، أما عن أيام البرد والحر الشديد، فيقول الطاهر "والدتي تخاف على صحتي وترفض أن أعمل حين يسقط المطر، خاصة وأنني أعاني من الحساسية الصدرية والبرد والمطر يزيد حالتي سوءً.

الطاهر فتى هزيل ونحيف. لذلك هو عرضة للمضايقات في السوق وهذا العالم هنا مليء بالمجرمين، إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب والبائع الجديد مثله يتعرض إلى المضايقات حتّى لا يزاحم القدامى في عملهم، هذا من ناحية، كما أنه من ناحية أخرى معرض هو الآخر إلى السرقة عند نهاية اليوم أي عند استواء الغلة التي يجمعها ليعود بها إلى أهله. ويضيف الطاهر أن الباعة القدامى الذين يرفضون تواجده هم الذين تآمروا على سرقته عدة مرات في بداية التحاقه بالعمل في سوق الخضرة هنا، وذلك من أجل أن يسأم هذا العمل ويترك المكان، لكنه أصر على البقاء لأنه وجهة أهل كل المدينة هنا، ومصدر رزق لكثير من العائلات.

كما أخبرني الطاهر ذات مرة أنه يتمنى أن يكمل تعليمه ويجيد الحساب مثلي وألا يضيع في الشوارع كهؤلاء الذين يسكنون الأسواق منذ مطلع الفجر إلى أن تغرب الشمس، لهذا هم يكرهونه ولا يحتملونه، لأنهم يعلمون أنه متمسك بالمدرسة والتعليم وليس "ضائع".

ويعترف الطاهر أيضا وبراءة الأطفال في عينيه بأن النجاح في هذا العمل يتطلب أن يكون البائع حسن الكلام "ظريفا مثلك يا مطلوعة " حتّى يستعطف الزبائن، لكن للأسف أنا أعرف أن الدافع الأول لأغلب الزبائن للشراء منه هو الشفقة والعطف عليه وعلى غيره من الباعة الصغار وليس الحاجة الماسة لذلك الكيس البلاستيكي.

أمثال الهواري وعاشور والطاهر الذين لا يتعدون العشر سنوات كثيرون وتكتظ بهم الأسواق اليومية الفوضوية والنظامية في المدينة، فضلوا بيع الأكياس البلاستيكية على أي سلعة أخرى لأنها تضمن لهم الحركة بحرية تامة من مكان إلى آخر ومن سوق إلى سوق، كما أنها بضاعة وزنها خفيف وربحها معقول ولا تفسد أو يصيبها العطب، كل ذلك جعل من بيع الأكياس البلاستيكية مهنة أدمن عليها

العشرات من أطفال الأسر المعوزة والفقيرة، أو تلك التي تعاني من غياب المعيل بسبب اليتم أو الطلاق أو التفكك الأسري.

هؤلاء الأربعة زملائي في العمل كنت مثلهم ذات يوم ولا أزال، أعرف جيدا أنه رغم صغر سنهم، إلا أنهم حفظوا عن ظهر قلب أسعار المواد الغذائية وكلما ارتفعت أعلمهم بذلك وكأنهم المسؤولين عن البيت والميزانية. دائما ما يجلس الطاهر بجنبي ويقول لي "أنه يغار حينما يرى أولياء أصدقائه وأقربائه حريصين عليهم وعلى دراستهم، ورغم صغر سنهم أقسم على أنه لن ينجب أطفالا في المستقبل إلا إذا وفر لهم الإمكانيات لعيش كريم".

وأخبره أنّه على حقّ فالإنجاب قيمة سلبية عندما يكون الفرد فقيرا.. كما يقول جدي الفقر ينجب قتلة ومجرمين والمال ينجب طغاة متمردين.

***

إنّها فرصتي لأكمل كل خبزات المطلوع قبل أن يأتي "حميدة القط" يزاحمني بمطلوعه الصابح.

بعد لحظات سمعت صوتا رقيقا فوق رأسي:

– أعطني زوج!

دون أن أرفع رأسي

– حاضر

اخترت مطلوعتين من أسفل السلة، لففتهما داخل أوراق جريدة وضعتهما داخل الكيس، فعت رأسي ثمّ تجمدت مكاني!

–.....

قالت بصوت أنثوي لذيذ:

– بكم!

–.....

كررت سؤالها مبتسمة:

– بكم، بكم!

–.....

حين التقت نظراتي بنظراتها، غرقت وشلت حركة لساني وابتلعت ماء الجمال والفتنة. لم أستطع الكلام، غصت في الصمت داخل بحر عينيها.

– خمس، خم خم

– عفوا؟

– ستة آلاف.

سلمتني قطعة نقدية من فئة العشرة آلاف دينار، سلمتها الكيس، أمسكته ولمست أطراف أظافرها سطح يدي. شعرت بنقرة خفيفة. أشعلت فتيل مشاعري.

قالت وهي ترجع خصلة شعر فوق أذنها بحركة سحرية:

– احتفظ بالباقي.

– شك...شش.شكرا

ابتسمت وأنا أمضغ الحروف داخل فمي.

– الله يعينك

قالتها بابتسامة عريضة ووهج خفيف يلمع في عينيها. راقبتها حتّى ركبت في سيارة الجاكوار السوداء واختفت وسط الشارع. اقترب مني حميدة ووضع قفته جنبي.

– متى صار المطلوع يجذب الفراشات!

– هل تعرفها؟

– لا أول مرة، أراها هنا.

– لكن لماذا اشترت من عندي أنا بحد الذات والسوق ممتلئة بباعة المطلوع الآخرين.

تركتني وهذه اللماذا تحوم داخل رأسي.

قال حميدة مربتا على كتفي:

– يا صاحبي طار الحمام.

– أنت محق، أنا خواف!

– خواف! هل رأيتها! أراهنك أنها لم تتلق ضربة شمس في حياتها، ليست مثلك أنت، محروق من كل جهة... بني...صدئ..ههه.

– ههه...اسكت اسكت.

– لا تقلق يا صديقي.

– غير الجبال ما يتلقاو..ش "الجبال فقط لا تلتقي"

– جبل "دوي" أبدا لن يلتقي بجبل الهملايا يا مطلوعة صديقي.

– الدنيا صغيرة يا حميدة. وكل شيء بالمكتوب.

_إذن هذا النوع من البنات لسن مكتوبين للصعاليك أمثالنا، هوائهم وهوائنا ليس واحد. هم يروونا مجرد حشرات أو حيوانات أليفة لا مشاعر لها. ربما تحب قطا أليفا أو كلبا وتعطيه اسما وتحزن لمرضه ولن تحب صعلوكا مثلك أو مثلي باختصار الحج بعيد على صاحب الحمار.

_وأبعد لمن صاحبه حمار.

_ههه الحمار يعرف أخوه الحمار.

_ماذا تقصد ؟

***

شاردا في تفكيري وجالسا على أطلال روحي. أراقب مترددا تلك الفتاة الغريبة. لا أعلم كيف أنا أستغرق كل هذا الوقت غارقا في أدق تفاصيلها، أترجى أن تبادلني نظرة واحدة تكفيني. وقبل أن أقطف خيط حلم، تقطعه رائحة عطرها الفاخر وتعاكسني ألوان ثيابها الأنيقة والمطرزة بدقة، أنا أمامها أقترب منها أكثر.. أكثر.. ثمّ أمسكها من يدها الطرية أنقلها إلى عالم السحر، أنا وأنت والرب والشيطان أدنو همسا من شحمة أذنها الشهية أطارحها الحب وأصارحها السر وأريها العجب العجاب، أعترف لك أني فتنت بك لا أعرف كيف وما هذا الشعور لكن هكذا، لا أدري. نرمي الورود والحبق في الهواء وأعانقك وأشم رائحتك وآه الآه من عينيك.

و آح الآح من تلك الغمازتين إن أنت ابتسمت ملكت روحي وأشرقت شمس نهاري.

ورب ليلى ما صنعت من طين وصلصال من حمئ مسنون، سقطت من الجنة. لو ترون معي تلك الحركة التي تفعلها بعينيها عندما تفكر، كأنهما محارتان في زاوية من زوايا بحر لجي، أسهو كثيرا في أتفه تفاصيلها لا أدري أهذا جرم أم خطأ أم حج بعيد مثلما قال حميدة، حج مشاعر مرهق، لماذا تشاركل مشاعري اتجاه هذه البنت بالرغم من أني لم أكلمها ولم أجرأ على ذلك؟ لا أعرف ما تخبئه وتخفيه من أسرار

هي غامضة ككتاب مغبر من كتب جدي، أبقي هكذا لا تتغيري، يكفيني طيلة اليوم أحملك في مخيلتي وأضعك فوق وسادتي أداعبك قبل أن أنام وأقبلك أووه نعم أقبلك والموت يحلو لي بعد ذلك وأخبأك بين أضلعي وأغار عليك من أضلعي إن خدعتني وأسرتك وتركتني وحيدا.

تيك

تيك

تاك

تيك

تاك

أعود إلي، لتباغتني صفعة الواقع وأجدني أنا وحذائي الرث وثيابي القديمة وشعري الأشعث...من قرية بعيدة وعائلة فقيرة. أدون هذه المذكرات السخيفة. أكتب ما أشعر به بصراحة مطلقة أدون كيف كان يومي وأجدني عندما أصل لوصفها أملأ خمس صفحات دون أن أشعر، ثم أعود إلي مرة أخرى بصفعة أخرى من الواقع الذي يعارض كل أحلامي السخيفة البلهاء وحروفي الطرية الناعمة. كم من فتى يفكر مثلي وكم من أبناء الأثرياء يريدها. لطالما كنت فتى حالما...ولكن هذه المرة استغرقت كثيرا وجدتني أغرق في حلم بعيد. لنفترض أنها أمامي الآن ثمّ ماذا؟ هل لي الجرأة لأقابلها وأصارحها بمشاعري، ماذا لو قرأت مذكراتي هذه؟ ماذا ستقول وماذا سيكون رد فعلها. أطوي دفتر مذكراتي. أتنهد ثمّ الصورة تتضبب.

يرن جرس الخروج من المدرسة. أتتبعها، أتحاشى أن تلاحظ أني ورائها ألحقها حتّى الباب. غير بعيد أقف وسط الساحة متسمرا في مكاني، أرى السائق يفتح لها السائق الشخصي باب السيارة، تركب لا مبالية غير ملاحظة ما يحدث حولها. أراقبها حتّى تتبخر في وسط الشارع، تغرب وتغرب معها شمس نهاري، ثمّ وأنا شارد في ذلك الموقف أشعر بيد فوق كتفي تسحبني بقوة ثمّ...

***

أب أولادي

استلقيت على سريري الخشبي القصير لأرتطم بليلي الثقيل، عندي هذه المرة بما أقابلك يا ليل فتمطى، شمرت على ساقي، ودخلت قصر أفكاري، أين تنتظرني أميرتي المبجلة، لكن هل يليق أن أقابلها بهذه الملابس؟ حينها خطفت خيط فكرة وتذكرت ما قاله لي مروان في ساحة المدرسة، لكن من أين سأحضر المال! بعد تفكير طويل لاحت أمامي في الرف على الحائط بطاقة الرجل، وتذكرت عرضه.. قفزت من سريري حملت البطاقة بيد والهاتف بيد أخرى، أتصل أو لا أتصل! أتصل أو لا أتصل. بقيت مترددا بين عرض الرجل وكلام مروان بين وجه فتاة أحلامي ووجه بلوطة ثمّ غرقت في أفكاري.

كانت ليلة من الليالي البيضاء، القمر يتمدد في السماء والنجوم ترقص حوله، والريح هادئة كأنها تنتظر شيئا ما، ضوء القمر يتسرب من نافذتي ليلمس خده على طاولة من خشب فوقها بعض أقلام التلوين وممحاة وصحن فارغ، بجنبه قلة من الصلصال الأحمر. ضوء القمر يقتحم غرفتي من نافذة مفتوحة على الدوام. قفلها مكسور، على حافة النافذة قطة تجثم في سكون تبدو عيناها مشعة في الظلام. تنظر نحوي وأنا ممدد فوق السرير وهو يأن ويأن. ثيابي مرمية هنا وهناك. مثل غرفة سكير، فرشات أسناني فوق الرف بجانبها بعض الكتب، غرفتي ضيقة ثلاثة أمتار على ثلاثة أمتار، وارتفاع السقف حوالي المترين، تتدلى منه لمبة صفراء رخيصة تصدر ضوء أصفرا باهتا، الأرض إسمنتية باردة، لونها يشبه الجدران، خزانة زرقاء من حديد، أمامي في الجدار المقابل، لوحة بحار قديم أو كهل خشن الملامح أشيب الشعر حاد العينين على الحائط الآخر كومة من الكتب الصفراء القديمة والكثير من أوراق الرسم والرسومات.

كانت لي عادة سيئة وهي أن معظم الكتب التي أملكها إمّا قد سرقتها من مكتبة المدينة أو أعرتها من عند فارس صديقي، فعندما أكمل قراءتها أردها لرف مكتبة المدرسة، وبعض هذه الكتب لا أرجعها لأني تعلقت بها بشدة، الشخص الوحيد

الذي كان يفهم هذا الشعور هو فارس صديقي الذي كلما أعارني كتابا لا يطالبني بإرجاعه وعندما أرجعه الكتاب ينسى أنه أعارني إياه لكثرة ما يقرأ من كتب.

القطة لا تزال في مكانها عند النافذة، لم تتحرك. لولا عينيها المشعتين لحسبتها كيسا أسودا. الجو هادئ. أوركسترا الصراصير في شجرة الكاليتوس بجوار نافذتي، تضفي على الجو طابعا فنيا من الموسيقى الطبيعية الخفيفة التي تحمل الروح بنغماتها المتنوعة، وصرير الباب، قصيدة أخرى من قصائد ليلي الطويل السرمدي الأواه.

بعد لحظات من التأمل في باب قصري أحسست بيد دافئة تمسك يدي وصوت هادئ يقترب من أذني، لتملأ القشعريرة جميع أطراف جسدي. بنبرة ملائكية:

_انتظرتك كثيرا يا لقمان ولم تتقدم نحوي.

_ماذا تفعلين هنا؟

_ لا أدري حقا. ولكن كل ما أعرفه أنك ستذهب معي لنختار فستانا لعرسنا.

_عرس...

– ششششت لا تتكلم، هيا انهض واتبعني فقط.

شعرت بالدهشة وبالسعادة، غمرتني ابتسامة عريضة لا محل لها من الوصف، أمسكتني من يدي وركبنا في سيارتها. سرنا وتركنا الغبار ورائنا من الطريق الترابية يتطاير. وصلنا إلى المدينة. دخلنا أول امحل ملابس، بدأت أميمة باختيار الفساتين التي ستجربها وكان صاحب المحل شخصا أنيقا ويحسن الكلام، أميمة تجرب الفستان تلوى الآخر وتطلب رأيي، وبالرغم من أنني لا أفقه شيئا في الأمور النسوية إلا أنني أختار حسب معرفتي التشكيلية بالألوان. جربت في الأول فستانا أحمرا. ولما خرجت أمامي أدهشتني بجمالها كوردة أقحوان، ثمّ تدخل وتخرج ومجددا بفستان أبيض مطرز تطريزا عربيا قد ناسب قوامها الممشوق وخصرها المنحوت:

– آه آه...هل تتحدثين معي؟

– نعم ليس لدي ما أضيفه...كأنه صنع خصيصا لك.

– حقا!

– أنت من زدته جمالا.

– ماذا

– العصفور يزيد من جمال الشجرة أم الشجرة تزيد من جمال العصفور؟

– همم، العصفور ولكن...

– يعني أي فستان ترتدينه يناسبك لأنك أنت من تزيدنه جمالا.

احمرت وجنتاها خجلا وابتسمت ابتسامة عريضة:

– المهم أنه قد نال إعجابك... يا أب أولادي الجبان الذي تردد في أن يظهر حبه لأمهم.

ابتلعت ريقي وراء كلمة أب أولادي ونهضت من مكاني. توجهت نحو باب المحل حيث الدفع. بعد مدة قصيرة خرجت أميمة من حجرة تبديل الملابس في الزاوية المقابلة من المحل. أمسكتني من ذراعي وضغطت على أصابعي لتضع رأسها على كتفي أمام صاحب المحل، الذي كان يبادلنا ابتسامة شخص ينتظر أن يمسك الكثير من النقود:

– هل رأيت لم يتبق الكثير يا حبيبي، لم يتبق الكثير هذه أول خطوة فقط.

قالت هذه الجملة الأخيرة وما زادتني سوى رعبا وفزعا:

قام صاحب المحل بعملية حسابية بسيطة وبسرعة. وتذكرت أني قرأت لافتة

مكتوب عليها تخفيضات فخف قلقي نوعا ما...

ثم استرسل قائلا بلهجة غريبة لكنها تبدو جادة:

– سبعة ملايين وخمسين ألف.

رجت شفتي وأحسست بضيق في صدري:

– ومع التخفيض؟

– طبعا هذا الثمن مع التخفيض..

نظرت نحوي أميمة نظرة طفلة لأبيها. كنت أعرف أن جيبي فارغ وأني لو عملت أشهرا في بيع المطلوع والعمل عند السي جمال ما كنت لأوفر هذا المبلغ الكبير. طأطأت رأسي ونظرت نحو صاحب المحل الواقف بجدية وبابتسامة سمينة مصطنعة, نظرة فقير بائس نظرة منكسرة تقول أرجوك ارحمني ليس الآن...قل شيئا...هيا نبتعد قليلا لنتناقش في الأمر على انفراد.

بعد لحظات من الصمت، تغيرت ملامح صاحب المحل وظهرت تكشيرة من بين حاجبيه الطويلين العريضين ليستل من الدرج بيده اليمنى مسدسا ويصوبه نحو رأس أميمة. نظرة الغضب تعلو وجهه وأنفاسه الحارة تصل إلى وجهي، جحضت عيني واتسعت فتحة حلقي، سبابة إصبعه على الزناد مباشرة، لم أقو على الحراك، عصرت عيني طأطأت رأسي منكسرا، لأسمع صوتا قادما من بعيد.

_ لقمان، لقمان..

***

– لقمان. لقمان.. انهض يا وليدي، جدك يناديك، يحتاجك، قد خمرت من الرقاد.

– آه، آه توقف توقف...!

– بسم الله بسم الله، خيريا ولدي خير، هاك اشرب الماء...

– آههههه، آهه، اس...

– استغفروشهد، استغفر، من الشيطان. من الشيطان

استيقظت مرعوبا مفزوعا اللعاب يخرج من فمي والحمى الباردة تلسع جسدي، رقبتي تؤلمي، صداع في رأسي وغطاء سريري مرمي على الأرضية. النافذة لا تزال مفتوحة، الريح تفتحها ثمّ تغلقها. الباب تئن والقطة قد اختفت، الحلم يتكرر في رأسي. الساعة تشير إلى السابعة صباحا، لم أستطع النهوض كان فراشي دافئا، عدت لأستلقي على ظهري ووجهي يقابل الفتحة في السقف لأفكر في ذلك الكابوس..

ثم لوهلة سمعت صوتا يناديني من بعيد.

***

– أووه، أوففف.. وغد! لقد أفزعتني

– أنت في طريق الجنون! لم يبق لك الكثير

– أسكت، ليس وقتك الآن.

– ههههه. ما خطبك!

– حسنا. أخبرني ماذا نفعل لها؟

– من هي!

– ومن غيرها!

ثم قهقه مروان وهو يضرب يديه مع ركبتيه من الضحك.

– بهذه القشابية! وهذا الحذاء الغريب، سارة بنت القاضي ولن تنظر إليك.

– احترم نفسك إلا حذائي!

يحوم مروان حولي وسط الساحة مثل الثعبان، يتكلم ببطء ونبرة هادئة رزينة:

– المهم يا صديقي يلزمك أن تكون أنيقا، وحسن المظهر، هكذا لن تفعل شيئا... البنات ينجبن للفتى حسن المظهر أنيق الملبس.

– ما العمل إذن!

– صديقي لن أكذب عليك، يلزمك تحول شامل في شكلك. أنظر!

ثم هز حاجبيه وابتسم ابتسامة خبيثة وحك سبابته مع ابهامه بحركة ترمز للنقود..

– لماذا؟

– بدل اللوك يحبوك.

– ما معناها!

– سنشتري لك بعض الملابس الجديدة ونجري بعض التغييرات الجمالية

إذن أظهر دراهم المطلوع وأترك الباقي علي.

– إنه مطلوع وليس ذهبا.

_المهم فكروأنا هنا في أي وقت لمساعدتك صديقك مختص بأحدث صيحات

الموضة أنت تعرفني دون أن أخبرك. ثمّ تركني وسط الساحة وانصرف بمشيته المميزة كعارض أزياء. يباعد بين الخطوة والأخرى ويحرك رأسه بين كتفيه يسارا ويمينا.

استجواب

السيد طارق فاروق

***

– اجلبوا كرسيا أكبر"لمحمد علي[1] "هنا..

ثم رمى المحقق تفاحة لطارق.

_هاك أمسك! كل بعض التفاح فهو مفيد لصحة رياضي مثلك.

التقط طارق التفاحة ووضعها بجنبه، لكنه لم يقضم منها، ابتسم المحقق ومال نحو طارق بنظرة تنم على المكر:

_لا تخف هي ليست مسمومة.

سكت طارق ولم يرد:

_أخبروني أن لك ضربة يد يمنى قاتلة هل يخافك التلاميذ هنا من أجلها!

رد طارق بنبرة بطيئة وخشنة:

– كذبوا عليك إذن، يا سيدي أنا لا أضرب سوى داخل الحلبة، وخارجها انا مجرد تلميذ بسيط.

– تلميذ بسيط، تلميذ يتوعد بالقتل والترهيب في منتصف النهار في القسم!

– ماذا تقصد بيتوعد بالقتل؟

1 - ملاكم عالمي أمريكي مسلم مشهور

– طارق أنظر في عيني، هل ترى هذا الوجه؟ قد أدخل آلاف الرجال قبلك السجن، بعضهم لقي حتفه وبعضهم لا يزال يتعفن بين القضبان.

– وهل هذا ما تسميه "بالرجولة" في أن تحرم أشخاصا أبرياء من حريتهم؟

– حرية! هل تعلم معنى الحرية؟ الحرية عندما تتحدث بصدق دون أن تخشى لومة لائم، البريء الذي يكذب هو في نظري مجرم، يجب على القانون معاقبته، وإن كنت تريد أن لا تشاهد أصدقائك يفوزون بشهادة البكلوريا وأنت خلف القضبان تعض على أصابعك من الغيظ أخبرني، ماذا همست لإسحاق آخر مرة التقيته؟ فقد شاهدتكم أستاذة الفرنسية وأنت تهدده..

– أستاذة الفرنسية! لا شيء، فقط...

– طارق!

– حسنا لقد أمرته بالابتعاد عن أميمة!

– لماذا! ما علاقتك بأميمة!

– لا علاقة لي , فقط من أجل لقمان صديقي فهو يحبها، بل هو مجنون بها ولكن المرحوم وقف في طريقه لأنها برفقته.. لكن صدقني أني لم أقتله ولم أفكر سوى في تخويفه ليبتعد عنها من أجل لقمان.

– إذن هل تظن أن لقمان هو من قتله؟

– لا أعرف، لا أظن..صدقني أنا بريء...

– هل دخلت المكتبة اليوم؟

– لا لا لم أدخل هنا منذ مدة.

– أين كنت أثناء الحادثة؟

– في القسم.

–حسنا أنظر هذا مخطط القسم، أريني مقعدك ومع من تجلس؟

– هنا في الطاولة ما قبل الأخيرة في الصف المجاور للحائط أين الباب.

– ورائك من يجلس؟

– هنا لقمان وهنا مروان..

صمت الماحي لبرهة وحمل قلم رصاص وبدأ يسجل في مكان قعود التلاميذ في القسم.

– هل أستطيع الانصراف الآن؟

– لماذا؟ هل أنت قلق!

– لا سيدي ولكن عندي تدريبات رياضية يجب أن أحضرها في الوقت.

– هل تعلم أن هناك ضربة قوية وجهت لرأس الضحية ونحن لا نظن أن هناك أحدا غيرك بإمكانه تسديد تلك الضربة، ما هو تفسيرك لهذا!

في تلك اللحظة ظهر الطبيب يحمل كيسا أبيض شفافا داخله، يلهث ويعيد في كلامه:

– سيدي، سيدي !

– نعم تحدث ماذا كانت النتيجة؟

– حتما ستبهرك! لقد كانت شطيرة مسمومة!

– هاه، هل تقول مسمومة!

– نعم وهو سم منزلي رخيص يستخدم يستعمل عادة لقتل الفئران والقوارض.

– ياللغرابة، إذن لقد سمم المكتبي حتّى لا يحضر ويكون شاهدا على جريمة القتل وبذلك نستنتج أن القاتل قد خطط للجريمة من قبل جيدا وخطط لحساب كل صغيرة وكبير، وحتى ربما يكون قد نسج قصة تغلف القصة الحقيقة، وبذلك يكون قد تدرب جيدا على ما يقوله حين يخضع للاستجواب.

ثم نظر المحقق لطارق يعرض عليه السندويتش:

_هل تريد أن تتذوق قليلا يا طارق؟

– لا لا شكرا!

– أنت تحب الأكل أليس كذلك؟ ومن غيرك يعرف هذه الأمور والسموم التي تضر الجسد أخبرني؟

_سيدي أنا...

الحفلة المدرسية

أقيم حفل في الثانوية للمواهب الشابة، وكنت من بين الحاضرين لكن ليس بالمعنى الكلي فقد كانت تذكرة الدخول كفيلة بسد حاجيات يومي لمدة أسبوع كامل، لذلك تسللت خفية لأصعد فوق سور المدرسة الخلفي. رميت محفظتي فوق السور ثمّ تبتعها ليبدو لي مسرح المدرسة مكتظا إلى آخر صفوفه، في البداية تقدم فريق كرة القدم ثمّ نادي العزف "شاين" ثمّ فريق المسرح "المبدعون الصامتون" لتقديم مسرحية ثمّ بعد لحظات سلب انتباهي بفتاة صعدت على الخشبة بفستان أسود وتسريحة شعر ذيل الحصان، تحمل بيدها عودا أصيلا، جلست على الكرسي. وقربت الميكرفون منها وبدأت بعزف مثير، غيرت من وضعية جلوسي فوق السور لأراقبها جيدا وخشية أن أسقط لأني أعرف أني سأنسى بأني فوق سور. وقد بدأت بغناء تلك الأغنية بكل هدوء ورزانة:

الزوالي وفحل نموت

و مانحملش الذل

سقسي واسأل درب

و صحرا وزيد التل

في تلك اللحظة سارعت بتناول ورقة لأرسمها والعود بين أصابعها البيضاء الناعمة وهي في ذلك الجمال على خشبة المسرح. انطفأت كل أنوار المسرح في عيني وبقيت وحيدة كأنها تغني لي وحدي وأنا أمامها كالطفل أغرق في صوتها الشجي، تحملني نغمات أناملها على أوتار ذلك العود وليتني كنت العود وهناك أبقى ولا أعود.

غنت بأعذب صوت وأحلى طرب وبينما أنا غارق في رسمتي، أطير بأعذب لحن. سمعت صوتا خشنا:

– هاااااي أنت هناك، انزل إلى هنا، توقف مكانك!

أمسكني حارس المدرسة من رجلي، فأنفلت منه بأعجوبة ووقعت على الأرض خارج المدرسة، سقطت من يدي الرسمة في الداخل، أصبت بجرح في يدي. ثمّ هربت مسرعا وسط الظلام.

***

يقفز أمامي حلزون بحجم الكلب، يمسك في قرون استشعاره ملعقة وسكينا بنفسجي اليد، بجنبه ذبابة بحجم دجاجة برتقالية الريش كبيرة عارية الرقبة، عيناها شبكيتان جاحظتان بحجم فنجان قهوة، تحمل تحت جناحيها ذبابتين زرقاوين غليظتين سمينتين.

يتقدم الحلزون نحوي ببطء، تفرد الدجاجة جناحيها تخرج من تحتهما الذبابتان واحدة تبدو مصابة في جناحها الأيسر والأخرى مبتورة الجناحين. مثل دودة طائرة وعلى ظهرها الأزرق القاتم بقع حرق.

وفي الجدار أمامي رؤوس رجال تقطر بالدم، أنا غير قادر على الحراك، اشتممت رائحة القهوة، رائحة الدخان، تناهى إلى سمعي طنين ضربات جناح الذبابة يتصاعد، سمعت صوت خطوات يتقدم نحوي، رفعت عيني أمامي كأني أرفع قاطرة محراث، لمحت قدما تسحق الذبابة بكعبها. كادت تعفس الحلزون لكنه فر هاربا بسرعة نملة حمراء، رفعت رأسي لأرى صاحب الرجل.

صورة مضببة.

***

كل السر في التفاصيل

أنتظرها

إن جاءت بعد موعدها فأنتظرها

محمود درويش.

– لماذا لم تخبرني يا مطلوعة أنك ستحضر الحفلة رغم أني سألتك إن كنت ستأتي وأجبت بالنفي.

– نعم...لا...لم أكن مع الجمهور.

– كيف لم تكن مع الجمهور؟

– لا شيء

– همم، لكن الرسمة أعجبتها بل نهضت من مكانها وسألتني عمن رسمها.

– الرسمة...كيف!

– على مهلك، يجب عليك أن تشكرني أولا!

– أشكرك!

– نعم! سأحكي لك، اليوم صباحا كنت في إدارة المدرسة، من أجل حادثة سمير، أنا والمدير يعيد لي دروس الأخلاق، حتّى دخل علينا حميدة الثعلب، وفي يده رسمة وضعها أمام المدير، وأتبع كلامه متباهيا أمام المدير بإنجازه الكبير.

_ سيدي إن هذه الرسمة سقطت من يد لص كنت أطارده البارحة قرب الأمانة العامة أثناء الحفل. تعاركت معه وأوسعته ضربا هكذا "وبدأ يضرب في الهواء ويصف للمدير الضربات التي سددها للص".ثم..

قال المدير:

_ثم ماذا؟

_ثم غفلت عنه في رمشة عين ليفلت من يدي.

أتبع مروان:

– أبو كرش الكذاب، هو حتى ظله و يخاف منه. وبعدما رأيت الرسمة عرفت أنها من رسمك. لذلك تركت المدير حتّى يخرج مع الحارس يهنئه على عمله البطولي الوهمي، وخبأتها في محفظتي ثم...

– لكن أين الخبر المفرح هنا؟

– دعني أكمل، أخذت الرسمة ل...

ثم نظر مروان نحو الطاولة الأولى بجانب المكتب.

– لا أنت تمزح. لا تقل لي أنك...

– نعم نعم يا صديقي وقد أعجبتها كثيرا، وعندما أخبرتها أن صديقي هو من رسمها، فرحت كثيرا ورغبت في مقابلتك والتعرف عليك.

– مروان، انتظر، لم أفهم. هل تقصد تقابلني أنا!

– نعم أنت يا صديقي، ألم أقل لك أرينا دراهم المطلوع وأترك الباقي علي. هم رأس مالهم المال ونحن رأس مالنا الكلمة.

– لا أدري، ولكن..

وضع مروان يده على كتفي:

– وأزيدك على هذا، رتبت لكما موعدا الأسبوع القادم.

– وهل أخبرتها أنني صاحب الرسمة!

– لا لا طبعا، ليس قبل أن نحسن من مظهرك، فأول انطباع هو من يعلق في الذهن.

– لا أعلم ما أقوله لك!

– المهم عندك يومين في يدك، موعدنا مع الافتتاح الجديد لمحلات المنور للملابس، سيضع تخفيضات على السلعة وستكون فرصتنا.

– كم يلزمنا؟

_.....

***

– آلو!

– نعم!

– عمي جمال أنا لقمان.

– لقمان؟ آه حسنا تذكرتك.

– لقد فكرت في عرضك وأنا موافق..

– جميل أحسن ما فعلت.

– لكن، بشرط!

***

القيت السي جمال وطلبت منه دفعة مسبقة عن راتبي الشهري.

– كم تريد!

– ثلاث ملايين

– وماذا تريد أن تفعل بهذا المبلغ!

– أحتاجه سيدي!

– يجب أن أعرف أين يذهب مالي! عليك أن تصارحني لكي تكون الثقة متبادلة بيننا في العمل وإلا.

– حسنا في المدرسة قد...

***

– إذن هذه هي الحكاية!

– نعم سيدي.

– بدأت تعجبني يا فتى وتذكرني بشبابي.

– سأعطيك المبلغ لكن بشرطين!

– نعم

– الشرط الأول. غدا عليك أن تباشر العمل في مقهى بن هاشمي فهو ملكي الآن وأحتاج إلى عامل أستطيع أن أثق فيه.

– والشرط الثاني!

– اقترب! "ثم همسني في أذني"

ابتسم وغمزني، ثمّ رحل وتركني وفي يدي أربعة ملايين.

***

– مرحبا أنا لقمان

–.....

– نعم. أنا زميلك في القسم

–.....

– أعرف. أنت من وهران أليس كذلك، تعجبني لهجتكم على فكرة.

–.....

– نعم أنا أرسم من حين لآخر، أنا أحب الفن، أرسم الأشياء الجميلة، أرسم فقط التي تعجبني وأميل إليها وخاصة إن كانت ذات عينين ساحرتين وضحكة فاتنة و...أوففففففف

***

– مرحبا أنا لقمان

–.....

– نعم أنا زميلك في القسم

–.....

– أعرف وأنت من وهران، تعجبني لهجتكم على فكرة.

–......

– نعم نعم أرسم من حين لآخر، أنا أحب الفن، أرسم الأشياء الجميلة، أرسم فقط التي تعجبني وأميل إليها وخاصة إن كانت ذات عينين ساحرتين. وضح...... أوووووووه

***

– يا لقمان!

– نعم أمي!

– مع من تتحدث؟

– لا أحد! تعالي أحتاجك.

– أدخلي الباب مفتوح

– الله على ولدي الغزال، الله على الأناقة والجمال.. ما كل هذا؟

– شكرا أمي، هل تعرفين كيف تربطين هذا الشيء، قد مضت ساعة وأنا أعلكها على رقبتي لكن لم تثبت، هلا ساعدتني.

–طبعا عزيزي.

أمسكت أمي ربطة عنقي، وراحت تثبتها خلف ظهري، وانعكاس صورتي وأمي ورائي على المرآة الطويلة. همست في أذني بنبرة ناعمة:

–منذ ختانك لم أرك ببذلة أنيقة مثل هذه، من أين لك بها؟

–لا يهم أمي، لقد استعرتها، المهم أن ابنك أنيق.

–يا ترى أي موعد يستحق كل هذا الترتيب والاهتمام.

–لا شيء مهم فقط من أجل الصورة المدرسية لقسم التخرج..

–ومن هي سعيدة الحظ التي ستصورك!

– أمي.....

ثم عانقتني أمي من الخلف، استدرت، قبلتها على جبهتها وخرجت من المنزل

***

ربطة عنق بيضاء غريبة، بذلة سوداء أنيقة، حذاء كلاسيكي أسود، شعر لماع مسرح للخلف، كنت أشعر ببعض الضيق حول رقبتي أنا مضغوط داخل هذه البذلة الجديدة، كأنني مربوط بسلك في الكرسي الخشبي تحتي، أحس بالحر والضيق، نبضات قلبي تتسارع، إبطي يتعرق، راحة يدي تتعرق، جبهتي تسيل، الكرسي فارغ أمامي وصوت الشاب حسني يصدح في المقهى، بعد لحظات من الانتظار تقترب مني النادلة بتنورتها القصيرة والصينية تلمع في يدها، تعرض علي إن كنت أريد شيئا ما! لأخبرها أني في انتظار أحدهم وسآخذ بطلبها عندما يحظر.

كانت كل الطاولات في المقهى من الخشب، على بعد أربع طاولات فتى أسمر طويل القامة يدخن النرجيلة وبجنبه فتاة سمينة تضع على وجهها الكثير من مساحيق التجميل، وتثرثر كثيرا، الفتى الأسمر يبدو أنه غير منصت لحديثها، على طاولتهما قارورة كوكا كولا وعلبتين من الدخان وقداحة.

على طاولتي كأس شاي بردت، تقابلني على الجانب المقابل من سطح طاولتي ذبابة ممتلئة، تنظر نحوي بعينين زرقاوين وجناحين لامعين، تحرك رأسها ببطء

وتقترب مني بساقيها النحيفتين، كأنها تحاول التذكر أين رأتني من قبل، أنا هو نعم، هل قتلت لك زوجك أم ابنتك، آه كم اشتهي سحقك على الطاولة، "هوايتي الثانية بعد الرسم هي صيد الذباب" لكن أنت محظوظة حقا. زادت ضربات جناح الذبابة من توتري، أعد أنفاسي، أنتظر، أنظر إلى ساعتي الجديدة هي تشير إلى السابعة مساء، والموعد كان على الساعة السادسة والنصف. لا يزال الفتى الأسمر يطاوعني بنظرات مريبة، ماذا يريد مني يا ترى! النادلة تطوف حولي، والذبابة تستفزني.

بعد عشرين رفة من جناح الذبابة، تيبست مكاني في الزاوية ابتلعت ريقي لما ظهرت بين الطاولات بثوبها الأبيض القصير وحقيبة يدها الصغيرة ونظاراتها السوداء، كانت تبدو في أتم جمالها، برفقتها شاب أشقر بعينين زرقاوين، يبدو وجهه لي مألوفا، يرتدي بذلة زرقاء أنيقة يلوح بيده بمفتاح سيارة. كانت هي كالبدر في طلته.

ألقت علي التحية وابتسمت وظهرت غمازتيها، التي كادت أن تغرقني داخلهما، هي جلست ومشاعري نهضت، والشاب رفقتها ذهب ليحضر كرسيا.

– أميمة.

ومدت يدها لتصافحني

_لقمان "كدت أقول مطلوعة. لكني انتبهت لنفسي"

_لقمان يبدو وجهك مألوف، أين التقينا من قبل؟

– لا أدري الدنيا كبيرة "و أنا أدعوا الله أن لا تتذكر أني بعتها مطلوعتين في السوق"

–إذن نحن ندرس في نفس القسم.

–نعم أنا أجلس في الطاولة الأخيرة رفقة مروان..

– مروان. نعم، "كأنها تتذكر ذلك المنسي الذي يقعد بجانب مروان".

–المهم اعذرني على التأخر، أنت تعرف الازدحام و الانشغالات.

– عادي "وأنا قلبي يلهث، قلبي سيقفز من صدري"

–لكن صدقني أني انبهرت لما رأيت رسمتك، ولم أتوقع أبدا أن تملك موهبة مثل هذه. كنت أرى مثل تلك الرسمات فقط في المتاحف التي يأخذني أبي لزيارتها في العاصمة. فأنا أعشق الفن التشكيلي على فكرة وأبي كذلك وهو كذلك.

–شكرا.."أسمع دقات قلبي تزيد. بووم...بوم....بووووم"

_ طبعا يسرني أن أتعرف عليك، وعلى موهبتك!

ثم أخرجت الرسمة من حقيبة يدها، وبرفقتها قلم رصاص، وضعتها على الطاولة.

–حقيقة يا لقمان لا أعرف ما لغريب في هذه الرسمة لكن فيها شيئا ما يخصني. مثل طاقة روحية لا أدري كيف أشرح لك. فيها بعض التفاصيل التي أعجز عن وصفها.

- كل السر في التفاصيل.
- أعجبتني الجملة.

بعد لحظات قعد الشاب الذي حضر معها، اندهش لما رآني وتمالكت نفسي لما رأيته ولعبنا دور غريبين يلتقيان أول مرة أمام أميمة، صافحني متصنعا ابتسامة صفراء أمامها. وضع الكرسي وجلس معنا اكتفينا بالصمت بعدما راح يرمقني بنظرات استحقار غير مريحة وهو يلوك علكة في فمه، بقيت أتساؤل مالذي أحضر هذا الوغد إلى هنا وما علاقته بأميمة ؟ ثمّ سألتني بصوت رقيق وهادئ.

–لم تخبرني يا لقمان لماذا لم تكمل الرسمة؟

سكت ولم أرد أن أخبرها بالقصة الخلفية.

–حسنا، أنا أعلم أن لكل فنان هواه، لكن يسعدني لو أكملتها من أجلي لأضعها في إطار وأعلقها على جدار غرفتي.

ناولتني الرسمة ورفقتها قلم رصاص ولما وضعت القلم على الورقة. نطقت قائلة:

– يالي من حمقاء. قد نسيت أن أعرفك بإسحاق.

رفعت رأسي لأراه يبتسم ابتسامة تخفي ورائها خبثا وغطرسة.

–اسحاق هذا لقمان يدرس معي في نفس القسم.

_لقمان هذا إسحاق خطيبي.

ابتسم إسحاق ابتسامة شيطانية طويلة، كأنه كان في انتظار أن تقول هذه الجملة.

بعد سماعي لآخر ما قالته شلت حركة يدي وأحسست أن قلبي قد سقط بين ساقي. وضعت القلم من يدي، أرجعت لها الرسمة، سحقت الذبابة على الطاولة وخرجت من المقهى مسرعا وأنا أطارد مشاعري وأنفاسي وأفك في ربطة العنق السخيفة.

نار الجن

بعد المغرب تسللنا داخل المزرعة أنا وسمير الفار، دخلنا البناية الكبيرة التي المخصصة لمبيت الحيوانات، استلقينا على بعض القش قرب حائط يتآكل جلده، أخرجنا علبة غراء وكيس حليب، أفرغنا الغراء داخل الكيس، نظر نحوي سمير، وأخرج علبة كبريت من جيبه، كانت تلك الليلة من أصعب الليالي علينا، حيث كان سمير مطرودا من المنزل لأن أبوه الإمام وجد في جيبه سيجارة دخان. وأنا قلبي خائب وأحلامي مقهورة. دخلنا المزرعة عازمين على أن ننسى كل شيء، أشعل سمير الغراء داخل كيس الحليب رمى عود الثقاب، وأغلق الكيس على الغراء حتّى تنطفئ النار ويتفاعل الغراء مع الحرارة "أذكر أن هذا السؤال الوحيد الذي أجاب عنه سمير في حصة الكيمياء، ماهي العوامل المساهمة في زيادة سرعة التفاعل؟".

سلمني سمير الكيس ساخنا، أقحمت رأسي داخله واستنشقت الغراء، أول نفس أحسست به يخترق عروق أنفي ليحدث شرارة داخل أعصاب مخي. كانت الأصوات تتناطح داخل رأسي، بعدها حشر سمير رأسه داخل آلة الزمن ثمّ رفع يده في الهواء وتلك الإشارة مفهومة بيننا، حيث هي مقياس على مدى وعي" المباتكسي" قربك، إذ كلما نزلت يده نحو الأرض كلما غاب عن الوعي أكثر، التفت ببطء نحو سمير وجدته مصروعا، وكان يبدو بعيدا.. غائصا. يده تكاد تبلغ الأرض، خطفت كيس الحليب من يده. نظر إلي وهو يحك أنفه، عيناه مرتخيتان ذابلتان كتينتين مجففتين، وجفناه نازلين.

أقحمت رأسي وأنفي داخل كيس الحليب، رفعت يدي وبدأت بالغرق، عصرت عيني مقاوما الرائحة المدوخة. شعرت برأسي يدور كزوبعة صغيرة. وداخل أذني صوت مستمر زننننننننننننننننننننننننن. زنننننننننن

كصوت صفعة ضخمة مباشرة على أذنك، أو انفجار قنبلة أمام وجهك. رأسي يدور وسمعي يتلقف أصواتا غريبة مختلطة لا أكاد أبين، صراخ، صياح، صوت

منشار، عويل امرأة، بكاء رضيع، أذان صلاة، تلاوة قرآن، محرك توليد الكهرباء في المزارع، الله أكبرالله أكبر، أهدر، قر، وين راهم صحابك، تفووووه...

salaud, merde، هاي، هاي، هاي، خطفتني الأرض تتحرك، نحو كل الجهات، الأبقار تزقزق، الجمال تطير، الجدران تسيل، أنفي يطول مثل مكنسة. أتلمس تحت يدي على الأرض أعواد التبن، عرقي بارد، قات قلبي تتعالى، رأيت في ما يرى "المباتاكسي"، يقفز أمامي حلزون بحجم الكلب، يمسك في قرون استشعاره ملعقة وسكينا بنفسجي اليد، بجنبه ذبابة بحجم دجاجة عرب كبيرة عارية الرقبة، عيونها الشبكية جاحظة بحجم فنجان قهوة، تحمل تحت جناحيها ذبابتين زرقاوين غليظتين سمينتين.

يتقدم الحلزون نحوي ببطء، تفرد الدجاجة جناحيها تخرج من تحتهما الذبابتان، واحدة تبدو مصابة في جناحها الأيسر والأخرى مبتورة الجناحين. مثل دودة طائرة وعلى ظهرها الأزرق القاتم بقع حرق.

وفي الجدار أمامي رؤوس رجال تقطر بالدم، أنا غير قادر على الحراك، اشتم رائحة القهوة ممتزجة برائحة الدخان، ويتناهى إلى سمعي طنين ضربات جناح الذبابة يتصاعد، أسمع صوت خطوات يتقدم نحوي، أرفع عيني أمامي كأني أرفع قاطرة محراث فألمح قدما تسحق الذبابة بكعبها. تكاد تعفس الحلزون لكنه يفر هاربا بسرعة نملة حمراء، أرفع رأسي مجددا لأرى صاحب القدم ثم....

صورة مضببة و أعود للغرق...

قشة التبن ترقص، رأسها يشتعل، الكيس يرن في يدي، صورة البقرة على كيس الحليب تتحرك و تضحك معي، أبادلها الضحكات.

تظهر لي قرون من الكيس، ثمّ عينان كبيرتان ثمّ حوافر، ثمّ تخرج بقرة أمامي. كأنها تشبه "زبيدة"، ترقص مع القشة المشتعلة. أنظر داخل كيس الحليب، يظهر قعره بعيدا. أبعد من قعر جب. أصابعي تبدو طويلة مثل سيقان قصب الماء. أنظر

نحو سمير أجده من دون رأس، رأسه بين يديه يكوره ثمّ يركله برجله ليرتطم بالحائط، ثمّ تهرب رجلاه لتتبع رأسه، يبتلعهما الحائط، القشة تخفت من وتيرة رقصها تكاد تنطفئ. زبيدة تواصل رقصتها كسيدة في عرس ابنتها الوحيدة.

المشهد يتضبب أمامي ببطء، لعابي يسيل بخط غير متقطع. أشعر بخدر على قفى رقبتي. حلقي جاف متجمد، كل الأشياء تتحرك أمامي بالعرض البطيء، كل الأشياء تتداعي. أشعر أني أطفو في الهواء، أرى من بعيدٍ نارا عظيمة، ثمّ يدا ناعمة تشدني من رأسي وتسحبني نحوها وأنا أقاوم وأقاوم، لا أكاد أدرك وأعي.

في معصم تلك اليد أبصرت قلادتي المفقودة. والنار عجيبة تزداد اشتعالا، تقترب مني أكثر.

تسحبني اليد من شعري وتجرني نحو الحلزون في الخارج، يقترب مني الحلزون الكبير بغضب، يضع مزلجته الرخوة على وجهي، لعابه يسيل فوقي وأنا أتخبط على الأرض...

***

استيقظت مفزوعا وفوقي "بارجي" يلعقني بلسانه، في رأسي صداع رهيب وآثار سلخ على فخذي، طعم مر تحت لساني، مثل طعم المعدن.

–صباح الخير أمي!

–صباح الخير ولدي البارحة أين كنت ؟ لم تدخل باكرا.

–كنت مع.....

–أنا أعرفك يا بني! شممت رائحة الدخان في فراشك و..

–دخان!

–لا يا أمي!

–نعم وأعرف أيضا أن شخصا بقواه العقلية، لا يقول أمي أفرشي لي لأتعشى.

– أمي لا تشغلي بالك، الوقت على المدرسة...

ثم تركت أمي غاضبة مني، قبلت رأسها، وضعت محفظتي على ظهري وانصرفت.

***

–صباح الخير مروان!

–صباح الخير ما بها ذراعك! خيرا إن شاء الله؟

_لا أمر مهم! سقطت من شجرة الخروب!

–الخروب! قل لي هل سمعت الأخبار؟

_أي أخبار؟

–نحن نسكن في قرية صغيرة والأخبار تمشي أسرع من النار في القش

–أي أخبار؟

–البارحة في المزرعة اندلع حريق كبير.

–حريق في الليل! سم.ير، النا..ر، البطاك....س.

–ما لذي تهمس به يا لقمان!

–لا شيء، لا شيء! ومن أخبرك بحادثة الحريق!

–كيف من أخبرني، القرية كلها تتحدث، ولولا تتدخل السكان هناك، وإطفائهم للنار العجيبة لكانت قد حصلت كارثة والتهمت النار كل القرية.

–نارعجيبة؟

–نعم، بشهادة القرويين هناك، أن المزرعة مسكونة، والنارليست نارا عادية، هي نارجن، الله يحفظ ويستر...

–نارجن!

–إيه، يقولون أن الجن أشعلتها، بشهادة أحد القريبين من المزرعة. يقول أنه سمع صراخا في الداخل وخرج له من وسط الدخان الكثيف رجلان يمشيان بطريقة غريبة لهرب مسرعا، وكل محاولات إخماد النارباءت بالفشل، حتّى جاءوا بذاك "المخفي".

–الشيخ "المخفي "!

–نعم هو ذا. بصوت مؤذن قرأ القرآن داخل صهريج ماء كبيرلمحراث أحد المزارعين، وسبحان الله لما رشوه على النار انطفأت فجأة!

–أأااوهل... هك....ذا...

–إيه، كما أقول لك! ألم تسمع بهذا البارحة؟

–لا، أنا أسمع من عندك الآن.

–هل كنت تحت الأرض؟

–بل أسوء، كنت لا أعرف حتى أين الأرض؟

– ماذا تقصد؟

–لا شيء، لا تشغل بالك في هذا.

–أمرك غريب.

-المهم نسيت أن أخبرك في المساء هناك اجتماع خاص.

-اجتماع خاص!

-تعال في المساء ستفهم.

***

اجتماع الخمسة

دق جرس الراحة المدرسي، الساعة في يدي كانت تشير للرابعة مساء. في جانب الساحة يقف أربعة فتية، لا يشبهون بعضهم يقلبون أطراف الحديث، أتقدم وسطهم أحييهم..

– يسرني حضوركم هنا كالعادة لم تخيبوني، المهم بدون إطالة عليكم، أدخل لكم في المفيد مباشرة...عندي مهمة لكم لكن لا أعرف كيف أشرح لكم الأمر..

بعدما صمت لوهلة، خطف مني مروان الكلام.

–أنتم تعرفون تلك البنت الجديدة؟

–هل تقصد تلك الشقراء؟ "نطق فارس وهو يمسح نظاراته بطرف من قميصه"

–نعم هل تعرفها؟

–سمعتهم يتحدثون عنها فقط!

تكلم طارق بنبرة خشنة:

–بنت جديدة! كم مضى على قدومها المدرسة؟

رد مروان:

–أسبوعين

أضاف سمير بنبرة مبحوحة وهو يقلب ولاعته بين أصابعه:

– وماهي حكايتها!

رد مروان وهو يدخل وسط الحلقة:

–أعجبته، يكاد يجن بها،كل يوم يتحدث عنها صباحا ومساء لقد ملأ رأسي بها.

طارق بنصف ابتسامة وهو يهز لقمان:

–آه يا مطلوعة، أنت تعشق، لم أكن أعلم أنك أصبحت طريا.

ثم يضيف سمير مبتسما ابتسامة عريضة!

– غريب مر أسبوعان ولم تتقدم لها. لم أكن أظنك جبان لهذا الحد. في عادتك أن تتقدم من دون تردد وهذا البارحة فقط في المزرعة.

نطق مروان مقاطعا سمير.

_المزرعة!

غمز لقمان سمير حتّى يبلع لسانه:

_لا شيء. فقط أعرف أن مطلوعة ليس جبانا وهو أو من أدخلنا إلى مزرعة الحركي التي يخشاها الجميع. ألا تذكرون ذلك؟

ثم ألتفت لقمان ليرى أميمة في الساحة رفقة سارة:

بنبرة همس الآخرين:

_من دون أن تثيروا الانتباه التفتوا بالواحد. هي هناك قرب المكتبة. مع ثلاثة بنات هي التي تحمل بيدها مصنف أوراق أزرق، الطويلة ذات الشعر الأشقر.

ثم التفت الأربعة في آن واحد.

–ليس هكذا يا حمقى لقد كشفتمونا.

بعدها أمسكني سمير من ذراعي وراح يدفعني لأذهب نحوها.

–اذهب نحوها مباشرة هيا... النساء تحب رجلا شجاعا.

ثم أضاف فارس بنبرة هادئة وهو يعدل من نظارته الطبية حول عينيه ويدفعها باتجاه جهته بحركة مميزة:

_إن أصعب خطوة هي الخطوة الأولى، حيث تكسر حاجز الخوف، وأنت لست غريب عنها لأنك زميلها في القسم هذا في صالحك هذا هو رأس الخيط ومربط الفرس، توجه نحوها وافتح الحوار معها بأمور الدراسة، أخبرها مثلا أنك لم تكمل الدرس أو أنك لم تفهم الدرس الأخير جيدا ومن الدراسة ستفتح الكثير من المواضيع الأخرى، أنصت لها جيدا فقط.

ثم قاطعه سمير:

–اسمع صديقي هذه الطريقة يفعلها شخص له خبرة وتجربة وليس من خبرته شبه معدومة، وعندما تقابلها ستبدأ بالتلعثم وتبلع لسانك ولن تصلح معك الطريقة، لذلك عندي الحل لك. خذ نصيحة مجرب ولا تأخذ نصيحة طبيب.

–لكن...

–ششش...دعني أكمل يا روميو، عندي الحل!

–لكن. هناك شيء لا تعرفونه.

_ما هو؟

_في الحقيقة قد قابلتها منذ يومين. ومروان هو ل..

تكلم مروان:

_نعم كنت في مكتب المدير ووجدت رسمة مطلوعة ف...

ثم سرد لهم مروان الحكاية من أولها لآخرها.

–بعد ذلك رتبت له موعدا معها. ولكنه لم يخبرني كيف صارت الأمور ولا أعلم لماذا؟

يصمت الجميع وهم ينظرون إلى لقمان ينتظرون منه أن يفسرلهم الأمر:

_إنها مخطوبة.

نطق الجميع بصوت واحد:

_مخطوبة!

_نعم مخطوبة لذلك جمعتكم اليوم في خصوص هذا الأمرومن أجل أن نجد حلا.

رد مروان مستغربا:

_من يكون خطيبها؟

–إسحاق.

–هل تقصد إسحاق ولد مرصلي؟

–نعم هو ذاك.

فارس بنبرة خافتة:

_الآن أصبحت القصة مشوقة أكثر.

طارق وهو يضغط على معصم يده:

–قل لنا من الأول هو ذلك الوغد المدلل!

سمير مبتسما:

_اذهب اذهب نحوها مباشرة وقلها اجعلني حبيبك الثاني ونتفاهم على الإيقاع بحبيبك الأول. ههههه.

ثم نظر فارس نحو سمير بنبرة جدية.

–أسكت أنت، ليس وقت مزاحك الثقيل، أنت لا تفهم مثل هذه الأمور. أنت لا تعرف شعور الحب. طول اليوم فاقد للوعي. مزطول، مصروع. دائخ. كل همك رأسك. لا تفقه في المشاعر.

ثم تقدم سمير نحو فارس يدفعه بذراعه.

– اسمعوا من يتكلم، أرسطو الفاشل في العلاقات، غريب الأطوار، هل تريد مني أن أحكي لهم القصة.. آه قل....هيا تحدث! هل تحسب أن الحب الذي تقرأ عنه في تلك الروايات السخيفة التي تطالعها كل يوم موجود في الواقع. قل لي. وكيف لملحد أن يؤمن بالمشاعر أصلا!

–إن كنت تراني ملحدا. فنعم أنا ملحد.. ملحد بالرب الصغير الموجود في رؤوسكم. وإن كنت تريد أن تكشف القصص فلكل منا قصته حتى قصة الحاج عدة و...

_إياك وأن تذكر أبي على لسانك مجددا أيها...

وأمسك سمير فارس من فتحة عنق قميصه والغضب يتطاير من وجهه، ليتدخل طارق ويفصل بينهما. ويقول مروان:

– هاي. توقفوا ليس وقت الدخول في هذا الحوار. دعونا نركز في موضوعنا و نسمع ما يقوله مطلوعة.

يتنهد مطلوعة بعمق ويتكلم بنبرة خافتة:

– يا جماعة نحن نعرف بعضنا منذ أن كنا صغارا وأنتم تعرفون أن الحياة التي عشتها لم تترك لي وقتا لأحب أو أصاحب فتاة. لكن لا أعرف كيف ومن أين! منذ أن رأيتها في السوق وبعتها خبزة المطلوع وأنا أفكر فيها كل وقت، لم أكن أظن أني سألتقيها مرة أخرى بعد أول لقاء جمع بيننا، هي لا تتذكرني حتى. ولكني لم أستطع إخراج تفاصيلها من رأسي.

رد فارس وهو ينظر نحو السماء:

_ جاءت معذبتي في غياهب الغسق

كأنها الكوكب الدري في الأفق

طارق وهو يكسر أصابع يده.

– هذا الإسحاق، سأسحق ضلوعه، أو ربما لدي فكرة لماذا، لا نهدّده حتّى ينفصل عنها. سأتصرّف في الأمر.

قاطعه فارس:

– لكن كيف، هل ستمسكه وتجبره على كره الفتاة، ربما يكون يحبها، أو ربما تكون هي من تحبه. وكيف تستطيع أن تمسكه وهو يظل تحت حماية "السوكو" وجماعته من أقذر الصراصير!

مروان بنبرة هادئة وواثقة:

–لا أظن أنها تحبه. وسنجد حلا لهذا الاسحاق. وسنضع حدا لتطاوله علينا كل هذه الأعوام. عصفورين بطارق واحد.

رد طارق:

_طارق...مابه طارق !

ضحك فارس ولم يفهم طارق.

ثم فارس بسؤال لمروان:

_ وأنت كيف عرفت أنها لا تحبه؟

–عندما سألتها أثناء ما أريتها الرسمة، إن كانت ستأتي مع أحدهم أثناء اللقاء، أخبرتني أنها ستأتي لوحدها، حيث لم يرد في حديثها أنها ستطلع إسحاق بالموعد.

فارس:

_إذن هنا الثغرة.

لقمان:

–ما هو الحل برأيكم؟

ثم صمت الجميع لبرهة بعدها استرسل فارس في كلامه وهو يدفع نظاراته الطبية المربعة "نظارات شمسية أنيقة ذات زجاج طبي شفاف" ثبتها بين حاجبيه الكثيفين بإبهامه بحركة مميزة:

–اذا بقيت هكذا ستجن يا صديقي، هل تعرف قصة الملك وابنه؟

–لا لا

–كان هناك ملك له ولد وحيد ويقال أن ذلك الملك هو داوود عليه السلام، مرض الولد ذات يوم مرضا شديدا، فحزن الملك لمرض ابنه الأمير حزنا عريضا وأغلق الباب على نفسه، ومنع من الدخول عليه، مرت الأيام والأمير على فراش المرض والملك يزداد حزنه يوما بعد يوم، ثمّ بعد شهر من الصراع مع المرض توفي الأمير، اجتمع الخدم والحرس في القصر ليختاروا من يبلغ الملك بموت ابنه الأمير، لم يجرؤ أحد على نقل هذا الخبر المفجع للملك، وإذ هم في حلقة وسط الاجتماع خرج الملك من غرفته، عيونه ذابلة من الدمع والحزن.

–هل مات؟

خفض الخدم رؤوسهم ورفعوا قبعاتهم، إشارة للعزاء.

–حضروا لي الحمام وطاولة الغداء!

استغرب الخدم من ردة فعل الملك، دخل الملك الحمام، استحم، سرح شعره، لبس ثيابه، وجلس ليأكل، كأن شيئا لم يحدث..

جلس الوزير أمام الملك مستغربا، وسأله:

– جلالتك كنا نخاف أن نطلعك على خبر وفاة ابنك خشية أن يحدث لك مكروه، فعندما مرض كدت تموت من الحزن، فكيف إذا ما عرفت أنه مات، ما لذي ستفعله في نفسك...سيكون حتما.

قاطعه الملك في هدوء وقال:

– على كل حال كلنا سنموت وأنت تعرف ذلك، ما كان حزني وهمي إلا لأني لم أكن أعرف إن كان ابني سيشفى من مرضه أو لا، هل سيموت أم لا، وإلى متى؟

كنت معلقا في تلك الحالة لا أعرف ما لذي أفعله، الأسوأ من الموت هو أن نربي الأمل في الحياة. الأسوأ من الفعل هو البقاء والتفكير في احتمالات وقوع الفعل من عدمه.

قال طارق مندفعا بعدما حفزته قصة فارس على إبداء رأيه هو الآخر:

– وأنا مثلا عندما أصعد فوق حلبة الملاكمة، هل تعرف كيف أفوز؟

– أفوز بمواعدة خصمي مثلما يقول لي مدربي.

–ماذا تقصد؟

– نعم أواعد خصمي، بالصبر، أتلقى لكمات ولا أفكر في أي شيء سوى أني سأنجح في إسقاط خصمي، أقوم بالدفاع وأدرس حركات خصمي في نفس الوقت ثمّ أنتظر الفرصة حتّى يتعب في الجولات الأخيرة، ثمّ أنهال عليه بالكلمات لأسقطه وأفوز، الصبر والتأني والتحليل.

سمير وهو يبحث عن شيء في جيبه:

–ماذا تقول يا لمارطو ماذا تقول، السيد خسر بالضربة القاضية في الجولة الأولى. وأنت تقول له أدرس خصمك! هذا الخصم من الوزن الثقيل يلزمه أسلوب جديد. وخطة محكمة لنصيد هذا الحقير.. آه ها هي ذي.. حبّة "صاروخ" من عندي أنت صديقي، ستتكلّم بالمقلوب، ستقول لها شعرا أفضل من الذي يكتبه فارس، نزار قباني سينبت على لسانك.

طارق وهو يحك باطن كفه!

_اسمعوا يا جماعة أظن أن عندي فكرة.

– لقد مضى وقت لم نلعب! وغدا ستبدأ الدورة الكروية وسيكون الجميع حاضرين فيها، ومن بينهم أميمة.

مروان:

– نعم. نعم. أنا سأخبر سارة بأن تطلعها على المباراة وتجبرها على الحضور معها.

فارس:

– هذه هي فرصتك لتظهر نفسك، أعلم أنك حارس جيد.

سمير:

–طارق، على الخامسة نلتقي عند باب المدرسة، ننتظر رحيم الزربوط، فهو حكم اللقاء.

–تقني الصيانة في المدرسة؟

–نعم هو

–و المطلوب!

–أنت قف أمامه واسمعه صوت طرطقة أصابعك، وأنا آخذ منه الصفارة والأوراق الصفراء والحمراء. وشارة الحكم.

– هِهِه، ومن سيكون الحكم إذن؟

–فارس!

– هِهِه هل أنت جاد؟

– طبعا، فأصحاب حي لازون، محترفون، وفارس لا يدخل الملعب كثيرا وسيتنكر قليلا ولن يكتشفه أحد، وزد على ذلك هل تريد أن تفوز ومعك مهاجم مثل مروان. يخاف على ملابسه من أن تتسخ عندما يركل الكرة.

التفت مروان نحو سمير بضحكة صفراء..

ضحك الجميع بمرح:

– اتفقنا، نلتقي عند الباب، جهزوا أنفسكم يا أولاد علينا الفوز...

ثم أضاف فارس:

_نلتقي يوم الخميس آخر ساعة من الدوام أنا أملك خطة أخرى.

***

– سمير!

– ههه، هههه، هههه، هههه..

– لماذا تضحك هل سمعت ماذا يقولون؟

– هههه، حق ربي، كدنا نموت!

– أنت كالبغل، كدت تشوينا حيين، أنت من رميت عود الثقاب.

– شششششت، تعال هنا، الحيطان عندها آذان...

– أنا لا أذكر شيئا من البارحة صدقني يا لفار.

– اسكت، اسكت، أنت مدين لي بحياتك.. لم أر في حياتي شخص ينتشي مثلك.

– بعدما نزعت منك الكيس، وحشرت رأسي داخله ب..

– يا مطلوعة، حتّى أنا لا أذكر كثيرا من البارحة، سوى أنك أمسكت كيس الحليب بقوة، ولم أستطع سحبه من يدك، كنت تتشبث به بقوة، لذلك صفعتك بقوة حتّى تركته، هههه.

–لماذا تضحك؟

–أميمة!

–أميمة! كيف؟ ماذا تقصد؟

–نعم سمعتك تردد اسمها لما نزعت من فمك كيس الحليب

–ها هممم، لا أعلم، إيه قل لي كيف خرجنا!

–ربي حفظنا، لما نزعت الكيس من فمك كنت تشير بإصبعك للدخان أمامنا

والناربدأت تأكل الأرضية المبطنة بالقش تحتنا، ثمّ سحبتك من يدك فلم تستطع النهوض، لذلك جريتك من ذراعك على الأرض، وبصعوبة رفعتك على كتفي وخرجنا من المزرعة،

–ربي ودعوات الخير، كنا نمو....

– هههههه.

– لما خرجنا من المزرعة، استلقينا على جانب الطريق، ثمّ التفت نحوي، وقلت لي: أمي أفرشي لي أتعشى..

العبث بالأقدار

استيقظت على صوت ارتطام المطر بسطح حجرتي، يحدث نغمات متناسقة حين ارتطامه بالقرميد الأحمر والزنك...يبعث في جسدي قشعريرة خفيفة ودفئا عذبا... أحس بألم خفيف في ظهري لا أدري سببا له...ربما وضعية نومي البارحة لم تكن جيدة...يبدو أن هذا المنبه السخيف لم يوقظني مجددا ربما أصبح عاجزا قبل أسبوع من اليوم لم يعد يرن في الصباح كما كان يفعل ليوقظني. السقف الأحمق المصاب يبعج رأسه كعادته يفترسني بنظراته الباردة الشاخصة التي كنت أقيسها على حسب حالتي الشعورية وحتى ألوان غرفتي تتغير حسب مزاجي يالي من مراهق غبي..... كأنه مر على أصابعي ودهسها بثقل ما يحمله من متاعب نفسية...بصعوبة سحبت جثتي لأنهض من سريري...وقفت منتصب القامة مرتخي اليدين...جفوني ثقيلة وجسدي كذلك...كحلزون كسول أتم حركة استيقاظي من فراشي وما لبثت سوى بضع ثوان نحو العشرة ثواني...واقفا أمام فراشي...لأتهاوى في الأخير جالسا على طرف سريري مقابلا نافذتي الصغيرة التي تطل على القرية.

– وجهك يبدو شاحبا ما خطبك؟

– كح، لا شيء

– كيف لا شيء وأنت تسعل مثل عجوز بقي له شربة ماء ويموت!

– زكام الشتاء فقط.

– زكام آه! زكام نعم!

كانت الساعة الأخيرة من اليوم الدراسي، كنت متوترا، أشعر بألم رهيب يعشعش في صدري، شارد الذهن، تنبح داخل رأسي الأفكار، اختفت جميع الألوان في عيني، من شدة توتري كسرت السيالة الزرقاء في يدي، حتّى سال حبرها فوق الطاولة وسال على يد مروان.

– ما خطبك، أنظر لقد لطختني بالحبر..

–......

صوت مروان متقطع، صوت الأستاذ بن جازية يشرح درس سرعة التفاعلات الكيميائية، يغرق داخل أذني كأنه يتكلم داخل كهف، كان الأستاذ بن جازية هو المسؤول عن قسمنا، وضع الطبشور من يده.

–ستبدأ الأعمال المخبرية، ونريدكم أن تنقسموا لأفواج من شخصين،

بدأت الوشوشات والهمسات تنتشر بين التلاميذ، التفت الأستاذ بن جازية وهو يرسم على السبورة جدول تقسيم الأفواج:

–سيتم الأمر بالقرعة، انهض يا مروان، تعال هنا!

سلم الأستاذ بن جازية مروان علبة وأمر من في الصفين المقابلين لمكتبه بكتابة أسمائهم داخل لفافة ورق صغيرة ووضعها داخل العلبة، وبهذا يتم اختيار شركائهم من قبل زملائهم في الصفين الباقيين.

حمل مروان العلبة وبدأ بالمرور بين الصفوف، بدأ بالصف الذي كنت أجلس فيه، عرض أمامي العلبة، نظرت داخل العلبة، وبين تلك اللفافات، كانت هناك لفافة ملطخة بالحبر الذي أوقعته على يد مروان، رفعت رأسي لأنظر نحو مروان، غمزني وابتسم، أخذت لفافة الورق الملطخة، ظنا مني أنها ورقة مروان.

عاد مروان وجلس بجنبي:

–هل سننجح يا ترى في المختبر، بن جازية سيطردنا حتما إن عرف أنك غششت في القرعة.

– ومن قال لك أني غششت يا فهمان.

–كيف؟

–لا تقلق لن يطردنا بن جازية، لأن لن تكون زميلي في المختبر، أعرف أنك حابس في طلعة... افتح الورقة التي اخترتها.

–أميمة!

–قلت لك لدي فكرة، هذه هي فرصتك، لا تضيعها..

رن جرس نهاية اليوم المدرسي.

مشيت نحوها كانت لا تزال منكبة تسجل الدرس من السبورة، وضعت الورقة أمامها..

– إذن نحن في فوج واحد...

دون أن تهز رأسها نحوي أو تنظر إلي.

– نعم، يبدو ذلك.

في تلك الأثناء لوح لي طارق من باب القسم.

– هيا أسرع لقد تمكنا من أخذ الصافرة وأوراق التحكيم. علينا الآن بالتحضير، مباراة الغد ليست سهلة ضد فريق الصراصير الذي يلعب معهم إسحاق، وهذه أفضل فرصة لتظهر قدراتك أمام فراشتك. هل فهمتك سنلعب بتشكيلتنا المعتادة، مرعلي في المساء لنجد لك حذاء رياضيا لائق بالطبع لن تدخل المباراة بحذائك الطائر ذاك... هيا اعتني بنفسك ونلتقي في المساء

ثم كعادته لكمني على كتفي وانصرف...

***

ضربة جزاء لصالح فريق الصراصير

الدقيقة الثمانون من عمر المباراة.

إسحاق يسدد الكرة بقوة إلى الزاوية البعيدة من المرمى. مطلوعة يقفز في الهواء يحاول أن يصد الكرة القوية ثم....

***

– أين أنا؟

بصوت ناعم وهي تمسح على شعري:

– اهدأ يا عزيزي..

رأيت فوق رأسي ضوء أبيض خافت:

– ماذا حدث؟ كيف أنا هنا؟

سمعت بجنبي صوت أكاد أعرفه:

– لقد سقطت أثناء المباراة، حملك طارق وسمير إلى المستشفى ومن هاتفك اتصلنا بأمك حتّى لا تتحير عليك.

–آوووه مروان وكيف! هل ربحنا!

– في آخر الدقائق انسحبت من المباراة بعدما صديت ضربة جزاء، خرجت من المباراة واتجهت راكضا نحو المرحاض.

ثم قاطعه سمير:

لقد أفزعتني فقد وجدتك على الأرض تسعل سعالا دمويا ثمّ فجأة سقطت مغشيا عليك.

_وهل ف.....؟

ثم فجأة فتح الباب بقوة ودخل فارس وطارق.

–لقد فزنا يا ااااي، يا بطل، يااای.

سيدتي هذه ميدالية ابنك وليس هنالك أولى منك لتكريم ابنك نجم المباراة دون منازع.

رأيت ابتسامة طويلة على وجه أمي وهي تضع الميدالية حول رقبتي تحت تصفيق أصدقائي الأربعة.

– آه ظهري أحس أنه مكسور! هل هناك مسكن ألم هنا؟

قال سميروهو يهم بإشعال سيجارة من الكيف خفية:

– طبعا طلبك موجود!

فينزعها طارق من فمه بمناسبة الحديث عن الدواء ومسكنات الألم لقد حضرنا لك أفضل دواء:

تغامز الأربعة فوق رأسي

همسني مروان في أذني!

–......

–هل أنت متأكد؟

–طبعا وسأطلعك على التفاصيل عندما تعود للقسم.

ودعني أصدقائي على أمل أن نلتقي في المدرسة وخرجوا ثمّ تركوني رفقة أمي، التي بدأت علامة الفرحة تتلاشى عن وجهها مع كلامها:

–متحيرة عليك يا ولدي، أخبرني ما لذي حدث لك!

–لا تقلقي نفسك أمي، كما سمعت من أصدقائي لا شيء مهم. فقط مجرد سعال.

–كيف لا شيء مهم والطبيب، أعطاني موعدا مع طبيب خاص يقول أنه صديقه، وقال أن الأمر عاجل بالنسبة لابنك!

–كيف هذا! عاجل! أنا بخير...أنظري.

–لا أعرف والله يا ولدي لا أعرف، إلا أن صحتك أهم، وسنذهب لعيادة هذا الطبيب غدا!

مذكرات مشعة

هل أنا شخص مريض حقا؟

استيقظت على صوت ارتطام المطر بسطح حجرتي، يحدث أنغاما متناسقة حين يرتطم بالقرميد الأحمر والزنك، يبعث في جسدي قشعريرة حميمية ومشاعر دافئة. صرت مؤخرا أشعر بألم خفيف في ظهري لا أدري سببا له، أعتقد أنه يرجع لوضعية نومي السيئة، على بطني، يبدو أن هذا المنبه السخيف لم يوقظني مجددا ربما أصبح عاجزا قبل أسبوع من اليوم لم يعد يرن في الصباح كما عادته. حتى لا أفوت أخذ زبيدة للمرج وتفقد أمور المقهى وسادتي البيضاء متسخة نوعا ما لكني لم أرد إخبار أمي بذلك حتّى تقوم هي بدورها بغسلها لأني كنت استمتع نوعا ما برائحة النوم التي يحملها الوبر المحشو بها. السقف الأحمق المصاب يبعج في رأسه كعادته يفترسني بنظراته الباردة الشاخصة التي كنت أقيسها على حسب حالتي الشعورية. بصعوبة سحبت جثتي لأنهض من سريري، وقفت منتصب القامة مرتخي اليدين. جفوني ثقيلة وجسدي كذلك كحلزون كسول أتم حركة استيقاظي من فراشي وما لبثت سوى بضع ثوان نحو العشرة ثواني. واقفا أمام فراشي.. لأتهاوى في الأخير جالسا على طرف سريري مقابلا نافذتي الصغيرة التي تطل على القرية وأكتب هذه المذكرات أو تكتبني لا أعرف إن لم أفرغ كل هذه المشاعر في الرسم أو الكتابة ماذا سيحل بي. داخل هذه المذكرات أتعرى من جسدي وأقابل روحي مباشرة وأعترف بكل شيء.

اليوم علي زيارة هذا الطبيب. وأظنّ أنّ زيارة الطبيب موضوع غير مشوق وربما لا يستحق أن أخلده في مذكراتي.

الطريق الترابية أمامي. تثائب ثمّ تثائب وأتثاءب. أحدق في غرفتي كأنني لأول مرة أراها. جدران غير مطلية وطاولة من خشب قديم لها رجل غير ثابتة... خزانة ثيابي كالقنبلة المؤقتة، مشحونة بالملابس المتسخة والرثة وثياب العمل. وتحتها صندوق

من حطب أين أضع صابر، كأني أربيه مثلما يربي أصحاب المدينة حيواناتهم الأليفة. الفرق بين صابر وقططهم وكلابهم أن صابر. يعيش بالمجان ولا يتغوط ولا يمرض.

حبات المطر التي تعانق زجاج نافذتي تدفعني للنهوض متجها نحو نافذتي. أحمل مذكراتي وأكتب أمام النافذة. يثيرني انبعاث رائحة المطر الممتزج بالتراب، لو كان عطرا لاشتريته وأهديته لأمي. اليوم ماطر والضباب يغطي زجاج نافذتي، الدخان يتصاعد من مداخن بيوت القرية. وكرات التبن والمزابل وأسمدة المزارع المكونة من روث الأبقار والخرفان، أظنه يوما يصلح للنوم أو التأمل أكثر مما يصلح لزيارة الطبيب، هذه أول مرة سأزور فيها طبيبا فأنا لا أعرف معنى المرض سوى إن أصبت ببعض الحمى أو السعال أمي هي طبيبي وأعشاب جدي هي دوائي.

الطريق الترابية في القرية مع الأمطار تصبح طريقا طينية. مشقة الوصول إلى عيادة الطبيب مشيا، تصعب علي وعلى أمي أكثر، لا نملك سيارة ولا نملك مظلة تقي رؤوسنا، نملك فقط الصبر الذي يصبر علينا بقدر ما نصبر عليه. وأنا لا أملك سوى قشابية من الوبر. تحتوي على قلنسوة رأس واسعة. تغطي رأسي وكتفي ويزعجني أكثر أنها لا تغطي أمي وصابر والشيء الآخر الذي يزعجني أكثر هو ضيق التنفس. الذي صرت أحس به مؤخرا، حيث أني أشعر بانسداد في رئتي. كأنهما أصبحتا عاجزتين عن ضخ الهواء. وهذا أصابني مؤخرا مع رجوعي للمدرسة. أيكون هذا من هواء المدينة الملوث؟ ولكني لا أعتقد ذلك لأنه لو كان ذلك حقا صحيحا. لظهر الأمر معي قبل أعوام من مزاولتي الدراسة في تلك الثانوية. أو ربما يكون مرضا وراثيا. لا أدري حقا. الأمر حقا بات يرهقني ويزعجني. خلل في جهازي التنفسي هذا ما كان ينقصني. أشعر الآن بدوار وصداع في مقدمة رأسي. ذهني مشوش للغاية أنا أكتب هذا وعاجز عن التحدث في الأمر لأي أحد أو ربما ليس عجزا وإنما فقط تحفظ فهل يتحفظون على المرض يا ترى؟

إنما أظن أن تلك الصورة وأنا أبعث حزني وخلجتي لشخص آخر صورة سخيفة حمقاء. مثير للشفقة، لا أريد أن أرى أحدا يلعب دور المنقذ لي، دور البطل أمامي، إن صح تمثيلي لذلك الأمر أو قارب له، المحير في أمري أني لا أريد أن أزور الطبيب اليوم

رغم إصرار أمي لأن الطبيب بالنسبة لي شخص يضع نظارات ويبيع الكلام قبل الدواء هو شخص عاجز مثله مثلي. إن توجهت نحوه أنا بمرضي سأخسر في طريقي نحوه ثقتي بنفسي وأتلاشى معنويا كما أنهار الآن جسديا.

لا أبدا! لن أذهب وأجلس في طابور طويل من المرضى الطاعنين في السن والمصابين بالجدري والحمى القلاعية. آه والمصابون أيضا بالجرب أعلم أنه مرض معدٍ،. إن لم ينقل لي أحدهم الجرب. فربما أصاب بالقمل. أوووه! ألهذا منذ استيقاظي وأنا أحك في جلدة رأسي! هل تراني قد أصبت بالقمل أيضا؟

لا. لست مضطربا عقليا أو مجنونا، ليس الأمر كليا هكذا أنا شخص منطقي لأبعد الحدود فقط، حين أفكر في حالي وأنظر لجسدي المتهاوي هذا ما كان ينقصني القمل.

يا ربي ما هذه المرارة التي تحت لساني. أشعر بمذاق صدئ وبحرقة مزعجة في حلقي. تجتاحني رغبة غريبة ببلع لعابي المزيد والمزيد حتّى تخف تلك الحرقة الخطمية في حنجرتي. ما هذا الشعور الغريب يا الله!

هل هذه أعراض مرض ال رب و...!

يا إلهي! قد نطقت تلك الكلمة، وأنا الذي قد كنت أسمعها قبل فقط في التلفاز أو في المدينة، تبا! لن أزور هذا الطبيب ولن أخبر أحدا بحالتي، أفضل أن أموت هنا في غرفتي الكئيبة ذي على أن يشفق الناس لحالي، أوووف من البشر، يبدون الشفقة على حالك ويقذفونك بشتى عبارات المواساة والمؤازرة، وإن كنت تظن هذا من أجل أن ترتاح من معاناتك ويخف ألمك ومصيبتك فأنت مخطأ حتما، نحن نخالف أنفسنا ونغطي الحقيقة المطلقة حتّى على أنفسنا، وإن كان الأجدر بالقول أننا لا نكف نخدع أنفسنا والمقزز في الأمر أننا نصدق ذلك ويصل بنا الأمر إلى غاية أن نؤمن به حتى. تلك اللذة الخفية عندما نبدي الشفقة والحزن والمؤازرة إبان أحدهم، نظهر الحزن والأسى. تلك العبارات مقززة بنظري.

"أنت تقطع قلبي، أنا حزين لأنك حزين". البكاء والعناقات الحارة إنما هي فقط لنرمم أنفسنا المنكسرة وربما نحن من نحتاجها أكثر لذلك نقدمها لمن يبدون حاجتهم بها، وهكذا يكون الفعل متبادلا. هل الإنسان مجرد آلة تجرها الشهوة والملذات الغريزية فقط؟

مثل تلك اللذة الخبيثة اللاإداركية والتي نخفيها عند إبدائنا الحزن والمواساة لأحدهم، تنتشي بها أنفسنا لحد بعيد. هذا حقير بالنسبة لي. لن يشعر أحد بتلك اللذة على حسابي لا وأبدا.

لكن ماذا سأفعل؟

هل سأخفي الأمر؟

هل أتجاهله؟

لمن أبث حزني وألمي يا ترى؟

إن لم أقبل أن أجعل نفسي سببا في أن ينتشي أحدهم لمعرفة دخيلة نفسي. كيف سأخفف عني؟ وإن كان الكل على هذا النحو. لمن الملجأ؟ إن أصعب وأقسى شيء في هذه الدنيا أن لا يكون للمرء مكان يذهب إليه. أفكار تسحب أفكارا تنجبها أفكار أخرى تلد بدورها أفكارا أقل من الأولى حيرة لكنها أحقر منها وأصعب حلا وهذا إن كان لها حل أصلا.

يا إلهي ما لذي أصابني؟ الأفكار لا تكف داخل رأسي تتلاطم كموج البحر على جدران منارة. هذا يرعبني أكثر من فكرة تقبل أني أتنفس بصعوبة وأكثر من تقبل فكرة الذهاب للطبيب حتّى وأصعب حتّى من أن يخبرني أبو نظرات ذاك أني مصاب بمرض الربو. ويقولها بكل برودة وهو يستدعي أحد المرضى الآخرين الواقفين ينتظرون تشخيصهم من قبله...يا له من أمر فظيع. ولكنه على الأقل يلطمك بالحقيقة مباشرة، دون أن يدعي الشفقة ويتلذذ على حساب ملامحك التي يصيبها الشحوب والعبوس في تلك اللحظة.

أنا شخص مريض.

هذه الفكرة ترهقني وتؤثر على نفسيتي أكثر مما ستؤثر على جسدي.

علي أن أصبر، هذا كل ما اعتدت على فعله في حياتي. الصبر وبلع الحزن. أنا شخص صبور أكثر من صابر أنا مثل الصبار ولكني أنهار ضربة واحدة ولا أتجزء لأجزاء صغيرة عند انهياري. أنا كحائط مبني بقالب واحد من الإسمنت.

قالت جهز نفسك لنرى الطبيب غدا فالأمر مستعجل.

محال أن أذهب أنا لست ضعيفا ولن أكون مثيرا للشفقة أبدا. أنا ابن الحجر والشجر ولكن إن سقطت وكنت وحيدا وأصبت بالاختناق من سينقذني. حتما سأموت. هل سأموت حقا. هكذا بكل بساطة. أريد أن أشيخ مثل جدي. أريد أن تصبح لي حكايا مثل المخفي. أريد أن يرى كل العالم رسماتي وأصبح مثل سلفادور دالي!

كم هو محزن أن تموت وحيدا، تنسى كأنك لم تكن، هل خلقت من أجل أن أموت أم أن أجل أن أحيا؟ لو كان أبي حيا الآن لرفعت به محظرا عند قسم الشرطة لأنه أنجبني لهذه الحياة ليعذبني. ولم يطلب موافقتي. هل حقا أنا خطأ جئت في ليلة باردة مثلما كان يقول لي؟

كل ما أعرفه أني أغرق في الفراغ العبثي بأفكاري المستعصية عن الحل، مراهق كئيب. لست مريضا. وما تكون هذه سوى مزحة من أمي ومقلب سمج من أصدقائي الأوغاد.

فأصحاب الريف لا يمرضون، أنا آكل التين المجفف وخبز الشعير والمطلوع الأصيل وأشرب لبن زبيدة الغني بالدسم الصحية وأتنفس هواء نقيا من أشجار العرعار والصنوبر الحلبي والكاليتوس. حتّى أني أشرب زيت الزيتون كل يوم. ما سبب مرضي يا ترى؟

أنا شخص موسوس إلى حد كبير في تفكيري. تراودني أفكار غريبة، لا أدري من أين تأتي، ليتني أعرف منبعها لأسده وأمنع تدفقها بشكل نهائي. قد أصبح الأمر ينهكني حقا، مؤخرا أصبحت منعزلا وانطوائيا لحد كبير أريد الذهاب للمدرسة اليوم، أو الذهاب للطبيب والتخلص من فكرة الشك التي تتأرجح داخل رأسي أو ربما أعود لفراشي وأكمل نومي ولكن هل بنومي سأتوقف عن التفكير؟ ربما أتوقف عن الإحساس بألم جسدي ولكني حتما لن أتخلص من ألمي النفسي وأفكاري الحمقاء الرهيبة...! لا أدري حقا ما علي فعله، أتحاشى أن أواجه الواقع الأليم، أن يعطيني ذلك الرجل ذو النظرات المدورة تلك البخاخة البيضاء ذات السدادة الزرقاء وأنا الذي لا يراها سوى في المدينة، يحملها بعض من التلاميذ الأثرياء لا أبدا لن أصبح واحدا منهم! لن أحمل في جيبي بخاخة صغيرة سخيفة إنه في نظري لشيء اصطناعي لحد السذاجة. أن تحشر داخل تلك الآلة الطبية رأسك، لتستعيد حياتك وتركيزك. أشعر بالشفقة على حالي إن أصبحت مثلهم.

كم هو سيء وبغيض أن تحس أنك لا تستطيع أن تتنفس سوى بصعوبة مجرد التفكير في ذلك يجعلني حزينا حقا...كيف لشاب في عمر الزهور مثلي أن يصيبه هذا المرض؟

سبعة أشهر

الحكيم اللوناس محمود

طبيب خاص بالأمراض الصدرية، محلف لدى مجلس القضاء

جلست رفقة أمي في غرفة الانتظار، مطأطأ الرأس، أحدق في حذاء عيشة الأزرق البلاستيكي الرث، كانت تلبس حجابها الرمادي الوحيد وفي يدها ورقة نقدية من فئة الألف دينار، أظنها بالضبط ثمن الزيارة والفحص،، أمي تمسكني من يدي، أشعر أن يدها تعرق، أشعر أنها خائفة لا أعرف لماذا، ولا أعرف تماما ما أخبرها الطبيب في المستشفى.

قاعة الانتظار مملة وصامتة، وسطها طاولة مستطيلة من حطب وسطحها من زجاج فوقه رضاعة حليب ومجموعة من الجرائد القديمة، أوراق ملساء بيضاء، على الحائط المقابل الساعة تشير إلى الواحدة والنصف، وصورة امرأة شقراء قاعدة على العشب وأبنائها يعانقونها ويبتسمون، بجنبها صورة بيانية للجهاز التنفسي، فجأة يرن هاتف الرجل العجوز، لا يجيب، يرن طويلا، لا يحرك ساكنا، ستة أرائك بنية مريحة، في الجانب المقابل فتاة صغيرة نائمة على كتف أبيها النحيل كئيب الملامح في يده ملف أزرق محشو بالأوراق، بجنبه سيدة شديدة السمنة تقرأ الجريدة، ومقابلها فتى صغير أبيض وأشقر الشعر، صغير العينين، تراقبه أمه الجميلة، يستنشق الهواء من بخاخة، ورجل أسمر يسعل بطريقة غريبة، تفوح من الغرفة رائحة تشبه رائحة سم الفئران.

الساعة الآن تشير إلى الثالثة مساء. لم يبق سوى الرجل الأسمر في القاعة وأنا رفقة أمي. بعد لحظات خرجت الممرضة مجددا ونادت علينا.

_لقمان صابري!

دخلنا غرفة الطبيب كان رجلا يبدو في الخمسين من عمره، شديد البياض، شعره أشيب خفيف يرجعه للخلف، يشابك أصابعه على مكتبه:

–إذن أنت لقمان على ما أظن، الذي أرسلك زميلي محمود لأفحص حالتك.

–ن...نعم

سجل الطبيب عمري وبعض البيانات الشخصية الأخرى ثمّ أدخلني داخل آلة مسح ضوئية، كانت تشبه قبرا بارد سطحها يتحرك بي نحو الداخل، الأشعة الزرقاء تمسح جسدي مثلما تفعل الطابعة بالأوراق حين تنسخها، شعور غريب تملّكني في الداخل هل يريد أن ينسخني يا ترى، أنا أكره الأطباء وأكره آلتهم الغريبة، هل يريد أن يسرق كليتي؟ أواه

خرجت من آلة الأشعة، لبست ملابسي، وقعدت جنب أمي الحيرانة أمام مكتب الطبيب، بعد لحظات عاد الطبيب يحمل في يده راديو الأشعة، صمت قليلا.

نطقت أمي!

–خير. يا دكتور!

–ابنك..

ثم صمت قليلا وحك جبهته:

_ أعلم أن تقبل الأمر ليس سهلا في البداية، لكن مع الوقت سيعتاد على البرنامج الذي أقدمه له، كما أن هناك العديد من الجمعيات الخيرية للمساعدة.

أمي ردت بصوت منكسر ونظرات الخوف تملأ عينيها.

–دكتور! أي أمر ماذا تقصد؟

– هناك الكثيرمن الأشخاص يعانون من نفس حالة ولدك ويستطيع التعايش معها، بأخذ جرعات من العلاج الكيميائي.

_وضح أكثرماذا تريد أن تقول؟

–سيدتي إن ابنك مصاب بسرطان الرئة.

أمي تنفجرباكية، تعانقني وتبكي بحرقة، أنا متجمد مثل الجثة من دون روح، كأنه ثقبني من روحي بسكين جليد وروحي تتسرب من جسدي الشاحب، أنظرإلى الطبيب وهو يتابع ذبحه / كلامه.

– يا سيدتي لا تقلقي، سنجد حلا فقد أصبح العلاج الكيميائي متوفرا، وسنقوم بمتابعة ابنك ومراقبة حالته الصحية حتّى يتحسن، وسأحرص على التخفيف في ثمن المتابعة الطبيبة، سنجري له أشعة النانوجرام والموجات فوق الصوتية، ونراقب تطور المرض، وهذه الحالة، السرطان، الفشل التنفسي، المعنوية، الحالات المصاحبة، المتابعة، الوصفة، الككمتلى، مماة ولغهت لبرته عخخو عالمقوو تتةنغوو تممك وماة ههزنت ونوو هتوةبتووو ووخخببوو،هكمم،..و...بووك..وو..... كييييبب....ظكط.....رمك،رسمتت منهكد.

الأرض تدور حولي، كلام الطبيب معجن، غيرمفهوم، أمي تبكي وتناجي الطبيب، وأنا أشعرأني أتفكك، أنهار، قلبي يكاد يخرج من بين أضلعي، يدب بقوة، كسجين يريد الهروب من زنزانته، يدي في يد أمي المتعرّقة متجمّدة مثل قطعة ثلج، الطبيب يستمرفي تحريك شفتيه، عقارب الساعة أمامي تدور ببطء شديد.

نهضت من الكرسي، جلست في قاعة الانتظاروتركت أمي مع الطبيب، الرجل الأسمرلا يزال هناك، هاتفه توقف عن الرنين، الرجل الأسمريبتسم ببرود. لا أعرف ما لذي يحدث لي، عدت ببطء في الرواق أستند على الحائط في مشيتي، اقتربت من حجرة الطبيب سمعته يقول لأمي.

_لو تم تشخيص حالة ابنك مبكرا لكنا قد تمكنا من تثبيط انتشار السرطان في الأعضاء المجاورة مثل الكبد والغدد الليمفاوية، لن أكذب عليك إن السرطان في المرحلة الثالثة، أي المرحلة قبل الأخيرة. ولن يصمد جسده أكثر من سبعة أشهر إن لم يقم بإجراء العملية.

أمي ترد باكية

_سبعة أشهر. لا لا محال هناك خطأ ما.

صوت الطبيب يصلني متقطعا:

_خمسمائة مليون سنتيم ثمانية جرعات في المعتاد تدفع بالتقسيط والجرعة التاسعة على حسابي إذا لم تتحسن حاله، لأن الطبيب محمود أوصاني عليكم.

نزلت من خدي دمعة باردة، من سنوات عجاف لم أبك، عندما سمعت أمي تقول:

_يا دكتور عندي ولد واحد، إن مات سأموت معه.

الطبيب يرد بنبرة هادئة:

_ لا يا سيدتي لا تقولي هذا بالأعمار بيد الله...

مسحت دموعي، جمعت نفسي، يجب أن أبدو في أحسن حال أمام أمي، كي لا تتحطم أكثر وتحطمني معها، فتحت الباب ودخلت، ابتسمت للطبيب ابتسامة باردة وشكرته، سحبت أمي من ذراعها وخرجنا من العيادة عائدين سيرا على الأقدام نحو القرية، صامتين على طول الطريق، أنا منشق من الصدمة، وأمي لا تكف دموعها عن الانهمار... وتضغط على يدي بقوة، ثمّ تعانقني في وسط الطريق.

– يا أمي العزيزة لا تخافي لن أموت غدا، الأعمار بيد الله... سنجد حلا

نظرت نحوي أمي بعينين مغرورقين بالدموع ولهجة متلهفة كأنها وجدت الحل:

– نعم سأبيع ذهبي وخاتم زواجي ونزيد البقرة، وكل يوم أخبزلك مئة مطلوعة.. هكذا نلم مبلغ العملية .

عانقت أمي وقبلتها على جبهتها، وأنا أعتصر من الألم، أحبس سعالا رهيبا، لا أسعله أمامها، أعرف أني سأمزقها مع كل كحة:

– آه يا ميمتي، يفرجها العالي "كم عندك ذهب، زوج من الأقراط وخاتم، بكم؟ ومئة مطلوعة أو ألف مطلوعة، لا تصل حتّى ثلث المبلغ لجلسة علاج كيمائية واحدة".

لا أدري، كيف لماذا أنا، أشعر هكذا، كأن صخرة موضوعة فوق صدري، لا أكف أسعل وأسعل، قلبي يكاد يخرج من بين أضلعي، لماذا يا ربي؟ من يرعى زبيدة الآن من يحرث الأرض، رسماتي للمستقبل تلطخت، أنا أختنق، نفسيا جسديا أنا محطم، البارحة سعلت دما، كنت أتمنى أن يكون ربوا، لكن سرطان. لا لا، سأموت آه يا ربي، سيعرف كل الناس بأمري، سيشفقون علي، يرونني عالة على المجتمع، لا لن يعرف أحد، سأجبر أمي على كتمان السر، وأعاني في صمت خير من نظرات الناس المشفقة اتجاهي.

أوووف ربي، أريد إمساك جزيئات الهواء وإقحامها داخل رئتي. لأتنفس بشكل صحيح، أواه ربما الطبيب يكذب!

كم بقي لي لأعيشه؟ كم بقي من دموع لأبكيها؟ المشكلة ليست في الموت ولكنها في الطريقة التي تموت بها، أن تتكوم على هذا السرير الناعم وتشعر بروحك تتسرب منك ببطء، والبطارية بدأت بالانخفاض، ووفود الناس تروح وتأتي لا تحمل معها شاحنا، بل تستنزف بطارية حياتك أكثر لا تحمل معها سوى مصمصة الشفاه المعتادة وكلمة يا حرام، مسكين التي تقفز إلى قلبك مثل السكين، تعجز عن رفع سيفك لتقاتل لأن عدوك انتشاره سريع وأنت دفعاتك ضعيفة، والإمدادات الخارجية لا تسمن ولا تغني من جوع لأنهم لم يخترعوا الدواء بعد، فتجد نفسك مضطرا للموت ككلب مات على زوبية، ترحل في المشهد الذي تمنيت ألا تنزل معه الكتابة في آخر الفيلم. أضم ركبتي لصدري وأبكي بحرقة أبكي على كل شيء، أبكي علي أنا وحيد عيشة، كيف أتركها وحيدة في هذه الدار الموحشة.

استجواب

السيدة أميمة حراج

***

– لماذا تبكين؟

_خذي تفاحة. هي مهدأ جيد.

لم ترد أميمة.

– حسنا أرى أن لك علاقة قوية بالضحية، أم أنك مفزوعة من المشهد الذي رأيته؟

بقيت أميمة ساكتة مطأطأة الرأس تئن بصمت وشعرها منسدل على وجهها، نهض المحقق من كرسيه واقترب من وجهها ليوجه السؤال لها بنبرة صارمة وجادة:

– متى تعرفت على إسحاق وما هي علاقتك به؟

– عرفته، عرفته، ع رف ت...."كانت كلمات أميمة متقطعة دون أن تنظر في وجه المحقق، ناولها الطبيب قارورة ماء صغيرة شربت منها وتابعت كلامها بوضوح" في حفل أقامته عائلته، كان حفلا بمناسبة افتتاح عائلتهم لشركة إنتاج الأجبان، حضر الحفل الكثيرمن رجال الأعمال والشخصيات المهمة.

– هل أنت ابنة السيدة جمال حراج صاحب شركة om للأجبان وom للمجوهرا ت ؟

– نعم.

ثم توسعت حدقتا المحقق وتغيرت نبرة صوته.

– ثمّ بعد ذلك. واصلي..

– عرضني أبي على بعض الأشخاص المهمين ومن بينهم أب إسحاق. الذي كان رفقة ابنه وبذلك تعرفت على إسحاق.

– لم تكملي إجابتك على سؤالي، ماذا يكون إسحاق بالنسبة لك؟

– خرجنا في عدة مواعيد، وكنا قريبين لبعضنا، لكن لم تكن العلاقة رسمية، يعني أصدقاء في علاقة مفتوحة.

– ماذا تعنين بأصدقاء في علاقة مفتوحة.

ثم التفت المحقق للطبيب خلفه ينتظر منه شرحا حول هذا المصطلح الجديد الذي يستعمله هؤلاء المراهقون

– كنا نتواعد. وكنت حبيبته!

– كنت؟

_حبيبته فقط.

_حسنا... وقد تقدم لخطبتي. ليس رسميا. لكن قد وضع علي اليد.

_وضع عليك اليد!

_يعني قد أعطى كلمة لأبي بخصوصي.

_حسنا قد فهمتك وبعدها!

– بعدها لم تدم العلاقة وانفصلنا.

_لماذا؟

صمتت أميمة لمدة:

_لا أدري. المكتوب.

– المكتوب آه..حسنا احكي لي ما لذي أخذك للمكتبة وكيف وجدت الجثة؟

– طلبت من الأستاذة الإذن بالخروج من القسم وكان ذلك من أجل أن أستعير كتابا من المكتبة.

– ما نوع هذا الكتاب؟

– كان رواية.

_أية رواية...ما عنوانها؟

_ رحل من دون وجه.

هل تقصدين هذه الرواية ثمّ أخرج الماحي الرواية من بين أوراق جريدته وعرضها على الطاولة أمام أميمة.

_هل تقصدين هذه الرواية؟

_نعم هذه هي.

_لماذا هذه الرواية بالتحديد.

_ لا أعلم.

_وهل هناك من يقرأ كتابا ولا يعلم لماذا يقرأه؟

_ربما فقط عندما رأيت إسحاق يقرأها، انتابني الفضول لأعرف محتواها.

– جيد، لماذا انتابك الفضول وهي مجرد رواية؟

_لا أعرف.

_لماذا؟

_لأن إسحاق ليس من النوع الذي يقرأ الروايات إذ ربما هذه أول مرة أراه يحمل رواية، لذلك انتابني الفضول لأعرف ما لذي جذبه لقراءة الكتاب، انتظرته حتّى يفرغ من قراءتها لأذهب وأحضرها.

– كيف عرفت أنه أنهى قراءتها وأنه سيضعها في المكتبة في ذلك الوقت بالضبط؟ ولماذا لم تطلبيها منه مباشرة لماذا انتظرته حتّى يذهب إلى المكتبة وتبعته خفية ؟

– لم أتبعه خفية وإنما عرفت أنه أنهاها لأنه معي في القسم وكنت أراقبه حين يخرجها ويقرأ، ولم أطلبها منه لأننا كنا متشاجرين، هذا فقط وليس شيئا آخر.

– كنت تراقبينه! ماذا تقصدين بهذا؟

– نعم كما أخبرتك لقد كنا في علاقة وأردت أن أعرف ما لذي يفعله في غيابي.

– لكنه كان يجلس معك في نفس الطاولة أليس كذلك؟

– لكنه غير مكانه.

_لماذا فعل هذا برأيك؟

_عندما سألته لم يجبني.

_حسنا.. حسنا. هناك زر مفقود من مئزرك! ما لسبب؟

– آه زر لا أذكر، الآن فقط لاحظت أني فقدت زرا من مئزري!

ثم صمت المحقق لبرهة راح يضرب الجريدة على كف يده ببطء ويفكر ثمّ التفت المحقق للطبيب وطلب منه أن يحضر له كأس ماء.

_وقبل أن تذهب أعطني ذلك الزر

_حسنا ها هو سيدي.

وسلم المحقق الزر الوردي لأميمة:

– هل هذا زر مئزرك؟

تفقدت أميمة الزر وقارنته بأزرار مئزرها الأخرى:

_نعم أظنه الزر الذي سقط من مئزري.

ثم أرجعت الزر للماحي، أمسكه وسأل أميمة وهو يميل رأسه نحوها:

_هل تعرفين أين وجدنا هذا الزر؟

– لا.

– عند رجلي الضحية.

تغيرت ملامح أميمة، شابكت أصابعها وراحت تلوكها على بعضها وقد لاحظ الماحي هذا، ثمّ تكلمت بنبرة سريعة دفاعية:

_لا أعرف حقا لماذا كان هناك، كل ما أعرفه أني عندما دخلت المكتبة ومشيت بين رفوف المكتبة جلست أراقب إسحاق، حتّى آخذ الرواية دون أن يعرف، ثمّ فجأة غاب عن ناظري ولم أعرف أين اختفى، حسبته أنه خرج من المكتبة بعدما وضع الرواية في الرف، اتجهت للقسم المخصص للروايات أبحث عن الرواية ولم أجدها، وفي تلك الأثناء رأيت أحدهم يخرج من باب المكتبة حسبته هو، لكني تفاجأت عندما رأيت إسحاق ساقطا على الأرض"وراحت تكمل جملتها بصعوبة تختلط بالبكاء" والدما....ء تس....يل. م..ن رأ..سه، فلم أعر..ف ما لذي أفع..له، فهر....عت بالبكاء، "ثم تمالكت نفسها ورفعت رأسها وأرجعت شعرها للخلف" في تلك اللحظة ربما سقط مني الزر دون أن أحس.

_هل أنت متأكدة من أنك رأيت اسحاق وهو يرجع الرواية إلى مكانها!

_ليس تماما. لأني لم أجدها هناك.

_هل تقصدين أن الرواية كانت بحوزته عندما تلقى الضربة.

_نعم هذا احتمال كبير.

_ولست أنت من تركها بجنبه؟ أو أوقعتها من يدك!

_لا.

_هل أوقعتها من الرف الذي بجنب الضحية مثلا. لأنها كانت واقعة في الجهة اليمنى من الضحية بينها وبين رف المكتبة.

_لا أعتقد هذا.

– حسنا قد أخبرتنا أنك رأيت أحدهم يخرج من المكتبة قبل أن تجدي اسحاق ميتا على الأرض.

_نعم.

_من الذي رأيته يخرج من المكتبة؟

– لم يظهرلي شكله بوضوح!

– من رأيته يخرج من المكتبة، كيف كان يبدوا، لمن يشبه من زملائك في القسم.

– لا لا أعرف، لكني أظنه...

– من؟ تكلمي!

– لقمان

– لقمان الصابري هكذا!

– حسب شهادة إحدى صديقاتك، لقد حدث شجار بينك وبين إسحاق قبل يومين، ما هو سبب الشجار؟

– إسحاق أحبني، وقد أعماه الحب لدرجة أنه أراد أن يتملكني وغيرته علي أصبحت تزعجني كثيرا، لذلك لم نتفاهم، وكل ذهب في طريقه، مكتوب كما يقولون.

– مكتوب! موت إسحاق حبيبك السابق بمجرد أن انفصل عنك هو مكتوب أيضا! هل أردت الانتقام منه لأنه صفعك أمام وسط الساحة، أم من أجل لقمان.

– لا لا ماذا تقول، لم أفعلها، لقد انفصلنا لمدة فقط، لكني أصارحك....أن... "ثم انفجرت بالبكاء شاهقة حتّى تجعدت ملامح وجهها".

ثم سكتت أميمة لحظة قصيرة، استجمعت قواها وتكلمت بنبرة واضحة:

_أحبه يا سيدي.. أحبه ولم أحب رجلا مثلما أحببته، لذلك أردت أن أعرف حتّى الكتاب الذي يقرأه، ولو يرجع للحياة سأعتذر منه ألف اعتذار. لأني لا أصدق أنه قد مات لا أصدق، هو خطيبي وقد قررنا أن نتزوج بعدما ننجح في امتحان البكلوريا، كان دائما يخبرني أننا سنتخرج في كلية الطب مع بعض لكن...

ثم انفجرت بالبكاء وبإشارة من يد المحقق حملها طارق وأخرجها:

ثم التفت المحقق للطبيب، يسأله:

_ما رأيك في ما قالته!

– لا أدري يا سيدي بحق، أنا لا أفهم كثيرا في العلاقات العاطفية لهذا الجيل، لكن! ربما قد أحبته حقا وربما تكون دموع تماسيح فقط.

– لو أحبته حقا لما تركته وبدلته بفتى أقل منه مكانة ومالا وجمالا... عندما

تتركك امرأة من أجل رجل وأنت تعرف أنه لا يملك لا مالا ولا جمالا أكثر منك وكل ما هو موجود لديه أنت تملكه، اعلم حينها أنها لم تحببك من الأصل وكل ما عاشته معك كان مجرد تمثيلية فقط. وهذه الفتاة تبدو ممثلة بارعة حقا. خصوصا إذا خدعتك مع فتى اسمه لقمان، لقمان مطلوعة. مقطوع من شجرة لا مال ولا جاه ولا نسب ولا حسب.

– هل تقصد أنها قد تقتله من أجله؟

– اثنان لا تثق فيهما يا صديقي شمس الشتاء وقلب النساء.

أهرب تجري ورائك

– لقمان..لقمان!

أسمع جدي ينادي علي:

_ نعم جدي.

_ سأسبقك ولتلحق بي.

نهضت مسرعا وضعت بعض الأسمال على جسدي فتحت الباب، وجدت أمي تحمل الحطب لتضعه داخل فوهة "الكوشة" ساعدتها في كسر بعض الحطب وحمل بعض الصينيات إلى أمام ذلك الوحش الطيني الصغير الذي يخرج الدخان من رأسه، قبلتها على جبينها. ثمّ سرت.لأجده بمحاذاة البئر جالسا على حافتها منتعلا حذاءً كلاسيكيا قديما بني اللون وسروالا عربيا باجيا عريضا ذو جراب واسع ناحية فخذيه. وحزاما من الجلد المدبوغ. جيليه زرقاء قصيرة من الجين وما يميز جدي يحي عصاه النصف دائرية عند المقبض المكسو بجلد الماعز المثبت عليها بسلك نحاسي رقيق، ملتف فوق الجلد على المقبض بإحكام، وطربوشه الأحمر ذو الخيط الذهبي الذي يتوسط سطحه متدليا من عليه. عجوزا في الستين من عمره، لو رآه غريب لظنه في الأربعين أو الخمسين قوي البنية رغم متوسط وزنه عريض الكتفين ذو وجه مثلث. ذو جبه عريضة ولحية طويلة وحادة، عيناه مختبئتان تحت حاجبين أبيضين عريضين، عينان كزيتونتين سوداوتين مهيبتين.

معظم أسنانه لا تزال في فمه له نصف ضحكة غير ممتدة وتجاعيد خفيفة حول عينيه وشعر متوسط الطول متعرج النهايات، بيده سلة مصنوعة من الدوم يحمل فيها خبزا يابسا وبعض العنب ولفافة بلاستيكية سوداء وأمامه على الأرض شبكة صيد بيضاء وصنارتي سيدي واحدة زرقاء بيمينه والأخرى بيضاء أقصر من الأولى:

_احمل الشبكة وخيط الصيد، هو تحت رجلك واتبعني، أدعوا الله أن يكون الحظ حليفنا اليوم.

مشينا قرابة العشرين دقيقة لنصل إلى واد "بو غولة" حيث صخرة الغولة.

فوق الصخرة الكبيرة في ضفة النهر المرتفعة بأربعة أمتار على سطحه، فتح جدي السلة وأخرج منها بعض معدات الصيد وفتح العلبة البلاستيكية وبحركة تشبه حركة نقر الديك لدودة أشار برأسه نحو النهر، ولما رفع يده ليريني الطعوم التي اشتراها مؤخرا، ظهر من تحت سترته مسدس أسود صغير يخفيه داخل حزامته:

أنظر لقد اشتريت طعوم صيد جديدة. إن أسماك النهر أصبحت تتذمر وتتزمل من الديدان التي كنت تأتيني بها من المزرعة.

فحتى هي لم تعد غبية مثل السابق وأصبحت تعرف أن تلك الديدان الأرضية المعلقة بخطاف صيد هي مجرد فخ وضع أمامها فقاطعته قائلا:

_أو...

وقبل أن أتمم كلامي نظر نحوي بعينين تعكسان صفاء النهر أمامنا:

–أو ربما أنا من فقدت موهبتي!

ناولته صنارة الصيد البيضاء ليحكم ربط الطعم في الخطاف برأس الخيط ويناولني بدوره الصنارة الزرقاء ويخرج من جيب سرواله العربي العريض دودة...و يرميها بجانبي:

أمسك ضع هذه في صنارتك...

ممازحا أياي بهيئة واثقة.

هكذا ليكون لنا صيد متنوع من الأسماك المثقفة والأسماك الغبية.

ضحكت، رمى جدي صنارته قبلي وتبعته بدوري وجلست بمقربة منه ودون أن أفكر. قلت له:

_ما زالت البركة يا جدي

نظر نحوي، بنبرة تسودها القليل من الحسرة الممتزجة بالألم:

_هذه العبارة بالتحديد هي الدليل على أنني كبرت. لأنني عندما كنت صغيرا بدوري كنت أقولها لجدي المتقدم في السن الذي كان يبدوا لي خرفا وها أنا ذا صرت مثله اليوم. آه يا ولدي "حتّى المخفي وينحني. "

_ماهي قصة هذا المخفي يا جدي؟

– قل ماهي حكاياته. يا حصراه من أين أبدأ لك، المخفي هذا.

"ثم شرد جدي في حديثه يسرد قصة المخفي"

_هذا السي المخفي تروى عنه حكايات كثيرة لكن لا أحد يعرف حكايته الحقيقية ولماذا جن. لكنه بطل ثوري وأنا أشهد له بذلك.

حكاية المخفي والستين:

يحكى أنه حفظ ستين حزبا من القرآن في في ستين يوما.

حكاية المخفي وحسنة العورة:

يحكى أنه كان هناك فتاة اسمها خيرة مليحة القد شديدة الجمال في زمن المخفي، عيبها الوحيد أنها عوراء العين، أحبت المخفي وأحبها وعاشا أجمل قصص الحب وذات يوم دواها بأن دفل في عينيها، وحين رأته أحبته حبا شديدا. حتّى ماتت من حبها له.

حكاية المخفي والجن العاشق:

هذا المخفي يا بني، قد أوتي حكمة من الأجداد لإخراج الجن، وذات يوم في جلسة رقية، استحضر المخفي هذا الجن الساكن في إحدى فتيات القرية بعدما عانت تلك الفتاة مدة طويلة من العذاب وجرت معركة بين المخفي وهذا المارد العملاق الذي وصل طوله إلى طول الخروبة حتّى ظن من في القرية أن هذا المارد سيهلك كل من في القرية، إلا أن المخفي راح يقرأ بعض الأدعية والقرآن حتّى أحرقه في الهواء أمام شهود عيان من شيوخ القرية.

حكاية المخفي وحجرة الغولة:

_حجرة الغولة! هل تقصد.....

– نعم يا ولدي هذه الصخرة التي هي تحتنا، يحكى أن المخفي يوما كان يتلوا القرآن في المغارة داخل هذه الصخرة، لتبدأ الصخرة بالارتفاع من فوقه، وفجأة تحررت من داخلها جنية مسلمة وكجزاء له على صنيعه، سخرت له الجنية الصخرة ليطير بها ويذهب إلى الحج ويرجع.

_انتظر لا تخبرني أنها نفس تلك الغولة التي تسرق قض...

– جنية وليست غولة.

– وما الفرق بين الجنية والغولة يا جدي؟

– يقال جنية إن كانت مسلمة، أمّا إن كانت كافرة فهي غولة.

– ولكن إن كانت هذه الجنية مسلمة كيف تفعل الذي تفعله! أظنها غولة حقا.

– أظن أن المخفي حين قرأ عليها القرآن تابت عن فعلها وأسلمت.

– ولماذا لم تحرق مثل ذلك الجن العاشق لأنها كافرة مثله.

– الجن العاشق ليس كافريا بني، فالعاشق يصبح روحا بلا جسد لا طاقة له في التحكم بأفعاله.

– وهذا العشق يا جدي حرام أو حلال؟

– هيه يا ولدي لماذا هذا السؤال؟

– فقط عندي صديقي في المدرسة، وقع في حب فتاة، أصبح يكلمني عنها ليلا ونهارا. كلما طلب مني النصيحة لكي تبادله الحب، لا أعرف ما لذي أجيبه!

– يا ولدي الحب حرب الرابح فيها هو الذي ينسحب أولا.

– ماذا تقصد؟

– مثلما يقول الرومي:

Fuis le il te suit، suis le il te fuit

– يعني!

– أهرب تجري وراءك، اجري وراءها تهرب منك، علاقة العشق مثل خيط مطاطي يشده شخصان، إن أفلته أحدها يتألم الآخر، يعني أن في أي علاقة حب هناك عاشق ومعشوق، العاشق يتجرجر ويتألم حتّى يرضي المعشوق الذي يجلس ويستمتع بعذاب العاشق الولهان المغلوب على أمره. كما يقولون العاشق مذلول يا لقمان ولدي، العاشق مذلول.

– آه يا جدي، أين قرأت كل هذا، يبدوا أنك كنت قيس زمانك.

– يا بني هناك مدرسة أكبر من المدرسة التي تذهب إليها، هي مدرسة الحياة، تعلمك دروسا ثمينة والمقابل هو أن تأخذ منك سنين عمرك وتحرقها أمامك. أخبر صديقك هذا أن يركز على دراسته، فالحميضة وسط الحلفة تحسب نفسها

ياسمينة. أنت الآن يا لقمان أصبحت رجلا وأنت تذكرني بوالدك حين كان في سنك كان طائشا مشاغبا معظم قرارته متهورة. لكنه كان ينجو بأعجوبة من مواقف لا نجاة فيها.

لقد صرت رجلا بعدما كنت فتى صغيرا تخاف أن تخرج من البيت وتكتفي باللعب في ساحة المنزل. لأن أبوك كان يخاف عليك من علي الكيلو وأصحابه وأطفال القرية اللصوص الصغار. أذكر أني وجدتك ذات يوم...

وفي تلك الأثناء بدأ خيط الصنارة بالاهتزاز.

غير جدي من وضعيته وصاح:

_إنها سمكة...إن هذا الطعم مفيد حقا.

و أضاف ولمعة تلهف بادية في عينيه:

– هيا عزيزتي تعالي لأعانقك هيا أخرجي.

يهتز الخيط أكثر.

ثم فجأة بعد لحظات يفلت جدي الخيط ويترك السمكة تهرب منه ويجلس ليلتقط أنفاسه.

بحيرة سألته:

_لماذا يا جدي ؟ أظنك كنت قادرا على أن تصطاد تلك السمكة لو بذلت جهدا أكثر قليلا؟

ضحك ضحكة سخرية واستهزاء. بصق في الأرض ونظر نحوي بنفس الحركة برأسه التي أراني بها الطعم:

_نعم كنت أستطيع أن أصطادها حقا مثلما قلت، لكن هل تعلم لماذا أفلتت مني هذه السمكة؟

– هل لأنك لم تشدها جيدا!

– لا بل العكس، لأني سحبتها أكثر مما يجب. وهكذا هو كل شخص في هذه الحياة عندما تعطيه أكثر مما يستحقه، ينفر منك ويبتعد. ومن جهة أخرى لم أرد أن أبذل معها جهدا أكثر مما تستحقه الجهد الذي كنت سأبذله اتجاهها سيكفيني لأن أصطاد عشر سمكات أخرى أو أكثر مثلها لذلك تذكر جيدا أن كل الأسماك تستحق الصيد. لكن ليست كل الأسماك تستحق التضحية.

ثم رمى صنارته مجددا وأخرج سيجارة من جيبه وضعها بين شفتيه. ثم لاحظ أن ولاعته ليست في جيبه:

ثم نزع السيجارة من فمه ليعود لكلامه، وبنفس النبرة كأن شيئا لم يحدث عاد لحكايته:

_أتذكر ذات يوم أني وجدتك في ساحة البيت تلعب وحيدا، فتحت لك الباب وأخرجتك لتلعب مع الفتية ثمّ في المساء عدت باكيا وعينك منتفخة تشكي أمك.. جاءتني أمك وقالت:

– أنظر ماذا فعلت للطفل، ألا تعرف أنهم طائشون وصعاليك لا يفهمون سوى لغة العنف؟

فأجبتها:

– أنت لا تربين أنثى على ما أعتقد!

وكلما كنت أجدك تلعب وحيدا فتحت لك الباب، لتخرج تلقائيا من نفسك فيضربوك مجددا لتعود باكيا. ثمّ ذات يوم كنا في طريقنا لسوق الجمعة وأريتني الفتية الذين سخروا منك، أمسكتك من يدك وحملتك نحوهم وأخرجت رئيس تلك العصابة من الصغار اسمه طارق على ما أتذكر.

_طارق المارطو هو صديقي الآن ههه..

_ايه يا الدنيا، أمرتك بأن تعاركه أمامي وأخبرتكم بأني لن أتدخل

فمسح برأسك الأرض وضحكوا عليك. و أمّا أمك عيشة كانت كثيرة التذمر مما كنت أعرضك له من مخاطر، وكلما ذهبنا إلى السوق كنت تذهب لمعاركة طارق، كان يذيقك مرا ويهزمك مرارا لأنه أضخم منك وأكبر...حتى أصبحت لا تخاف لأنه لم يعد لديك شيء لتخسره كرامتك في التراب ولم تعد في البيت محروسا من طرف أمك، فأضحيت كلما لاقيت طارق تنقض عليه مثل القط في كل مكان وكل زمان أينما لاقيته حتّى أصبح يتحاشاك وأصبح الفتية الآخرون يفعلون كذلك.

"اضرب الرأس تتألم البقية أحكم الرأس تحكم البقية "

هذا ماكنت أخبرك به كلما ازرقت عينك ونزف أنفك من لكمات طارق.

فأضحيت تخرج مرفوع الرأس لا تخاف أحدا وأصبحت رجلا حرا منذ صباك، الضربة التي لا تقتلك ماذا تفعل لك؟

– تقويك.

– أحسنت يا بني، لا تنتظر من هذا العالم أن يصنع منك رجلا...اصنع عالما يجعل منك رجلا يا بني.

_أريد أن أسألك ياجدي، ما قصة المسدس الذي تحمله. وكلما ذهبنا إلى الصيد تحضره معك!

ثم أمسك جدي المسدس وأخرجه من جيبه:

_هذا المسدس أنقذني من الموت مرات عديدة، وكاد أن يقتلني أول مرة، سأحكي لك كيف بقي معي وربما لن تصدق القصة:

_عام 1960 قبل اندلاع الثورة التحريرية، كنت مجاهدا ضمن جبهة التحرير الوطنية في جبل دوي. اختطفني مجموعة من الفرنسيين وجعلوني خادما عندهم

في باركانوا يتسلون فيه سهرة كل مساء وهو نفس البار الذي هو مقهى الآن والذي علق فيه المخفي رأس الضابط ڤامبو، كانت آخر ليلة فيه حين دخل خمسة من الجنود الفرنسيين الباروكانوا في حالة سكريرثى لها. وقرروا أن يلعبوا لعبة الروليت الروسية.

_الروليت الروسية

_نعم الروليت الروسية هي لعبة حظ مميتة نشأت في روسيا. يقوم الشخص الذي يود القيام بها بوضع رصاصة واحدة في المسدس، "ثم فتح جدي المسدس وبدأ يريني كيف تتم" ثمّ يقوم بتدوير الأسطوانة هكذا "وأغلق المسدس بخفة يد ودور ماسورته" التي يمكن أن تحمل ست رصاصات، يدير الماسورة عدة مرات بحيث لا يعرف ما إذا كانت الرصاصة ستطلق أم لا، ومن ثمّ يوجه المسدس نحو رأسه "ووضع المسدس في رأسه" ويسحب الزند"ثم وضعها في رأسي وضغط الزناد وكان المسدس فارغا. شعرت بشعور غريب ومريب لا أستطيع وصفه" فإذا وضع رصاصة واحدة فإن احتمال موته هو 1 من 6، أي 16 %.

_لكن لماذا يلعبون هذه اللعبة؟

_ تستخدم هذه اللعبة لعدة أسباب، منها الانتحار أو إثبات الشجاعة. نشأت اللعبة في روسيا عندما لعبها الجنود الروس لإثارة بعضهم البعض. وهذا ما نقله عنهم الجنود الفرنسيين تقليدا كما تعتبر لعبة الروليت الروسي إحدى وسائل المقامرة وتكون بتحدي بين شخصين يتناوبون الإطلاق، لحين موت أحدهم، فيأخذ من نجا أموال الذي أطلق النار على نفسه. وفي تلك اللية كانوا عازمين على لعبها لتسوية حسابات عالقة بينهم وبما أنهم كانوا خمسة واللعبة تلعب بالزوجين وحتى يكونوا ثلاثة أزواج. أرغموني على اللعب معهم. فكانت الرؤوس تنفجر أمامي وأنا أنجو بأعجوبة كل مرة. ومن بين الستة كنت أنا الناجي الوحيد. هربت من الحانة وأخذت المسدس معي وكلما رأيته أتذكر تلك الليلة ولن أنساها.

_وهل لعبتها مجددا!

_نعم!

_وما هو سر نجاتك في كل مرة.

_حامية. حامية.

_ماذا؟

_أكمل...حامية وش..

_حامية، شافية، عامية.

_نعم هي حامية.

_لكن كيف هذا يا جدي؟

_ستعرف سر تلك القلادة يوما يا ولدي.

_أريد أن أعرف الآن.

ثم ابتسم ووضع المسدس في يدي:

_هل تريد أن تلعب معي حتّى تعرف كيف؟

حامية. شافية. عامية

– هل علي أن أكتب كل هذا؟

سألتها وهي غارقة تنقل كتابة الدرس من السبورة. أجابت دون أن تلتفت نحوي:

– نعم هكذا قد اتفقنا على تقسيم العمل. أنت تهتم بالرسومات البيانية والتعليق عليها في شرح مختصر. وأنا أهتم بالباقي. أظنك تحب الرسم أليس كذلك؟

– طبعا أحب الرسم وأشياء أخرى مثلك أنت...

– ماذا قلت؟

– لا شيء. فقط قصدت أني أحب الرسومات الفنية وليس هذه الوثائق البيانية للجهاز التناسلي لدى الفأر وعلى فكرة لماذا لم يأخذوا جهاز تناسلي للإنسان وندرسه فهذا يكون أقرب للفهم وأوضح. أووف من هذه المنظومة التربوية يدخلون الدين والسياسة في كل شيء.

ردت مبتسمة في وجهي بأسنان ثلجية مصطفة ومتراصة كأزرار بيانو.

– أكمل الكتابة وكفانا فلسفة. فليس وقتها!

تذكرت لما كنت مع مروان أني كنت في نعمة. كنا نكتب أسمائنا فقط والعمل الآخر تتكفل به سارة التي كانت لا ترفض لمروان طلبا.

ثم بعد لحظات. التفتت نحوي وكانت ترتدي نظارة زادتها رقة وأنوثة:

– حسنا سأكمل كتابة كل الدروس وأنت تتكفل فقط بالرسومات

لما سمعتها طارت الفرحة من عيني لكني لم أبدها لها لأني أعرف أن هذه الجملة سيتبعها شرط:

– لكن.

ومن محفظتها أخرجت الرسمة.

– عليك أن تكمل رسمتي

في تلك اللحظة أحسست بأن تلك الرسمة هي مفتاحي الوحيد نحو التقرب منها، وتذكرت نصائح جدي بأن أجعلها هي الحديدة وأنا المغناطيس.

– لا.

نظرت نحوي بنظرة غريبة صمتت معها أنفاسها وملامحها. أزاحت بعض خصلات الشعر المنسدلة على وجهها وواصلت الكتابة دون أن تقول شيئا. ثمّ بعد لحظات. وضعت ورقة فارغة أمامي وبجنبها قلم رصاص.

– إذن أرسم أي شيء من أجلي. أريد أن أراك وأنت ترسم هيا!

– أنا أكتب!

– لا تقلق أنا سأنهي لك كتابة الدرس في المنزل!

فكرت أنها صفقة مربحة على الجهتين. أمسكت الورقة وبدأت أخربش بأول شيء خطر على بالي وأميمة بجنبي ورجلها تكاد تلمس رجلي وهي تضع يدها على خدها وتراقب بصمت وقد نزعت نظاراتها ووضعتها على الطاولة. كنت أتعرق مع كل خط أرسمه. أحاول إخفاء تسارع أنفاسي أمامها، دائما ما أظهر لها الفتى الهادئ صاحب الكاريزمية وليس ذاك الفتى القروي صاحب الأفكار الهائجة.

أتمت الرسمة بدقة. لأني فضلت أن أرسم شيئا أحفظ شكله جيدا مثلما أحفظ شكل وجه المشاهدة الحسناء. لذلك اخترت أن أرسم قلادتي التي فقدتها في

تلك الحادثة يوم أنقذت الرجل من الغرق ولما أتممتها وضعتها أمامها، فبدت على وجهها ملامح الدهشة والحيرة. ثمّ بلهجة مندهشة ومفزوعة وهي تضع يدها على صدرها للتفقد شيئا ما.

– قلادتي!

– ماذا تقصدين؟

– هذه قلادتي. كيف عرفت شكلها وأنا لم أظهرها لأحد هنا! كيف عرفت كل هذه التفاصيل التي فيها؟

تعجبت من كلامها وحاولت أن أتبين صحته.

– ما خطبك، هذه قلادتي أنا.

– آه. آه انتظر! ربما لك قلادة مثل قلادتي. أنظرها هي قلادتي.

ثمّ فتحت أزرار مئزرها وأرتني القلادة، استغربت من الأمر لأنها كانت نفس قلادتي وتحمل نفس الرموز وبذلك تيقنت أنها قلادتي وليست نسخة عنها. وهي متوارثة في عائلتي فقط، أردت أن أعرف أين وجدتها. فمشيت معها في فكرة أننا ربما نملك نفس القلادة. فسألتها:

– ومن أين حصلت عليها

– قصة طويلة!

– احكي لي أنا أسمعك أميمة "وكانت تلك أول مرة أنطق فيها أسمها مباشرة"

– في الحقيقة إنها هدية من أبي سلمها لي يوم عاد إلى المنزل مبللا بالكامل وهو يسعل ويكح والدماء تسيل من رأسه. أمسكته وقد سقط عند الباب. قبل أن يفقد وعيه ظننت أنه سيموت فرحت أبكي على صدره.حتى فتح ذراعي وسلمني هذه

القلادة، وأخبرني أن هذه القلادة ستحميك من كل شر وأذى مثلما حمتني أنا. ثمّ عندما استيقظ حكى لي القصة وكيف أن أحدهم دفعه من على الجسر فسقط في مياه النهر الجارفة وتشبث بصخرة يواجه الموت. حتّى تدخل أحدهم فجأة لينقذه وأخبرني أبي أنه مدين لذلك الشخص بحياته. وهذا كل ما وجده في المكان عندما استيقظ ولم يجد ذلك الشخص وكل ما تبقى منه هو هذه القلادة.

–سبحان الله تلك هي نفس الكلمات التي قالها جدي وهو يهديني القلادة يوم ختاني.

_ماذا قال لك جدك!

_هذه القلادة ستحميك من كل شر.

–هل تقصد أن هذه قلاتك؟

_نعم.

_إذن أنت من أنقذت أبي؟

قالتها وهي تنظر نحوي بعينين لامعتين

هززت رأسي بنعم.

– نحن مدينون لك بالكثير يالقمان. وأبي سيفرح عندما يلتقيك لأنك أنقذت حياته.

ثم نزعت القلادة من رقبتها وفتحت كفي وأرجعتها لي.

– لا. لن آخذها.

_إنها هدية من جدك. عليك أن تحافظ عليها.

_إنها هدية من أبيك عليك المحافظة عليها

_إذن

_عندي فكرة.

ثم عقدت حاجبيها مستغربة.

ثم وقفت من ورائها. أزحت شعرها الذهبي من على رقبتها. وكانت تلك أول مرة ألامس شعرها الحريري ويدي تلامس رقبتها المنحوتة، بحركة بطيئة كسرت القلادة إلى نصفين أخذت نصفا وتركت نصفا في الخيط. تشجعت لأقترب من أذنها وبصوت خافت. وضعت القلادة حول رقبتها:

–هذي حامية وشافية وعامية.

رددي ورائي:

رفعت حاجبيها مستغربة من الكلمات التي قلتها.

_حامية وشافية وعامية.

كررتها بنبرة هادئة كطفل صغيريحاول تعلم الحروف أول مرة ثم التفتت نحوي وقفزت لتعانقني دون تردد،. رأسها وقع على صدري لأول مرة. وروحها على روحي ورائحة شعرها تسكرني. شعرت بذراعيها وهما تضغطان على ظهري. وأنا متجمد كجبل من غباء وزجاج لا أعرف ماذا أفعل في تلك اللحظة. ولما انسابت حرارة جسدها نحو جسدي. ضغطتها بين ذراعي أكثر. كأني أعانق العالم. كأني ولدت من جديد. لم أكن أتوقع من أن تهدئ دقات قلبي لو حدثت تلك اللقطة، لكن أحسست أنه خفيف ولا يكاد يخفق. بدت السبورة الخضراء أمامي مرجا أخضرا وقطع الطباشيرنعجاتي وأنا أرعى بهم وأعانق أميمتي بين ذراعي وأهش على غنمي. أحسست أني موسى قبل أن يصعق. ونوح لما نجى من الغرق.

توقف الزمن في ذاك العناق وأصبحت كل الأشياء تذوب في عيني، أحسست أني طفل بين أحضانها أحسست أني ريشة حمامة تلعب بها أيادي الريح. أحسست أني حي لأول مرة.

***

وأنا عائد إلى القرية بروح طفل صغير قد ولد لتوه وجدت ثلاثة أشخاص يرتدون بدلات سوداء رسمية ويضعون نظرات شمسية سوداء. يقرعون باب المنزل. يحملون في أيدهم مجموعة من الأوراق.

– نعم ماذا هناك!

– هل أنت لقمان ابن الهواري الصابري؟

– نعم أنا هو.

– دون أن نطيل عليك. أعلم أن أبوك الهواري قبل أن يموت قد رهن هذا المنزل وقد خسر في الرهان أمام سيدي. وها هي أوراق ملكية المنزل والاتفاق ممضي من طرف أبيك، ونظرا لحالتكم قد يقبل سيدي بمبلغ مالي مقابل المنزل.

– منزل. مبلغ! "لم أفهم ماذا يقوله الرجل. لكنه كان يتحدث بجدية وصرامة ولم يبدو عليه أنه كان يبالغ في كلامه"

– نعم في التقدير. على حسب الموقع وحالة البناء. المنزل يقابل خمسمائة مليون سنتيم.

– آه ماذا تقول خمسمائة مليون. هل تعرف أن... من أين...و...

ثم وضع الأوراق في يدي وهم بالانصراف قائلا بلا مبالاة كأن هؤلاء الناس مثل الروبوتات مبرمجون على كل ما يقولنه دون مشاعر.

– أسبوعان في يدك.

ثم ركبوا سيارة سوداء وانصرفوا بعدما تركوني وسط الغبار وفي يدي الأوراق ومتاعب أبي الذي لا تزال تلحقني حتّى بعد مماته.

مذكرات مشعة

الحدائد للشدائد

منذ اليوم الاول الذي عرفت أني مصاب بسرطان الرئة أصبت بالذهول. لم أصدق. لم أكن أشعر بأني مريض، رفضت أن أرضخ قلت لنفسي أنه من غير الممكن أن يصيبني هذا المرض إنه يصيب الآخرين فقط. يصيب من يأكلون الأغذية الصناعية المعلبة، يصيب من يستنشقون غاز المصانع والسيارات وهواء المدينة الملوث. لم أقبل بأن أفقد الحق في الحلم بالغد.

قررت أن من سيخضع للعلاج هو البديل مني.

هل فكرتم مرة في أن من يعاني من مرض السرطان يشعر بالخجل أمام الأصحاء، وكأنه فقد حقه في تحدي الحياة؟ يقرأ في عيونهم شفقة لا يحاولون إخفاءها. لم أكن في حالة قبول للواقع، إلى أين أذهب؟ الواقع يطبق عليّ ويفرض علي بروتوكولا جديدا يحدد تحركاتي وتصرفاتي وضوابط جسدية تحد حريتي. لا أعرف كيف يجب أن أتعامل مع الموضوع. غريبة هي الدنيا وغدارة. كدت أقف اليوم في وسط المقهى لأقول للجميع: انظروا إلي جيدا، هذه الحلقات السود التي تكحل عيني، إنها بسبب السرطان الذي سكن داخل عظام قفصي الصدري وتوسد رئتي الزهرية، ليست سوداء مثل رئة مدخن، أنا لا أدخن حتى! لماذا يا ربي!

اليوم صادفت أمي في الطريق، تبعتها وقبل أن أصل عندها، دخلت محلا لبيع المجوهرات، انتظرتها أمام المحل حتّى خرجت، أمسكتها من ذراعها:

– ماذا تفعلين، هل جننتي!

– أنت من جننت، هل تريدني أتركك لتموت؟

– لكن يا أمي هذا كل ما تملكين! أرجعي ذهبك!

– لا تشغل بالك يا عزيزي، الصح في صحتك و"الحدايد للشدايد" هيا نتمشى.

لوحة من الفن والتراث

أحمل القفة وأضع قشابيتي الوبرية البنية على ظهري، أنزلق من البيت كحلزون ينتظر تبلل الأرض ليخرج ويزهو، طريق القرية تزدحم بالحلزونات في فصل الشتاء، تصبح معبر حب للحلزونات البرية على العشب في حواف الطريق بلا مبالاة تداعب بعضها، تتقلب وتمارس الحب بشغف تحت حبات المطر المتلألئة فوق سطوح جلدها الأملس. لتطفي لمعانا وبريقا كأنه قفز من عصر الإغريق والطقوس السحرية. أتمنى في كثير من الأحيان أن أكون حلزونا أحمل بيتي على ظهري وأتمرغ أينما شئت، أمارس حياتي بالعرض البطيء. حياة الحلزونات طويلة ماتعة بالرغم من أن مدى عمرها قصير.

هذا الهواء الصباحي وهذه الأكواخ الخشبية وهذه الطرق المحفرة التي تلد حفر الماء الضحلة وهذه الأزهار المسترخية مشبعة بالماء راكعة كأنها تعبد الله وتحمده على هذا الصيب النافع، هي هوية لقرية البلبال العريقة، رائحة الخبز الصباحي والمطلوع الطازج كثورة لذيذة تحتل حاسة شمي فتثير لذة مالحة ومخمرة تحت لساني.

عابر بين البيوت بين ثرثرة الأولاد الصغار يلعبون الغميضة والشيوخ كعادتهم قدام مقهى "بن هاشمي "يلعبون الدامة ويحتسون الشاي الأخضر، ويتحدثون عن أخبار القرية والبلد.

ببطء أخترق بخار الأفران ومداخن الأكواخ والكوشات الطينية الحزينة.

– صباح الخير يا ولدي!

قالها الشيخ عدة خارجا من كوخه الترابي، يلف عمامته الصفراء على رأسه ويرفع سرواله العربي "يطلقون عليه تسمية سروال لوبية لشكله الشبيه بحبة الفاصولياء أو اللوبية" حيث أن له جيبا واسعا عريضا بين الفخذين..

– صباح الخير عمي عدة...كيف أصبحت؟

أقولها وأنا أقبل رأسه بعدما لف عمامته وعصب بها رأسه. تقبيل رأس الكبار احتراما هي عادة متوارثة:

– والله يا ابني حالي ما تعجب.

– غير الخير؟

– فاتني الفجر وما قويت أنهض له...أحس بروحي تعبان شوية.

ثم واصل كلامه وأقحم يده يبحث عن شيء في جيبه!

– المهم. يبدو لي أنك في طريقك للسوق، هاك خذ، في طريقك أحضر لي معك كيلو كسكس والباقي..عندما تلحق للدار أحضر لي قارورة لبن.

قالها وهو يحك بطنه المنتفخة. ثم استرسل يقول:

– أنت تعرف من دون اللبن الذي تخضه أمك لا يحلو لي الكسكس

ابتسمت ثمّ ودعته متجها نحو السوق.

السوق الأسبوعية ككل يوم جمعة يجتمع فيها سكان القرية وسكان المدينة، سكان الدوار وسكان القرى المجاورة "بوراشد، المخاطرية، عريب، العطاف، بطحية، الحسنية، بلعاص الخ.."باعة الخضر وباعة البقول، باعة الماشية وباعة الخردوات، باعة العقاقير. الدجالون واللصوص وباعة الوهم والأخيار والأشرار كل شيء يباع هنا. أو كما يقول لي جدي:

– كل شيء يباع في سوق الجمعة ما عدى أمك وأبوك!

كانت السوق تقع بين المدينة وقرية البلبال أي هناك يجتمع الأثرياء والفقراء، باباها حديدي واسع، بجنبه لافتة كتب عليها دعاء الدخول للسوق، عند عتبة باب السوق أول ما يتناهى لسمعك..

– يالله... عمر دارك يالزوالي....عمر دااااارك!

كان عند جانب الباب الواسع واقفا وسط كومة من الأواني والصحون والدلاء البلاستكية يلوح بغربال ومقلاة ويردد بصوته المبحوح.

المكان مكتظ مختنق لا تكاد ترى أين تضع رجليك من فرط الزحام. بعد أمتار أخرى:

– أرفد أرفد سلعة اليوم ما شي كل يوم!

و جاره من هناك، يردد في ميكرفون ويعلى صوته على الجميع بفضل القليل من التكنلوجيا القديمة والبسيطة من نوعها إلى أنها أحدثت الفرق:

–دواء...الطومبات...الفيران...البرغوث...البعاعش...الزرزومية...

القرلاوات...الناموس. لي عنده القملة في الراس. لي عنده الحكة في الجلد.

كان يعلن عن سلعه من الأدوية الكيماوية والخلطات العجيبة ويلتف من حوله نفر من الأعراب. ليس لأنهم يعانون من مشكلة الفئران أو الحشرات. بل فقط من أجل الفضول ومن أجل أن يحشروا أنوفهم في تلك المعمعة من خذ وهات.

و هو بدوره يستغل الموقف كإعلان مختلف لسلعته.

يرد على أسئلتهم حاملا ميكروفونا بيده. وعندما يلاحظ أن عدد المشترين بدأ بالانخفاض والناس بدأت تمل منه يعاود الكرة. يعاود التبراح من جديد وبنبرة جديدة ونغم ملفت. يلحن جمله قليلا ويقولها كأبيات من الشعر الملحون وهذا ما يتشعب في رأس. و يلصق لحنه على المرتادين للسوق. وتراث أهل البادية وهكذا يستغل قلة حيلتهم يشدهم من أقرب خيط لذهنهم المتبل بالامتثال والحكم من شعر وحكايا وخرافات شعبية، تكاد هذه الهرطقات والبدع أن تكون مقدسة عندهم والذي يحيد عنها يرى بمنظار التمرد وينزع عنه وسام الأصالة.

ويبدو في عيونهم غريبا لأنه لم يتبع بركة الجدود والجدات والأولياء الصالحين.

وهذا البائع مشهور بتبراحه بكلمات إنجليزية وفرنسية كي يبدوا في نظرهم شخصا مثقفا لذلك ينادونه بحميد الرومي.

– إني هنا!

– je suis la!

–! i am hire

تحصل على هذا اللقب فقط لأنه يكرر جملة من كلمتين بلغتين مختلفتين يستغل جهل الشعب.

علي اختراق كل هؤلاء الباعة الدجالين لأصل لمكاني المعهود، قرب حلقة مضاربة العصي الخيزرانية.

– جرّب جرّب في البلاص تريح...عرق لاسان...البرد في الركايب لي ينوض في الليل ولي ضاربو حمار الليل..الخلطة فعالة ومجربة.

ذاك الشيخ بن ميرة أو كما يحلو لبعضهم تلقيبه "ميرة بن سينا" كان هناك تدافع وتطابع وهرج ومرج كثيرمن حوله ضرب بالعصي لشراء تلك المراهم والخلطات الغريب والعجيبة.

"تحت شعار كور وأعطي للأعور "

الآن عندما كبرت فهمت قول جدي:

كل شيء يباع في سوق الجمعة.

كان عجوزا طاعنا في السن مشمرا على منكبيه ويخطف الأوراق النقدية من أيدي الشيوخ الكبار، حتّى الرجال منهم المتزوجون بحجة أن هذه الخلطات تعيد

الخصوبة لأصلابهم أو تعيد إحياء أرحام زوجاتهم، غريب وعجيب أمر بني جلدتي هؤلاء. حقا يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعل العدو بعدوه.

بلغ منتصف النهار والشمس في كبد السماء، بدأ الناس في الرحيل من السوق، وقت الغداء وبعده وقت صلاة الجمعة، بعت مطلوعة واحدة، وذلك لأن السي المخطار، صاحب المخبزة أحضر سلات الخبز ووضعها بجنبي وباعها بنصف الثمن الذي تباع به في المخبزة، لأنه خبز صابح، عدوي اللدود هذا المخطار، يبيع وينظر إلى بنظرة استشفاء، حملت قفة المطلوع وانصرفت، يفرجها ربي في المساء سأبيع في سوق الخضار بالمدينة.

– بيننا الأيام يا خبيث.

ينظر إلي نظرة اشمئزاز:

– ما زلت قديما. بقيت أنت وأمك فقط من تأكلون هذا المطلوع السخيف!

اقتربت منه بهدوء، نظرت في عينيه، ماذا قلت؟

_أنت وأ....

قبل أن يكمل جملته قفزت ونطحته برأسي على أنفه "كان أطول مني".

– هذه من أجل المطلوع!

ثم ضربته بين ساقيه أوقعته أرضا، ليتدخل الناس بيننا من أجل الحد من العراك.

– وهذه من أجل أمي، يا رخيص!

مشيت أجر قفتي والغيض يتطاير من عيني، شعرت بالجوع، دخلت إحدى الخيمات في وسط السوق، التي يباع فيها السفنج "الخفاف"، أدخلت يدي في جيبي

أخرجت عشرين ديناروسعر حبة السفنج ثلاثين دينار، اقتربت من البائع وأخبرته أن لدي عشرين دينارفقط، لم يلتفت نحوي البائع منتفخ البطن، بدى مشغولا بزبائنه.

هذا كل ما أملكه لا شيء عندي أعطيك سوى دراستي أو فني، سوف أفيدك في مسألة حسابية أو أستطيع أن أعطيك رسمة أو أرسمك نعم أستطيع أن أرسمك.

– لو كان فنك هذا ينفع لكسبت نصف دينار من أجل إكمال سعر حبة "سفنج "وهذه الرسومات حرام هل تعلم أن الرسم حرام.

اذهب وانقع رسماتك بالماء واشربه حتّى تشبع!

كانت كلمات البائع أشد من ضرب الحسام على نفسي، فخرجت من محل البائع وأنا أجر أذيال الخيبة "نعم صحيح لو كان علمي ينفع لكنت أملك سعر حبة خفاف سخيفة. لماذا أدرس على كل حال؟"

لا يعرف قيمة الذهب إلى الصاغة

بعد أسبوع.

لاحظ الأستاذ بن جازية مقعد مطلوعة فارغا. سأل تلامذته عن سبب تغيبه؟

فرد عليه التلاميذ إنه تخلى عن المدرسة ليتفرغ للعمل في مقهى القرية.

استغرب الأستاذ بن جازية وسأل عن مكان إقامته.

أخذ الأستاذ عنوان مقهى بن هاشمي أين يعمل مطلوعة ودخل المقهى وأمر بكأس شاي. سمع مطلوعة النداء. حمل كأس الشاي للرجل ليفاجئ بأستاذه، طأطأ رأسه خجلا، أمره الأستاذ بالقعود:

– لماذا تركت المدرسة يا ولدي قل لي؟

فرد عليه مطلوعة ساردا القصة كاملة وحزن فراقه للمدرسة يظهر في نبرة صوته.

– إذن هذه هي القصة، خذ إليك خاتمي هذا اذهب وبعه وأصلح به حالك قليلا إلى حين يفتح عليكم ربي.

رد مطلوعة:

– ليست القصة قصة خاتم ونقود إنما أنا كرهت المدرسة لأني لم أنتفع منها، وكرهت الفن لأنه لا يسد جوعي ولا يداوي مرضي الجسدي بقدرما هو يداوي مرضي الروحي.

– وحتى هذا الخاتم ليس من أجل العودة إلى دروسك بل من أجل أن تفك الضيق عنك قليلا فقط، وستعرف مقصدي منه لو بعد حين.

فقبل مطلوعة هدية أستاذه وسار إلى محلات الصاغة وهناك عرض الخاتم للبيع.

استغرب الصائغ وقال:

– أشتري منك الخاتم بعشرة آلاف دينار ولكن من أين لك هذا الخاتم؟

فقال:

– كيف من أين لي بهذا الخاتم، هو هدية لي من عند أستاذي "بن جازية".

قال الصائغ: هذه الخاتم نادر وثمين لا أظنه هدية! وشكلك لا يوحي بأنك تعرفه وملابسك رثة! أخبرني من أين سرقت الخاتم؟

فرد مطلوعة غاضبا من تشكيك الصائغ به:

– هيا معي إلى أستاذي إذن من أجل أن تصدق أنه هدية منه.

وذهب الصائغ مع مطلوعة وقابلا الأستاذ حتّى اطمئن من صدق مطلوعة.

أعطى الصائغ ثمن الخاتم إلى مطلوعة وتوجه إلى أستاذه ليشكره.

فالتفت الأستاذ لمطلوعة وهو يضع يده على كتفه:

– قل لي يا بني أين ذهبت عندما أردت بيع الخاتم؟

– إلى محلات الصاغة بالطبع.

– لماذا ذهبت إلى محلات الصاغة؟

– هناك يثمنون الخواتم والمعادن الثمينة!

فرد عليه الأستاذ متعجبا:

_ولماذا إذا قبلت أن يثمنك بائع سفنج في السوق ويثمن فنك؟ هل يثمن بائع "خفاف "فنك؟

_اسمعني يا بني لا يثمن الشيء سوى من يعرف قيمته. ولا يثمن قيمة الذهب إلى الصاغة.

وأنا أثمن أنك من أذكى طلابي يا بني. فلا تدع من لا يعرف قيمتك يثمنك. التثمين يكون من صاحب الخبرة ومن يعرف قدرك، ارجع إلى المدرسة وأنا بانتظارك.

المخفي

ضاقت علي الدنيا بما رحبت وتآمر الوجود ضدي أنا ابن الهواري اللاز، الذي أورثه هرموناته بما فيها من أمراض أورثتها له السموم التي كان يشربها ويتناولها، أورثني حظه العاثر. لم يورثني وصية بها مال أو أرض كما الناس بل أورثني دينا ثقيلا. آه يالهواري أنت ما تسمح لي تحت التراب وأنا ما أسمح لك فوق التراب.

في مقهى السيد جمال "بن هاشمي "الذي أصبح ملكا للسي جمال.

أوقات فراغي من العمل كنت أجلس أمام نافذة تفصل بين المقهى والقرية. بين المدينة والقرية ومن هناك أنظر للمدينة وأتساءل عن حال مدرستي وحال أصدقائي وحال أميمتي.

أجلس وحيدا أنظر للطريق الوطني الذي يفصل بين قريتي العجوز والمدينة المشوقة، لأجد كل الجزائر تتحرك أمامي بشكل جميل، تراها مازالت أم حوَّلُوها كما تحولت الكثير من الأماكن الجميلة جعلوها أكثر حداثة، البلد كله أصبح يقتلع الأشياء والأماكن، تراه لماذا هذه العداوة الغريبة لذاكرتنا، لماذا نطمس كل تاريخنا بالرخام، لماذا لا تزال قريتي تحافظ على عروبتها رغم بداوتها، ولا تزال تحافظ المدينة على تفرنسها رغم التمدن، هنا الناس بسطاء رغم فقرهم تلاحظ السعادة على محياهم ناس النية والتعاون، أمّا في المدينة ورغم رخاء سكانها تراهم يجرون وراء الحياة لاهثين وعلى ملامحهم يبدون لك أنهم يثرثرون ويختالون على بعضهم بعض، قانون البقاء لا ينطبق في قريتي رغم أنها غابة في طبيعتها ولكنه ينطبق حتما في المدينة.

في المساء تعج المقهى بمجاهدي القرية تراهم يَتَحَلَّقُون حول "الشيخ عدة "سمعت من جدي أنه كان محاربا كبيرا وقاسيا، كان يكفي أن يوقع لأحد ورقة صغيرة لتعطيه الدولة شهادة المشاركة في الثورة، كان "الشيخ عدة" غريبا لم أره يحضر الاحتفالات المخلدة للأعياد الوطنية، سمعته يقول أنه لا يحب المتاجرة بالدماء التي

سقطت لوجه الله والأرض، لا يجب أن يرى أصحاب الكروش المنتفخة ولا المنافقين يلعبون بتلك الدماء ليحولوها إلى مصدر سرقة للتاريخ، لقد استقال "عمي عدة" من كل شيء إلا من الذاكرة، الشيء الوحيد الذي لا يمكننا الاستقالة منه هي ذاكرة الوطن.

لازال شاشه الأصفر وعصاه الجوزية وجلسته التركية تدوي بقوة ذاكرتي، يكفي أن يقول كلمة واحدة لتجد العشرات ملتفين حوله، ما زلت أذكر قصته لي حين سألته يوما عن اسم شارعنا، آسف لم تكن تنطبق على شوارعنا تلك الصفة، كان عبارة عن دروب صغيرة تقودنا إلى دورنا التي تشبه "الحْواري القديمة".

قلت له:

عمي عدة، لماذا سمي حينا ب "البلبال "؟

فقال لي:

_قصة طويلة يا بني. أحضرلي مشروبي كالعادة وتعالى أقصها عليك؟

أحضرت له زنجبيله بالليمون وقعدت بجانبه.

قال:

_هل تعرف ما لذي دفع المجاهدين للصعود إلى الجبل؟.

أجبته:

_حب الوطن طبعا.

رد مبتسما:

_لا يابني. قبل هذا النخوة والشرف والحرمة...

ثم صمت قليلا وأتبع كلامه:

_عندنا النيف ياولدي عندنا النيف. عندما ترى أولاد الرومية يقتحمون دارك وينتهكون عرضك وحرم عائلتك أمام وجهك تشتعل من الداخل وتريد الإنتقام لأجل عائلتك لأجل حبها، فهذا الوطن لم يعطنا شيئا وكانت عائلاتنا هي وطننا وهي كل ما نملكه أوليست العائلة وطنا صغيرا؟

"ما يبقى في الواد غير حجاره "

"ما يبقى في الواد غير حجاره "

ثم صمت الحاج عدة قليلا وراح يسمع النداء ويراقب المخفي وهو يجر عصاه الخيزرانية. حتّى اختفى من مرآنا.

ستفهم ما قصدته لك بأن ما دفع الرجال للجهاد قبل حب الوطن هو حب وطنهم الصغير هو النخوة والشرف والنيف والنيف.

هل ترى هذا الدرويش الذي عبر أمامنا الآن كان عظيما بقدر جهاده، لم يكن يتصور الفرنسيون أن عين الدفلى هذه المدينة الجميلة سيحولها "المخفي" إلى مدينة دموع، كان كل يوم يقوم بعملية تجعل فرنسا تبحث عن شبح، أوكأنها تطارد ظِلا لم تكن تعرف أن مجموعة من ثلاثة أشخاص هي من تقوم بذلك، أنا وهو وجدك، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي تعرفوا عليه، داهموا بيته ليجدوا زوجته "حسنة "تلك الشابة الجميلة، وجدوها بين أولادها تناغي هذا وتلاحق ذلك، لم تعرف المسكينة أن مصيرا مجهولا ينتظرها.

سمعت الصراخ، ضجيجا، سكت الأولاد، كان" المخفي "دائما يضع بندقية صغيرة بالبيت للاحتياط، بسرعة فائقة وضعتها في قماط ولدها الصغير صاحب الشهور المعدودة لفقته جيدا، لتقتحم أرجل العدوباب البيت، لم تفهم شيئا سوى أصوات العسكر، والصراخ، وبعض الجنود يفتشون البيت إلى أن جاء الضابط الفرنسي قائلا:

_ أين زوجك؟

حسنة واجمة من المشهد المرعب.

ليعيد الضابط:

_ أين المخفي؟

تقول مرتجفة، تحتضن أولادها.

_لا أعرف لا أعرف...

يعود جنديان صغيران يمثلان أمام سيدهما.

_لم نجد شيئا سيدي.

الضابط بنظرات خبيثة:

_أحضروا هذه الكلبة.

اقتلع الجنديان حسنة من حضن أولادها، بكاؤهم يعلو، تضع حسنة ولدها الرضيع في حضن أخته الصغيرة، لتُحمل إلى مركز التعذيب.

هناك ياولدي في قرية الحركي، لا يزال صراخ حنجرتها يعانق الحيطان لم تكن لتبالي بنفسها هي التي لم تكن تعرف أن زوجها مجاهد، إلى أن اكتشفت يوما تلك البندقية التي ترقد في حضن ولدها الرضيع، لم تقل شيئا استسلمت للقدروكفى.

للثورة أسرارها الفظيعة التي تضطرك أن تخفي أمر انضمامك لها حتّى عن زوجتك أو أبيك أو أمك، قدر رهيب وصعب، تلك المرأة العنيدة، تعرضت لأقسى أنواع التعذيب، تخيل أنهم نتفوا شعرها من جلدته حتّى أصبحت صلعاء ورأسها مثل كرة دم. وهذا الضابط "ڤانبو"الكلب، بكلابته اقتلع رباعية أسنانها حتّى تفشي مكان اختباء المخفي زوجها، ولم تفعل. لا أعرف، حين تكون جزائريا تفهم لماذا هذا الإصرار.

بعد أيام خرجت حسنة من العذاب منهكة، غائرة، لتجد أولادها، التحقوا بالجبل. تبعوا والدهم بحثا عنه وبحثا عن وطنهم المسلوب، فرنسا أحرقت كل جبل "دوي "ولم تجد أثرا لهذا البطل، حتّى أطلقت عليه اسم المخفي، وما كان من هذا الضابط الفرنسي الحقيرإلا أن يقوم بخطة يستدرج بها المخفي إلى كمين حتّى يظهر. فقام بإحضارزوجته حسنة ووضعها في حقل الرماية هناك "وأشارالحاج عدة بيده إلى مقلع الحجارة". أحضر جنوده وأمرهم بالتصويب على حسنة ومن يصيبها في رأسها. سيقوم بترقيته.

على بعد المئة متر حسنة تركض حافية ممزقة الثياب والضابط النذل يبتسم ويكشرعن أنيابه وهو يشرب قارورة البيرة. وعندما يصيبها أحد الضباط في رأسها، يطلق جملته الشهيرة بالفرنسية.

—_Belle balle

ولهذا سميت القرية في الحقبة الاستعمارية "بال بول "ومعناها بالفرنسية "طلقة جميلة،. ثمّ عجنت على ألسنة القرويين بعد الثورة لتصبح "بلبال "ورغم أن الدولة غيرت أسماء الأحياء والمدن إلى العربية، في الأوراق الإدارية يدعى هذا المكان حي المرقب "سموه هكذا لأنه يراقب المدينة أي يطل عليها من فوق". إلا أن اسمه الفرنسي لا يزال متجذرا في لسان عامة الناس وهو الشائع والمتداول من بعد الاستقلال. كم هو صعب أن تنتشل مخلفات فرنسا من عقول الجزائريين.

المهم أكمل لك قصة السي المخفي.

المخفي كان هناك في مقلع الحجارة حيث رأى زوجته وهي تجري حافية على مد رماية الأوغاد الفرنسيس، ثمّ من تلك الحادثة فقد عقله وجن وكل ما وضعه نصب عينه هو الإنتقام لزوجته وأولاده. وذات ليلة قام بغارة رفقة جدك "الحاج يحي "وباغت الضابط الفرنسي وهو يعمه في سكرته هنا حيث كانت هذه المقهى حانة يرتادها كل الضباط الفرنسيين، وكان جدك نادلا هنا.

انتقم المخفي لزوجته شر انتقام حيث ذبح الضابط "ڤانبو" من قفاه وقطع رأسه وسمره في مدخل الباب"و أشار الحاج عدة بيده المرتجفة إلى الباب" هناك ليراه الجنود الفرنسيون في الصباح ويكون عبرة للذكرى وبعدما تعفنت جثته ربطها فوق بغلة وأرسله للقاعدة العسكرية في المدينة. لازلت أتذكر تلك الحادثة التي هزت الجيش الفرنسي. هذا المخفي الرجل الشبح الذي لا يملكون حتّى صورة له.

أحسست أن دمعة تراود رمش "عمي عدة "ليفسح لها الطريق للخروج، وهو يتحدث عن "حسنة "و"انتقام المخفي لها "، ليلتفت إلى ويقول: _تفهم الآن يا ولدي لماذا كان الثمن باهظا لأن النساء كنّ نساءا بحق والرجال رجالا بحق.

أترك عمي عدة لذكرياته، وأنزوي أنا إلى تلك النافذة الزجاجية التي صنعت علاقاتي بالقرية، منها شاهدت الكثير من أصحاب الوجاهة يتوددون للشيخ عدة وحتى السي جمال رب عملي واحد منهم، منها تعرفت على القرية، على وجهائها وأوباشها، تعرفت على كل عمال مقلع الحجارة المجاور للمقهى في الجهة المقابلة، تعرفت على شِجاراتهم على ألفاظهم البذيئة التي كانت تصدر عنهم بكل طيبة، تعرفت على مآسي الشباب.

لقد عرّفتني على زوايا العالم الخمسة، هناك ربطت علاقات قوية بكل أبناء قريتي حيث كنت أجلس هناك لساعات طويلة، فيأخذني الحنين إلى مدرستي. وكل من فيها وكل وجع على وجع وليس معي إلا قلمي الأسود وأوراقي البيضاء الصغيرة، وأرسم وأرسم وأعلق بعض اللوحات الفنية على جدران المقهى.

فجأة يلتفت كل الحشود لباب المقهى. يتوقف الجميع عن الكلام. وسطهم تمر وضرب حذائها ذي الكعب العالي يسمع بوضوح من الصمت المخيم. تلبس معطفا وبريا بنيا وتضع نظارات شمسية. متجهة نحوي مباشرة وأنا أمسح في الكونتوار وفي يدي قطعة قماش مبللة. أمسكتني من ذراعي وسحبتني للخارج. تحت نظرات وهمسات من في المقهى. خرجت معها وأعلم أن الحكايات الخيالية التي ستنسج وراء ظهري أكثر من الحكايات التي نسجت حول السي "المخفي ".

دخلنا سيارتها وقبل أن أسألها عن سبب قدومها

– ماذا هل سنبقى هنا. ألا ترحبون بالضيوف؟

سرنا بسيارتها وسط القرية تحت أعين سكان القرية المندهشين والفتية الصغار الذين راحوا يجرون وراء السيارة يحاولون اللحاق بها. وصلنا قبالة البيت. دخلنا وناديت على أمي وقد كانت تضع صينيات الخبز داخل الكوشة.

تفاجأت أمي لما رأت الفتاة أول مرة. قعدنا على الحصيرة وأميمة تضع رأسها خجلا. سلمت عليها أمي أربعا. ابتسمت أميمة من كثرة تقبيل أمي لها. قعدنا نحن الثلاثة.

– يا عمري من هذه الرومية يا ولدي..

خجلت أميمة ولم تفهم كلمة الرومية التي قصدت بها أمي أن جمالها مثل جمال الأجنبيات.

– زميلتي أميمة نحن ندرس مع بعض في نفس القسم

– كي..ف سماك الله يا بنتي. يامينة!

– أميمة.

– آ صحا بنتي حليمة.

ثم ضحتك وابتسمت أميمة وضحكت أمي لضحكنا.

_أميمة يا أمي... اسمها أميمة

– اسمك جميل مثل اسم جدة الله يرحمها كانت مطبوعة مثلك في الزين والقد. لكن كانت عندها الصحة عليك.

ثم التفتت أمي نحوي متسائلة وهي تضع يدها على كتفي بنبرة خافتة كأننا وحدنا:

– ألا تأكل في منزلهم. تكاد تموت!

ابتسمت مجددا ولم أعرف كيف أقنع أمي واعتقادها بأن كل ما زاد الشخص سمنة زاد قوة وصحة وأن بنات المدينة ليست مثل بنات الريف.

ثم أرادت أميمة أن تغير الموضوع فسألت أمي عن الوشم الموجود في جبهتها.

فاسترسلت أمي الحديث وأمسكت أميمة من ذراعها وراحت تسرد لها القصة التي سردتها لي ألف مرة قبل النوم كان هناك ضابط فرنسي اسمه "ڤانبو"كان يأخذ كل فتاة تعجبه ويمارس عليها التعذيب والاستعباد. ثمّ ذات ليلة وكنت لتوي قد وصلت سن البلوغ. في ذلك الصباح عندما استيقظت وجدت الوشامة تقف فوق رأسي وهي تحمل الإبرة والمشرط. كسرت أمي جزءا من الطاجين وامسكتني من رأسي والوشامة تغرز الابرة في جبهتي وتمسح الدماء التي تسيل من جبهتي بطرف خمارها، وأنا فتاة صغيرة لا أعرف ماذا يحدث حولي ثمّ عندما انتهت الوشامة من تطريز الوشم في جبهتي. حكت لي أمي بطرف سبابتها فحم الطاجين على جبهتي وعصبت لي رأسي بقطعة قماش. ثمّ وضعت الوشامة رأسي داخل دف وراحت تضرب وتغني وتنشد:

ها عيشة بنتي ها أنا

ربي يحميك من الشرومن العديان ااا

ها عيشة بنتي ها أنا

تكبري وتولي سيدة النسوان ااا

ها عيشة بنتي ها أنا

ثم في تلك الليلة وأنا أتخبط من الألم وجبهتي تسيل دما أسودا يمتزج بدموعي.

اقتحم الضابط الكلب "ڤانبو "هذي الداروراح يأمر جنوده بأخذ كل فتاة عزباء وعندما وصل عندي نظر في وجهي نظرة خنزير أحمر. ورأى الدموع السوداء التي تلطخ وجهي والوشم في جبهتي. فظن أني امرأة كبيرة ومتزوجة. فتركني.

ثم ضحكت أمي وقالت:

يالهم من أغبياء كانت حيلة الوشم تفوت عليهم ويظنون أن كل فتاة موشومة هي فتاة متزوجة وكبيرة.

في تلك الليلة أخذوكل الفتيات بسني ونجوت بقدرة الرب وسعدة الوشامة.

وقد كانت أميمة غارقة مع سرد أمي وهي تحكي لها الحكاية. كانتا تتكلمان في انسجام بديع كأنما قد تعارفتا منذ زمن وأميمة لا تكف عن الضحك وهزرأسها.

أعدت لنا أمي الكسكس وأكلنا. ثمّ خرجت رفقة أميمة وقعدنا تحت الخروبة الكبيرة بجانب الدار. كانت هناك أرجوحة معلقة في الخروبة. ركبت أميمة الأرجوحة مثل فتاة صغيرة وأمرتني بدفعها في الهواء.

بعدها استلقت وظهرها على الخروبة.

– عليك أن تعود للمدرسة فلم آت إلى هنا إلا من أجل أن أعود وأنت معي.

– لا، قد قررت وفات الأوان. هناك أمور أهم علي القيام بها. ولا أستطيع الذهاب مجددا إلى هناك..

– قد علمت من مروان صديقك قصة رهن المنزل وأنا هنا من أجل المساعدة. قد تكلمت مع أبي وقد وافق على مساعدتك من أجل سد الديون التي عليكم. ومن أجل مرضك.

–....

– نعم نعم... أنا أعرف هذا أيضا لذلك عليك أن تسارع بالعلاج قبل أن ينتشر الـورم.

– لا سأتكفل بالأمر. لا داع لذلك.

– أنظر مطلوعة.. "وكانت أول مرة أسمع هذه الكلمة تخرج من فمها". مثلما أنقذت أبي من الموت هو مدين لك بحياته وقد راسلته أمس وهو في اجتماع في وهران وعن قريب سيكون هنا وهو متشوق لمقابلتك. أمّا هذا المبلغ اعتبره من أجل أن تكمل رسمتي التي لم تكملها ها هي أنظر.

ثم أخرجت تلك الرسمة وقلما وشيكا مملوءً بالأصفار في يدها الأخرى.

– إمّا أن آخذ النقود إمّا أن أكمل رسمك ولا آخذ النقود اختاري! فأنا لا أمارس الفن من أجل المال ولم أفكر أبدا بفعل ذلك.سكتت لبرهة وأعطتني الشيك والرسمة ثمّ ركبت سيارتها وانطلقت وسط غبار القرية.

رحل من دون وجه

كانت عقارب ساعة القسم تشير للرابعة والنصف مساءً، آخر حصة في اليوم وقد كانت حصة اللغة الفرنسية، فجأة. انطلقت صرخة قادمة من المكتبة، أفزعت كل من في المدرسة.

في المكتبة.

أميمة وهي لا تزال جاثمة على ركبتيها ترتعش وتبكي، تنحب أمام الجسد الهامد على الأرض، تدخل بعض الموظفين لسحبها، وإبعاد التلاميذ عن مسرح الجريمة، ساد الذعر والخوف بين التلاميذ وبعد لحظات وصلت الشرطة، سيجوا موقع الحادثة بشريط لاصق أحمر، وبسرعة دخل الموقع خمسة من رجال الشرطة يلبسون بدلات بيضاء علي ظهرها كتب بالأسود شرطة علمية، يتقدمهم رجل قصير أشيب الشعر يبدو في الخمسين من عمره ويرتدي مئزرا أبيض، أشار لشرطيين بجمع البصمات وعينات الدم وشرطيين آخرين بالتقاط صورا للضحية وللمكتبة.

ثمّ بعد لحظات من الباب ظهر رجل أسمر غريب الملامح متوسط القامة، يرتدي حمالة سروال، هندامه أشبه بهندام تشارلي تشابلين على المسرح، أنفه طويل ونظاراته مربعة، يحمل بيده جريدة وبيده الأخرى تفاحة يرميها في الهواء ويعيد امساكها بحركة شبه تلقائية دون أن ينظر لها. يمشي بخطوات قصيرة ومتقاربة، ويحوم برأسه الطويل متفقدا المكان.

بعدما رآه الرجل القصير هرع نحوه بلهفة:

– أهلا سيدي

– أهلا دكتور، كم مضى على قدومكم هنا؟ وأين الجثة؟

– عشر دقائق تقريبا...هناك....من هنا سيدي.

وقف الرجل أمام الجثة، نزل على الأرض ليتفقدها عن كثب، حك ذقنه السوداء والتفت نحو الطبيب مستفسرا:

_هل تم تغيير شيء في هذه المكتبة؟

_ لم يلمس شيء، وقد كنت حريصا على ألا أحرك الجثة أثناء فحصي لها.

_كم مضى على موته؟

_حسب حرارة جسد الضحية، حوالي الساعتين على الأكثر.

_هل دخل أحدهم أو خرج إلى المدرسة في آخر ساعتين؟

_من كلام البواب. لم يفتح الباب الرئيسي للمدرسة في آخر ساعتين. سوى مرة واحدة عندما خرج المدير.

_هل هناك مدخل آخر للمدرسة.

_لا سيدي.

هز المحقق رأسه ونظر حوله ثمّ نادى بنبرة خشنة:

_أحضر لي البواب ومخطط المدرسة، أغلقوا باب المكتبة، لا تسمحوا، لأحد بالخروج علينا تمشيط كل المكان، أين المدير هنا؟

بعد لحظات تقدم المدير نحو الرجل، تصافحا:

– على ما يبدوا أنك المدير!

يرد المدير بنبرة منخفضة:

– نعم

– لماذا ربطة عنقك مفتوحة، هل أنت متوتر؟

– لا لا، أنا لست... أقصد نعم مس... "اضطرب المدير بعدما وجه له المحقق هذا السؤال المباشر. ثمّ تمالك نفسه بأن يتفادى السؤال بسؤال مثله"

_ ومن أنت حضرتك؟ هل أنت رئيس قسم الشرطة؟

– لا.

_من المفروض أن الشرطة هي التي تدخل المكان أولا هذه هي الإجراءات.

ثم رفع المحقق نبرة صوته ومس كتف المدير بالجريدة واتبع قائلا يعرف بنفسه بتفاخر.

_هل انزعجت من وجودي هنا؟

_لا لا.

_أنت محق الاجراءات تقوم على أن الشرطة هي من تتدخل قبلي. لكن صادف أن كنت قريبا من هنا وأنا أشعر بالملل لذلك جئت لأتسلى قليلا. هل مانع في هذا؟

رد المدير بتردد وخوف:

_لا لا يشرفنا حضورك سيدي...

– فخر الدين الماحي.

سكت المدير يفكر لبرهة:

– ألم تسمع من قبل بالماحي، المحقق؟ يا أستاذ حميد بسكري! لا أعتقد أنك تقرأ الجرائد!

عقد المدير حاجبيه وهز رأسه كأن هذا الاسم قد مر عليه من قبل واستغرب كيف أن المفتش يعرف اسمه الكامل.

– كم من قسم تبقى في المدرسة؟

– قسمان فقط.

_ أين كنت عندما جرت الحادثة؟

_كنت في مكتبي. حتّى سمعت الصراخ.

_هل خرجت من المدرسة في المساء؟

تردد المدير في الإجابة:

_نعم.

_كم من مرة؟ في أي ساعة؟ وأين ذهبت؟

_خرجت مرة واحدة حوالي الساعة الثانية. بعدما دخل التلاميذ إلى أقسامهم. وذهبت لأشتري قهوة كعادتي.

– كعادتك آه...حسنا عليك أن تحضر لي الملف المدرسي للضحية وأعتقد أن بحوزتكم الملف الطبي أيضا!

–طبعا سيدي ككل تلميذ آخر في المدرسة.

_وفي طريقك يمكنك أن تحضر لي ملفات كل زملاء الضحية في القسم وكل من كانت لهم علاقة به مؤخرا أليس كذلك؟

بدى المدير مستاء من كثرة طلبات المحقق إضافة إلى طريقة كلامه المستفزة.

–سيدي...سيدي. الملفات في الأرشيف...وهذا ليس عملي ويصعب علي العثور عليها وحدي دون مساعدة عامل المكتبة؟

–وأين عامل المكتبة؟

–غائب اليوم، اتصلنا به وردت زوجته تعتذرعن غيابه بسبب أنه أصيب بوعكة صحية، وغدا سيتمكن من الرجوع للعمل ونتمكن من فتح خزنة الأرشيف.

– لا نملك وقتا هنا تصرف، الآن...تستطيع كسر الخزنة على ما يبدو من قوة ذراعك وقد تستطيع فعل ما هو أكثر! أليس كذلك؟

اقترب المحقق من المديريلوح بجريدته في وجه مبتسما ابتسامة ماكرة:

– أم أنت خائف من فتحها!

صمت المديروعرق جبينه، لم يرد!

– حسنا، جيد. شكرا لتعاونك سيدي.

قالها المحقق ماحي وهويتراجع للخلف مبتسما للمديرابتسامة باردة، ثمّ وضع الجريدة تحت ذراعه ورفع كلتا يديه في الهواء وصفق بقوة ليثيرانتباه الحضور نحوه، رفع صوته بنبرة عالية واضحة:

– اسمعوا يا أولاد! نحتاج شهادة كل شخص في المدرسة لمعرفة المجرم المختبئ بينكم. لا تقلقوا لن يطول الأمرفحسب علمي تبقى قسمان فقط في المدرسة، حوالي الثمانين شخص زائد أربعة معلمين وحارسين ومدير، مستشار توجيه، وعاملة النظافة، وأرجوا أن تتعاونوا مع القانون.

كان أول شيء يحس به المرء داخل المكتبة هوبرودة المكان، فقد كانت النافذة مفتوحة إلى آخرها والستائر مسحوبة. ارتجف الماحي من البرد، فابتسم الطبيب وقال:

_لم أشأ أن أغلقها

تفحص المحقق النافذة بحرص ثمّ قال:

– أنت على حق. لا يبدوا أن أحدهم خرج منها لكن ربما أريد من فتح النافذة أن يعتقد المرء ذلك، ولكن، إن كان هذا صحيحا، فقد أخفق القاتل في هدفه هذا.

فحص إطار النافذة بحرص ثمّ أخرج علبة صغيرة من جيبه ونفخ

بعض المسحوق الأبيض عليها:

– لا توجد بصمات أبدا، مما يعني أنها قد مسحت وحتى لو وجدت بصمات فلن تخبرنا إلا بالقليل، فهي إمّا أن تكون بصمات المكتبي أو عاملة النظافة فالمجرمون لا يرتكبون مثل هذه الأخطاء في أيامنا هذه، خصوصا إن كانوا يدرسون الرياضيات والفيزياء والفلسفة فبإمكان هؤلاء الطلبة الأبرياء في نظرك، يا دكتور رشيد التحايل عليك بأذكى الطرق، فقد يستعملون الكيمياء لإخفاء البصمات والعلوم لقتل الضحية بسهولة لاستهداف جسد الضحية في أماكن حساس ويلجؤون لأحاديث فلسفية لتدويخك وتظليلك أثناء الاستجواب.

ثم ضحك الطبيب مضيفا:

_ حقا هذا الجيل عبقري، قد سبقنا بكثير لكن الخبرة لها دور كبير يا سيدي وهل تظن أن مراهقا يمكنه التفكير في مسح البصمات من النافذة او تضليلنا بتركها مفتوحة؟

بنبرة ساخرة رد المحقق الماحي:

– هؤلاء الأولاد يقرؤون كتب الجريمة ويحلون ألغاز أجاثا كريستي قبل أن تحلها عند وقوع الجريمة وإن كنت تتحدث عن الخبرة يا رشيد، فإنهم يشاهدون أعقد الجرائم في الأفلام والمسلسلات البوليسية ما لم أصادفه في حياتي كلها، الأفلام البوليسية شحنت رؤوس هؤلاء بالخيال وكل الخطط التي لا تأتي على بالك.

ثمّ أضاف بنبرة جدية:

_لقد سبقونا بالتكنولوجيا لقد سبقونا..وبما أن الأمر كذلك فمن الأفضل أن نغلق النافذة، ونجمع كل الأدلة المتاحة هنا ولا نقلل من ذكاء القاتل، فعلى شيبتي لن يخدعني ابن البارحة.ثم قام بإغلاق النافذة وأضاف بثقة.

_ليس كل من يأكل التفاح من الملاح.

ثم حول انتباهه، وللمرة الأولى نحو تمثال الفتى الممد والملتصق بخده على الأرض، ممدد على بطنه وعلى مئزره الأزرق تنتشر بقع دم حمراء. كانت أزرار مئزره مفتوحة وقد تكشف مئزره الداخلي عن صدره.

أوضح له الطبيب قائلا:

_كان علي أن أرى طبيعة الجراح كما تعلم. لذلك فتحت مئزره.

أومأ المحقق برأسه موافقا ومال فوق الجثة، ثمّ انتصب واقفا وهو يعبس قليلا وقال:

_ ليس بالمنظر الجميل. لا بد وأن أحدهم وقف هنا وطعنه مرة بعد أخرى. كم عدد الجراح بالضبط؟

_ أعتبرها أربعة جروح.

_اعتبرتها؟

_نعم..بالإضافة إلى جرح طفيف في الكتف يمكن اعتباره خدش، الجروح الأربعة على الأقل يمكن لأي واحد منها أن يسبب الموت. هنا في قفى الرأس مثلا، قد تلقى ضربة قوية من الخلف أفقدته وعيه.

_ والجرح الخامس؟

هنا أنظر مباشرة في وريد الرقبة تبدو لك طعنة صغيرة لكنها ضربة دقيقة من يد خبيرة، على الأرجح أنها كانت السبب في الموت مقارنة بالضربات الأخرى، هذه الطعنة تكون من أداة حادة ومدببة أصابت الوريد الوداجي وتركته ينزف حتّى الموت!

_هل تقصد مدورا مثلا!

_نعم يمكن ذلك، أو ابرة خياطة.

ثم تنهد الطبيب وبدت علامات الحيرة على وجهه!

_ ما الأمر؟

أوضح الطبيب قائلا وهو يشير بيده:

_أترى هذين الجرحين، هذا وهذا؟ إنهما عميقان، ولا بد من أن كل واحد منهما قد قطع بعض الشرايين، ولكن على الرغم من ذلك فإنهما غير مفتوحين ولم ينزفا كما يتوقع المرء منهما.

- وعلى ماذا يدل هذا؟

- يدل على أن الرجل كان قد مات قبل مدة من توجيه هاتين الطعنتين إليه، ولكن هذا يبدو شاذا جدا.

قال المحقق مفكرا:

_نعم يبدو الأمر كذلك. إلا إذا فكر القاتل أنه لم ينجز مهمته على الوجه الأكمل فعاد ليتأكد من إتمام الأمر. ولكن هذا يبدو غير معقول أبدا. هل من شيء آخر؟

_نعم أمر واحد.

_وهو؟

_ أترى هذا الجرح هنا أسفل الذراع الأيمن قرب الكتف؟ الضربة من الخلف حتما، هاك خذ قلمي هذا. هل تستطيع أن توجه مثل هذه الطعنة بيدك اليمنى؟

رفع المحقق يده وقال:

_ لقد فهمت الآن إنها ضربة صعبة جدا باليد اليمنى وتكاد تكون مستحيلة، على المرء أن يضرب ويده ملوية للخلف. حتما هذه الضربة وجهت باليد اليسرى

_تماما يا سيدي. من المؤكد تقريبا أن هذه الضربة أنجزت باليد اليسرى

_قاتلنا أعسر إذن؟

_ إلا أن الأمر أعقد من هذا.

– كما قلت ياسيدي إن بعض الضربات الأخرى كانت يمينية بكل وضوح.

تمتم المحقق الماحي:

– شخصان؟ لقد عدنا إلى نظرية الشخصين من جديد!

أضاف الطبيب:

_ماذا تعني؟

رد المحقق:

– لدينا هنا فرضية القاتل الأول والقاتل الثاني كما كان من شأن شكسبير أن يسميها الدلالة الثنائية الحتمية، ضرب القاتل الأول ضحيته على رأسه وخرج مغادرا المكتبة، ثمّ أتى القاتل الثاني ووجد الضحية تتخبط على الأرض فانهال عليها بالطعنات ولم يعلم أو تعلم..." أن العمل قد أنجز. فطعن على الأقل مرتين في جثة ميتة. هل يفسر هذا الأمر؟

قال الطبيب بشيء من الحماسة:

_عظيم!

لمعت عينا المحقق وقال:

_ أتظن ذلك؟ أنا سعيد بهذا، ولكن يبدو لي أن هذا التحليل هراء وهل يوجد تحليل آخر؟

رد الطبيب:

_لا أعرف حقا. ربما لها تفسير آخر.

_هذا ما أسأل عنه نفسي، هل لدينا هنا صدفة أم ماذا؟ وهل سنجد المزيد من المتناقضات التي تشير إلى تورط شخصين في الموضوع؟أو ربما أكثر أظنني أستطيع الجواب بالإيجاب هذه الجريمة مخطط لها بإحكام فكما قلت لك إن بعض هذه الضربات تشير إلى ضعف أو إلى نقص إمّا في القوة في العزيمة وقد تردد القاتل في الضربة، لقد كانت ضربات ضعيفة جدة. أمّا هذه هنا، وهذه أيضا أنظر فإن قوة كبيرة كانت وراءها، إذ أنها اخترقت العضلات.

إذن هي ضربات فتى قوي برأيك؟

_ بالتأكيد.

_و ألا يمكن أن تكون امرأة فعلت ذلك؟

_ ربما، إذا كانت شابة رياضية قوية، وخاصة إذا كانت تحت تأثير فورة عاطفية جامحة.

سأل الطبيب المحقق:

_وأي سيناريو تراه واقعيا أكثر؟

_ القاتل فتى يمتلك قوة كبيرة... والقاتل ضعيفا... القاتل فتاة تحت ثورة عواطف والقاتل وجه ضربته من الخلف والقاتل خرج من الباب وليس من النافذة. لا أدري حقا ما أقوله لك.

ثم نظر حوله وهو يتابع كلامه:

_سنتحدث في ذلك لاحقا. دعنا نتأكد أولا من أننا رأينا كل ما يجب علينا أن نراه

ثم انحنى المحقق وفتش جيوب ملابس الفتى الميت مرة أخرى وبسرعة أخرج من جيب سرواله الخلفي كيس مسحوق أبيض، وعلى الأرض وجد الطبيب زرا وردي، عرضه على الطبيب دون أن يحمله

_أنظر! هنا!

_يبدو أنه زر مئزر أنثوي!

_إذن فرضية وجود فتاة قد تكون صحيحة!

_افحصه إن كان عليه بصمات

أخرج الطبيب من جيبه مصباحا صغيرا وحمل الزر بملقط ووضعه داخل علبة مظلمة وسلط عليه أشعة زرقاء من المصباح ثمّ وضعه في كيس صغيروأعطاه للمحقق.

_لا بصمات عليه سيدي

هز المحقق رأسه بحركة بطيئة وهو يستمر بالبحث في ثياب الفتى بعد لحظات وقف المدير فوق رأسه يحمل بيديه الملفات:

_شكرا لتعاونك سيدي، ضعها فوق الطاولة هناك.

ثم نظر المحقق لوجه المديرواستغرب من ملامح وجه المتوهجة!

كان المدير منتفخ البطن يبدوا واقفا بصعوبة فسأله المحقق برقة:

_شيء ما يبدو لك غريبا د أليس كذلك؟ تكلم يا صديقي، أيوجد شيء يحيرك؟

نظر المحقق نحو المدير دون أن يتحدث، رد المدير وهو يستخدم يديه للكلام.

_هل يمكنك أن تستدعي عامل المكتبة!

_المكتبي إنه غا...

_لا أقصد العامل الآخر

أجاب المدير يهز رأسه:

_ نعم بكل تأكيد.

ثم أسرع المحقق نحو الشاب. ودعاه للجلوس على سطح مكتب فارغ في المكتبة ثمّ رمى له التفاحة بين يديه وبدأ باستجوابه:

– يبدوا أنك مكتبي المدرسة؟

– لا سيدي. أنا عامل فيها فقط.

_ماذا تقصد بعامل ما هو دورك؟

_أنا خازن الكتب. أقوم بترتيب الكتب ونقلها ووضعها في الرفوف وفي المخزن وأحرص على توفيرها من خارج المدرسة وأحيانا أنوب على المكتبي وأسجل التلاميذ الذين قاموا بإعارة الكتب.

_إذن لماذا لم تنب اليوم على المكتبي؟

_لا أدري لم أكن أعلم أنه سيغيب عن العمل اليوم.

_حسنا سأسألك بعض الأسئلة يا رحيم، لا تعتبره تحقيقا وإنما حديث بين شخصين مهنيين يتعارفان لتوهما.

– طبعا سيد...

– المحقق محي الدين سعدي.. يمكنك مناداتي الماحي.

– هل أنت المحقق الذي ألقى القبض على حميد البغل، أكبر اللصوص في حي ميلودي، شاهدت لقاءك في التلفاز، تشرفت بلقائك.

– جميل، أنت تتباع أحداث المدينة مؤخرا، أنت مهتم بعالم الإجرام والتحريات إذن!

– لا.أقصد فلكل قد سمع بالحادثة، على كل حال. أنت مشهور نوعا ما أليس كذلك؟

ثمّ مد يده ليصافح المحقق.

– رحيم الشاوي عامل في مكتبة المدرسة.

– تشرفنا يا رحيم لندخل في الموضوع مباشرة. منذ متى وأنت تعمل هنا؟

– منذ عامين تقريبا.

– أين كنت عندما اتصل بك المدير؟

صمت رحيم قليلا ثمّ أجاب:

_كنت في الملعب.

– ماذا كنت تفعل؟

_لا شيء فقط كنت جالسا وأقرأ في كتاب.

_لا شيء هاه.. تقرأ في كتاب فقط هل أنت واثق؟

_نعم.

_أي كتاب؟

_رواية اللاز للطاهر وطار.

ثم نظر المحقق للشاب وهو يستمر في تدوين ملاحظاته:

– جميل. أخبرني هل لك علاقة بالضحية؟

– لا سيدي لا أعرفه.

_حسنا أخبرني ماهي علاقتك بالمطالعة...الروايات؟

_نعم أنا أحب القراءة. لذلك أخترت أن آخذ هذا العمل. بدل أن أجلس في المنزل أقرأ الكتب من دون عمل. أنا أقضي وقتي بين الكتب وآخذ راتبا لا بأس به.

_إذن أنت تعرف معظم عناوين الكتب الموجودة في المكتبة حسب كلامك؟

_في معظمها نعم؟

_إذن هل تعرف رواية رحل من دون وجه ".

_رحل من دون وجه؟ من كاتبها؟

_هذه الرواية أقصد!

ثم عرض المحقق الرواية أمام رحيم.

_كاتبها فارس ياني.

_لم أسمع به من قبل.

_ هل أنت من وضعتها بجانب جثة الضحية أو في الرف الذي وقعت بجنبه الضحية؟ بالمناسبة هي الرواية الوحيدة الموجودة هناك.

_لا لست أنا. وليست من روايات المكتبة.

– هل أنت واثق من هذا؟

_نعم أنا واثق. فلو كانت كتابا مدرسيا تعليميا لشككت في ذلك. لكن بما أنها رواية فالروايات الموجودة في المكتبة لا تتجاوز المئة عنوان وأنا مطلع على معظمها وهذه الرواية لم تكن هنا مؤخرا.

_مؤخرا! منذ متى لم تتفقد الكتب الموجودة في قسم الروايات؟

_أسبوع تقريبا لأني كنت مشغولا بالكتب التي في المخزن والأرشيف.

_غريب.

_هل هي رواية بوليسية!

_نعم. وكيف عرفت ذلك؟

_من العنوان فقط.

_هل أنت متأكد من ذلك؟

_نعم دعنا نبحث عنها في جوجل.

ثم نادى الماحي على الطبيب وأمره أن يبحث عن عنوان الرواية في محرك البحث.

لما قرأ الماحي نتيجة البحث عقد حاجبيه وغرق يفكر في صمت لبرهة.

– من معه مفتاح المكتبة غيرك؟

– لا أحد، أقصد ما عدى المكتبي. ومدير المدرسة طبعا لأني أضع نسخة من المفتاح في إدارة المدرسة.

– همم، وماهي آخر مرة غيرت فيها ملابسك وتركت المفتاح داخلها؟

– لا أذكر، لكن ربما آخر مرة عندما دعاني بعض الأولاد لأدير مباراة كرة قدم ولإلحاحهم علي، وبما أني كنت ألعب من قبل كرة القدم وأنا حكم سابق، قررت أن أشارك في المباراة طبعا.

– مع من لعبت؟

ثم ذكر له العامل الأشخاص المشاركين في اللقاء وشكره على تعاونه وانصرف.

***

فتح الماحي الرواية وراح يقرأ في آخر الصفحات منها بعدما قرأ عنها ملخصا ورد على ظهره غلافها وعرف تقريبا قصتها.

خبأ المحقق الكتاب بين صفحات جريدته، تنهد، ثمّ أخرج من جيبه ورقة ماصة ولفها بين أصابعه وباليد الأخرى حشاها بالتبغ المجفف صنع كرة شمة ووضعها تحت شاربه.

– ليست القضية سهلة، يا رشيد خويا، ليست سهلة.

_ماذا استنتجت؟

_ الرجل بدى هادئا في أجوبته، رغم أن جوابه عن عدم معرفته بالضحية وطريقة رده المباشرة والسريعة كأنه كان ينتظر أن يطرح عليه هذا السؤال مشبوه

فيها، يعني أنه لم يكن عفويا بطريقة كلية في إجاباته، وهذه الرواية هي الرواية الوحيدة في ذلك الرف. وهي رواية بوليسية، ولم أجد لها نتيجة في محرك البحث. وعلى يبدو من ملخصها أنها تحكي قصة شاب مقتول بخمس طعنات. ألا يوحي لك هذا بأي شيء!

رد الطبيب مستغربا وعلى وجهه بدت معالم الحيرة:

_نعم..نعم.. هي نفس عدد الطعنات التي تلقتها ضحيتنا.

_هل هي مجرد صدفة أم أنها إشارة من القاتل لنا، حتّى يختبر ذكائنا ويلعب لعبته معنا.

سكت الطبيب ولم يعرف كيف يرد واكتفى بالصمت.

– أحضر لنا عاملة النظافة هنا.

– حسنا

***

كانت عاملة النظافة سيدة تبدو في الأربعين من عمرها نحيفة الجسد، لكنها تبدوا بصحة جيدة من نظارة وجهها واستقامة قامتها، كانت تتكئ على المكنسة وتجر دلوها الأزرق، تضع يديها على جانبيها وعلى رأسها فولارة زرقاء.

– هل يمكنك الجلوس سيدتي ولن يطول الأمر لا تقلقي سنطرح عليك بعض الأسئلة الخفيفة.

– نعم، نعم حتّى ظهري يؤلمني قليلا اليوم آه.

– طبعا، طبعا تفضلي، إرتاحي!

_خذي بعض التفاح فهو مفيد لصحتك

_لا شكرا..

ثم ساد الصمت لبرهة:

_عندي السكريا ولدي

_آه عذرا ربي يشفيك.

_هل يمكنك إخباري باسمك الكامل

_نعيمة الحراشي.

_هل أنت من هنا سيدة نعيمة؟

_لا من وهران.

_منذ متى وأنت هنا وما لذي دفعك لتغيير مكان اقامتك؟

_منذ أن تزوجت. عشرون عاما تقريبا. الدنيا جاءت بي هنا.

–الدنيا آه...حسنا منذ متى وأنت تعملين هنا؟

– منذ مدة طويلة، أنا لا أذكر، الله غالب أنت تعرف خبزة العيش غالية...

– هل أنت متزوجة؟

– نعم.

– وزوجك!

– في السجن

_كم لك من أولاد.

_اثنان. طفل وطفلة.

_هل هما يعيشان معك!

_لا، قد رحلا عني منذ مدة.

_رحلا؟

سكتت عاملة النظافة لبرهة ووضعت يدها على ظهرها. تشكو ألم العمل. وحين طأطأت رأسها لاحظ المحقق الشامة الموجودة في جنب رقبتها.

– حسنا.. سنختصر الموضوع سيدتي، حوالي الرابعة مساء من رأيته يدخل إلى المكتبة.

– كانت تقريبا المكتبة فارغة، سوى حوالي أربعة تلاميذ لاحظت دخولهم هنا.

– هل كان إسحاق بينهم؟

– من! هل تقصد... أنا لا أعرف أسماءهم يا سيدي. أنا أذكرهم من وجوههم فقط

– حسنا سنسهل عليك الأمر ونريد مساعدتك، سنعرض عليك صور بعض التلاميذ والذي تعتقدين أنك رأيته داخل المكتبة أشيري إليه. هل يمكنك مساعدتنا؟

_حسنا

ثم بدأ المحقق بعرض مجموعة من الصور أمام عاملة النظافة ويراقب في تغير ملامح وجهها مع كل صورة يعرضها أمامها.

_هل أنت متأكدة من اختياراتك؟

– نعم.... هم هؤلاء الأربعة.

ثم التفت المحقق للطبيب بابتسامة عريضة وعينين مشعتين.

– إنهم الأربعة الباقون، لم يكذب علينا عامل المكتبة ولم يخطئ ظني.

– حسنا سيدة نعيمة أين كنت متوجهة عندما خرجت من المكتبة في الرابعة مساءً؟

– لقد أخبرتك أني خرجت من المكتبة قبل الرابعة، وكنت ذاهبة باتجاه المطعم.

_المطعم على الرابعة!

_قلت لك باتجاه المطعم لأن هناك حاوية قمامة كبيرة ذهبت لأفرغ فيها القمامة التي تركها الأولاد في المكتبة.

– هل أنت متأكدة أنك كنت ذاهبة لإفراغ القمامة وليس شيئا آخر؟

– لا

– كيف لا إذن...!

– إضافة إلى سلة المهملات كنت أحمل الخبز الذي وجدته في المكتبة هذا الصباح حيث من غير اللائق أن ترمى نعمة ربي في سلة النفايات إذ أنا معتادة على أن أفصلها وأضعها لوحدها، بعدها أقوم بجمعها ثمّ أبيعها للأصحاب الأغنام والحيوانات، ليقوموا بتحويلها لأكل لحيواناتهم وأنت تعرف مدخول قليل لسيدة تعيش وحيدة. وهذا أفضل من أن ترمى.

– خبز هنا!

– نعم لقد وجدت نصف شطيرة وقارورة مشروب غازية. وبالضبط حين فتحت الكيس لأضعها في الداخل سمعت الصرخة.

– وهل تلك الشطيرة لا تزال هناك، هل بإمكاننا إحضارها؟

– نعم، أظن ذلك لقد كانت آخر ما أرميه داخل الكيس إن لم تأكلها القطط طبعا.

– هيا نذهب لإحضارها سيدتي من فضلك.

اتجه المحقق وعاملة النظافة والطبيب يتبعهما نحو حاوية قمامة خضراء ورائها كيس بلاستيكي أسود، اقتربت عاملة النظافة ببطء من الكيس، فتحته وأخرجت الشطيرة، أمسكها المحقق وتفحصها.

– يبدو أنها جديدة أنظر السلطة الموجودة داخلها لا تزال خضراء... خذ افحصها في المخبر.

ثم أخذها الطبيب إلى مخبر المدرسة بسرعة وأضاف عليها بعض المواد من أجل أن يرى تفاعلها ويحلله.

– شكرا على تعاونك سيدتي.

الاستجواب

ليس كل من يأكل التفاح مِنَ المِلاح

في زاوية فارغة مضاءة من المكتبة أخذ المحقق ماحي كرسيا ووضع جريدته فوقه وجلس عليه، أخرج علبة من التبغ المجفف ودك رفعة شمة تحت شاربه الرقيق، مسح يديه على الكرسي تحته ثمّ أخذ دفترا وبدأ باستجواب الأشخاص غير المشكوك فيهم أولا...وترك الأشخاص الأقرب من الضحية في الأخير.

الساعة تشير للسابعة والنصف تقريبا. في قاعدة المطالعة قعدت الوجوه بمواجهة بعضها. لقمان ومروان، فارس، طارق، سمير، أميمة. وساد صوت مرعب كسره بكاء أميمة في حضن صديقتها سارة!

انفتح الباب وظهر الطبيب ونادى:

السيد سمير بن عودة

***

خرج سمير من القاعة واتجه ليقابل المحقق الماحي مباشرة. نزع قبعته وجلس على الكرسي. قابل المحقق الذي كلن يحمل تفاحة في يده. قسم جزءً منها وسلمه لسمير.

– اسكوبار صديقي، قد انقطعت أخبارك. كيف حال الحاج عدة؟

_هو بخير.

_لاحظت اختفاءك من حومة ديار السوق! أين كنت تذهب؟

– ماذا تقصد، أنا مع الدراسة، ماذا أخذني لتلك الحومة، أصلا أنا لا أحب أولاد تلك الحومة!

_خذ كل بعض التفاح فهو مفيد لصحتك فأنت هزيل مثل قط.

سكت سمير وأكل قطعة التفاح، قضمها بجنب فمه الأيسر، لأن أسنانه الأمامية شبه متآكلة من الكيف والشرب، ثمّ تابع المحقق كلامهم وهو يقسم نصفا آخر من التفاحة ويأكل منه:

– أنت لم تعد تحبهم؟ نعم بطبيعة الحال أنت على حق، لأن البيع في المياه العكرة لا يناسبك، أنت تعوم في المياه الصافية تحت ظل هذه المدرسة...هل حسبت أنك بعيد عن عيني؟ والعين عمرها ما تعلا على الحاجب. الآن أخبرني ما هي علاقتك بالضحية؟

– علاقة سطحية فقط، تستطيع القول أنه زميلي في القسم فقط.

– زميلك.فقط! حسنا لا علينا. أخبرني متى كانت آخر مرة تحدثت معه فيها!

– لا أتذكر ربما منذ ثلاثة أيام، لا لا يومين..

– يومين أو ثلاثة أيام، أنت تكذب، لقد تمت مشاهدتكم في غرفة تغيير الملابس قرب ملعب كرة السلة وأنتما تتشاجران بعدها سلمته شيئا وخرجت.

– نعم، أثناء المباراة أصبته بالكرة دون قصد، فنزف أنفه، وثار غضبه مني، ثمّ عند انتهاء حصة الرياضة البدنية، تبعته للحمام لأعتذر منه فلم يتقبل اعتذاري، وبدأ في شتمي. أعطيته منديلا ليمسح أنفه وخرجت!

– هل أنت متأكد من أنه منديل ولم يكن شيئا آخر؟

– نعم أنا متأكد!

ثم أخرج المحقق من جيبه كيسا صغيرا يحمل مادة بيضاء ووضعها على الطاولة!

– هل هذا هو المنديل الذي تقصده!

"و نظرات المكر تبدوا على وجه المحقق"

–.....

– ماذا هل ابتلعت ريقك الآن؟

– لا أعرف ما هذا ولا أعرف من أين جاءت!

– هاااه، لكني أعرف في المحكمة أنك ستعترف بأنك قتلته لأنه لم يدفع لك!

– ماذا تقول سيدي أنا بريء، أصلا أنا لم أدخل هذه المكتبة سوى مرتين في حياتي مع فارس.

–نعم الأولى دخلت لتراقبه، والثانية دخلت لتقتله.

–لا سي....

–تستطيع الانصراف الآن، شكرا.

***

انفتح باب القاعة مجددا وأطل الطبيب برأسه مناديا:

استجواب

السيد فارس باني

***

– اجلس يا شكسبير.

_لم نلتق منذ مدة.

_نعم.

_هل تأكل التفاح!

_لا شكرا.

– أخبرني ماهي علاقتك بالمرحوم، وهل قتلته؟

– هو زميلي في القسم، وبعد الدوام زميلي في الدروس الخصوصية...لا لا لم أقتله، ولا سبب يدعوني لفعل ذلك!

– آه لا سبب يدعوك، لكن قد تكون مشاركا في قتله!

– مشاركا في قتله!

– نعم، حسب كلام صديقات أميمة، أنهن قد سمعنه يحدثها عن رواية تحت عنوان "رحل من دون وجه" وهذه الرواية هي نفسها التي كانت ملقاة جنب الضحية وسبحان الله نفس عدد الطعنات الموجهة لشخصية الضحية في الرواية هو نفس عدد الطعنات الموجهة لإسحاق! هاه ما هو تفسيرك؟

– لا أعرف، هناك الكثير من الروايات في المكتبة ربما تصادف أن كانت تلك الرواية بجنبه عندما تم طعنه تلك الخمس طعنات ولست أنا الوحيد الذي يقرأ

الروايات، الكل يقرأ الروايات وأرى أن اتهامك لي بشكل مباشر بالقتل عن طريق ربطك للحادثة بمجرد رواية بوليسية هو استنتاج غريب من رجل ذكي مثلك، وله شهرة تسبقه في فك ألغاز جرائم قتل معقدة كتبت عنها الكثير من الجرائد. أو أن هناك خلفيات أخرى أنت تخفيها عني وعنا جميعا.

_خلفيات! ماذا تقصد؟

_لنكن واقعيين يا سيد ماحي، كيف لمحقق بشهرتك أن لا يكون على علاقة برجل ثري مثل السي عثمان أب الضحية والرب عالم بخفايا الأمور.

ثم تغيرت ملامح المحقق وغير من وضعية جلوسه. قسم التفاحة إلى نصفين وغرز السكين بقوة على الطاولة.

_أخبرني من يحقق مع الآخر هنا، أنت أم أنا؟

_أنت معلم ومنك نتعلم.

_اسمع. هل تتذاكى علي أم ماذا! هل أجعلك تجلس في مكاني!

_وهل تخاف الأفعى من سمها! من لا يوجد في بطنه التبن لا يخشى من النار.

– إذن هذه هي خطتك! أن تماطل علي، وتريد أن تأخذ المحاورة إلى منحى آخر، اسمع إذن يا ولد حميد بين الخبرة والمعرفة، تغلب المعرفة في عالم النظري وتغلب التجربة في عالم التطبيق، أنت تحتاج لمزيد من الخبرة كي تحور استجوابي وتصل لإثارة عواطفي، أنت هو القاتل! ليس هنالك غيرك في المدرسة على ما أعتقد يعرف أن أمير بطل رواية رحل من دون وجه، طعن خمس طعنات!

– حتّى المرحوم قرأ الرواية أيضا! وهي بأفكار سوداوية ثقيلة وقد يكون ا...

– انتحر! هل تظن هذا! أم تريد أن تبرأ نفسك! تحت شهادة زملائه المرحوم فتى عقلاني وسجله الطبي والنفسي طبيعي... أمّا أنت فنحن نعلم حكايتك مع الأطباء النفسيين بعد حادثة أمك التي..

أطلق فارس زفرة طويلة:

_لا تذكر أمي على لسانك

_آسف لكن التاريخ لا يرحم. قد ذبحها أبوك من الشريان إلى الشريان قبل ثمانية أعوام من الآن وكنت المحقق في تلك القضية ورأيت ملامحك حين رأيت أمك تسبح في بركة من الدماء وتابعت تصرفاتك وكان القاتل إمّا أنت أو أبوك ومن المرجح أن يكون أنت وقد تستر عليك أبوك وأخفى سلاح الجريمة في جيب سترته حتّى يغطي عليك. وعدم زيارتك لأبيك حميد في السجن ما تكون سوى تمثيلية قمتما بها سويا، وهذا يبقى احتمال وارد. ومشاكلك مع جدك لأنك ترفض زيارة طبيبك النفسي وأخذ أدويتك.

– لا أظن أن ذكر هذه القصة يدخل في التحقيق في جريمة قتل الفتى!

_لا بل يدخل وبشدة

_لا أظن هذا.

_ذكرت لك هذه القصة فقط حتّى أشير بأن في عائلتكم دما إجراميا وأنت تعرف المثل القائل "من شابه أباه فما ظلم"، أي أن بعض الصفات مثلا تنتقل بشكل تلقائي، أظنكم درستم هذا في مادة العلوم الطبيعية "اسمه الانتقال الوراثي "أم أنك تهتم بالفلسفة أكثر.

_لا أظن أن هذا هو هدفك. ومن غير اللائق أن تستند على قضية قد مضت منذ أعوام وتحشرها داخل قضية آنية وأرى أن ذكرك لقضية مقتل أمي رحمها الله له غاية نفسية بحتة. وهي إرضاء لجرح نفسي قد خدش أثناء حوارنا. أما أنا طبيعي ولا أعاني من أي مرض نفسي، الأطباء النفسيون هم المجانين ويريدون إخراجي من عقلي بأدويتهم القذرة هذا كل ما في الأمر. ولكل واحد فينا جانب مجنون يخفيه وراء القناع الذي يرتديه كل صباح، أولم تكن يوما كذلك يا سي الماحي؟ على كل حال أنا على الأقل أعرف أصلي رغم كسري.

صمت المحقق لبرهة وبلع ريقه:

_ ما الذي تشير إليه هنا.

_لا شيء.

– حسنا دعنا نرجع إلى موضوعنا الأصلي بذكرك للجنون، أخبرني ماهي نسبة جنون صديقك سمير؟

– سمير!

_نعم.

_هو هو، وأنا أنا.

صمت المحقق ينتظر إجابة أخرى من فارس.

_في الحقيقة إن كل شخص منا له نسبة معينة من الجنون و....

قاطع المحقق فارس قبل أن يفلسف جوابه مرة أخرى ويحور الحديث إلى جهة أخرى.

– في الرابع من ماي الساعة الخامسة، من صيدلية ديار السوق! اشتريت علبتين من دواء ليريكا..

صمت فارس لبرهة ينتظر من المحقق أن يكمل كلامه.

– وفي نفس اليوم ألقينا القبض على سمير بعلبة ليريكا فارغة! زعم أنها من أجل بحث مدرسي! هل هذا صدفة أيضا!

– نعم لقد اشتريت علبتين، علبة وصفها لي الطبيب تحت ضغط من جدي لأبقى نائما ويرتاح من مشاكلي، وعلبة أخرى من أجل جدتي التي تعاني من آلام الظهر، وأنت تعلم أن دواء ليريكا مصنوعا خصيصا للتخفيف من ألم العظام. وجدي وجدتي هما الوحيدان اللذان أعيش معهما في المنزل وعلي أن أعرف كل الأدوية الخاصة بهما.

– جدتك تأكل ليريكا، سبحان الله! هل لجدك حساب فيس بوك أيضا؟ لا أظن، وماذا تقصد بكلمة "يرتاح من مشاكلي"؟ إذن أنت تعترف أن لك مشاكل نفسية، ربما أردت أن تستدرج المرحوم وتقتله بنفس الخطة التي في الرواية، القتل مثل الروايات تجربة جديدة ممتعة أليس كذلك!

_أظن أن هذا استنتاج غير منطقي و بعيد عن الواقع.

_لا يهم رأيك على كل حال، أخبرني أنت تذكر في نهاية الرواية ماذا حدث للمجرم أليس كذلك!

– نعم أعتقد ذلك.

– إذن لا تقلق ستكون لك نفس النهاية يا أخي.

_هل تعلم هناك فرق كبير بين القاتل وصانع القاتل.

_ماذا تقصد بصانع القاتل؟

_صانع القاتل أشد خبثا وخطرا من القاتل.

_ رغم هذا يبقى التحقيق ليكشف كل الجرائم.

_وهل سيصل مستوى تحقيقك لأن يميز بين من يحقق في القتل ومن يحقق القتل ومن يحق للقتل.

_ماذا تقصد؟

_ هذه جملة ذكرت على لسان بطل الرواية. اقرأ الرواية ربما ستتمكن من فهمها ذات يوم.

***

السيد طارق فاروق

***

– اجلبوا كرسيا أكبر "لمحمد علي[1] "هنا..ههه.

ثم رمى المحقق تفاحة لطارق:

_هاك التقط! كل بعض التفاح فهو مفيد لصحة رياضي مثلك.

التقطها طارق وضعها بجنبه، لكنه لم يقضم منها، ابتسم المحقق ومال نحو طارق بنظرة تنم على المكر:

_لا تخف هي ليست مسمومة.

سكت طارق ولم يرد:

_حسنا. أخبروني أن لك ضربة يد يمنى قاتلة هل يخافك التلاميذ هنا من أجلها!

رد طارق بنبرة بطيئة وخشنة:

– كذبوا عليك إذن يا سيدي أنا لا أضرب سوى داخل الحلبة، وخارجها انا مجرد تلميذ بسيط.

– تلميذ بسيط، تلميذ يتوعد بالقتل والترهيب في منتصف النهار في القسم!

– كيف يتوعد بالقتل؟

– طارق أنظر في عيني، هل ترى هذا الوجه؟ قد أدخل آلاف الرجال قبلك السجن، بعضهم لقي حتفه وبعضهم لا يزال يتعفن بين القضبان.

1 - ملاكم عالمي أمريكي مسلم

– وهل هذا ما تسميه "بالرجولة" في أن تحرم أشخاصا أبرياء من حريتهم؟

– حرية! هل تعلم معنى الحرية؟ الحرية عندما تتحدث بصدق دون أن تخشى لومة لائم، البريء الذي يكذب هو في نظري مجرم، يجب على القانون معاقبته، وإن كنت تريد أن لا تشاهد أصدقائك يفوزون بشهادة البكلوريا وأنت خلف القضبان تعض على أصابعك من الغيظ أخبرني، ماذا همست لإسحاق آخر مرة التقيته؟ فقد شاهدتكم أستاذة الفرنسية وأنت تهدده..

– أستاذة الفرنسية! لا شيء، فقط...

– طارق!

– حسنا لقد أمرته بالابتعاد عن أميمة!

– لماذا! ما علاقتك بأميمة!

– لا علاقة لي , من أجل لقمان صديقي فهو يحبها، بل هو مجنون بها ولكن إسحاق وقف في طريقه لأنها برفقته.. لكن صدقني أني لم أقتله ولم أفكر سوى في تخويفه ليبتعد عنها من أجل لقمان.

– إذن هل تظن أن لقمان هو من قتل إسحاق؟

– لا أعرف، لا أظن..صدقني أنا بريء...

– هل دخلت المكتبة اليوم؟

– لا لا لم أدخل هنا منذ مدة.

– أين كنت أثناء الحادثة؟

– في القسم.

–حسنا أنظر هذا مخطط القسم، أريني مقعدك ومع من تجلس؟

– هنا في الطاولة ما قبل الأخيرة في الصف المجاور للحائط أين الباب.

– ورائك من يجلس؟

– هنا لقمان وهنا مروان..

صمت الماحي لبرهة وحمل قلم رصاص وبدأ يسجل في مكان قعود التلاميذ في القسم.

– هل أستطيع الانصراف الآن؟

– لماذا هل أنت قلق!

– لا سيدي ولكن عندي تدريبات رياضية يجب أن أحضرها في الوقت.

– هل تعلم إن هناك ضربة قوية وجهت لرأس الضحية ونحن لا نظن أن هناك أحدا غيرك قد يتمكن من تسديد تلك الضربة، ما هو تفسيرك لهذا!

في تلك اللحظة ظهر الطبيب يحمل كيسا أبيض شفافا داخله، يلهث ويعيد في كلامه:

– سيدي، سيدي

– نعم تحدث ماذا كانت النتيجة؟

– حتما ستبهرك! لقد كانت شطيرة مسمومة!

– هاه، هل تقول مسمومة!

– نعم وهو سم يستخدم رخيص منزلي يستعمل عادة لقتل الفئران والقوارض.

– ياللغرابة، إذن لقد سمم المكتبي حتّى لا يحضر ويكون شاهدا على جريمة القتل وبذلك نستنتج أن القاتل قد خطط للجريمة من قبل جيدا وحسب حساب كل صغيرة وكبيرة وربما يكون قد نسج قصة تغلف القصة الحقيقة، وتدرب جيدا على ما يقوله حين يخضع للاستجواب.

ثم نظر المحقق لطارق:

_هل تريد أن تتذوق قليلا يا طارق؟

– لا لا شكرا!

– أنت تحب الأكل أليس؟ كذلك ومن غيرك يعرف هذه الأمور والسموم التي تضر الجسد هاه أخبرني؟

_سيدي أنا...

***

_استجواب _

السيد مروان مقدمي

عندما جلس مروان أمام المحقق، دفع المحقق حبة التفاح أمام مروان. أمسكها مروان ووضعها بجنبه، نظر المحقق في عينيه لبرهة وجيزة يختبر تواصله البصري معه، هز رأسه ثمّ سأله:

- أين كنت أثناء وقوع الجريمة؟
- كنت في المرحاض
- هل دخلت المكتبة اليوم؟
- لا لم أدخل هنا.
- رفقة من كنت في المرحاض؟ ومتى آخر مرة رأيت فيها المرحوم؟
- كنت رفقة لقمان وبعض الأولاد الآخرين. كنا ندخن سيجارة نتناوب عليها، حتّى سمعنا الصرخة المدوية، فهرعنا مسرعين إلى المكتبة، وكانت آخر مرة رأيته فيها وهو يدخل القسم صباحا، وبالمناسبة لم يحضر آخر حصة صباحية.

_آخر حصة. هل تقصد من الساعة ال 11:00 إلى 12:00؟

_نعم.

- لماذا برأيك؟
- لا علم لي، لكن علامات القلق كانت تبدو ظاهرة على وجهه. كأنه يخفي شيئا ما! أو يخطط لفعله؟
- يخطط لفعل شيء ما، ما لذي كان يخطط له برأيك؟

_لا أدري؟

_إذن كنت رفقة لقمان، هو صديقك المقرب هكذا!

- نعم يجلس معي في القسم. كنا ندخن سيجارة كما أخبرتك عندما سمعنا الصرخة.
- هل أنت متأكد أنكما كنتما في المرحاض ولم تكونا في مكان آخر؟
- نعم، وماذا تقصد بمكان آخر!
- لقد شوهدتما وأنتما تحاولان الفرار من فوق سور المدرسة الخلفي، هل اختلطت عليكما الخطة؟

سكت مروان لمدة وجيزة، غير من نبرة صوته وأجاب بثقة:

- حسنا أنت على حق نسبيا. لكن الحقيقة ليست مثلما تتوقعه.

_إذن ما هي الحقيقة؟

_ الحقيقة أن حصة الفرنسية هي حصة مملة وثقيلة لا تستهويني لا أنا ولا لقمان، لذلك قررنا الهروب كالعادة من السور الخلفي، لأن الباب الرئيسي مغلق حتّى الساعة الأخيرة من الدوام المدرسي، وحين وضعت رجلي على السور سمعنا الصرخة.

- لكنك الآن قلت أنكما كنتما في المرحاض حين سمعتما الصرخة، أنت متناقض في كلامك أنت لا تجيد الكذب ياسي مروان.
- نعم أعرف هذا لكن...

وصمت مروان. بعدها عرض المحقق مخططا أمامه على الطاولة.

- هذا مخطط قسمكم، أريني مكانك بالضبط ومكان جلوس المرحوم.
- هنا، أقعد أنا في الطاولة الأخيرة في الصف المقابل للباب، أمّا هو فيجلس في نفس الصف، بعدما غير مكانه، من الطاولة الأولى قرب المكتب رفقة أميمة.
- غير مكانه إذن؟

_نعم

_هذا خيط جيد، أخبرني منذ متى غير مكانه وما سبب ذلك في رأيك؟

- منذ أسبوع تقريبا، لا أدري السبب حقا.
- أنت تكذب مجددا، أتقصد أنه لا دخل لك في علاقة المرحوم بأميمة!
- ليس تماما، وهذه العلاقات لا تخصني، لكن ما دخل هذا في موته.
- لقمان صديقك، وبطبيعة الحال ستساعده إن احتاج لك.
- نعم هذا ما يفعله الأصدقاء لبعضهم.
- بالضبط! إذن أنظر في عيني الآن...أخبرني بصدق هل ستساعد لقمان في القتل لو كان ذلك في سبيل صداقتكم؟

ابتلع مروان ريقه وتعرق جبينه وأجاب بنبرة خافتة:

_لا

_ وإن كنت مضطرا أو تحت التهديد هل ستفعل هذا؟

- هو صديقي حقا، لكن لا، فلست قاتلا، رغم الرابط الذي كان يجمعني به لن أفعل ذلك.

_هل تخفي عني شيئا ما يا مروان؟

_لا سيدي.

- هل عندك ما تضيفه!
- لا سيدي

***

السيدة أميمة حراج

***

– لماذا تبكين؟

_خذي تفاحة. هي مهدأ جيد.

لم ترد أميمة

– حسنا أرى أن لك علاقة قوية بالضحية، أم أنك مفزوعة من المشهد الذي رأيته؟

بقيت أميمة ساكتة مطأطئة الرأس تئن بصمت وشعرها منسدل على وجهها، نهض المحقق من كرسيه واقترب من وجهها ليوجه السؤال لها بنبرة صارمة وجادة:

– متى تعرفت على إسحاق وما هي علاقتك به؟

– عرفته، عرفته، ع ر ف ت...."كانت كلمات أميمة متقطعة دون أن تنظر في وجه المحقق، ناولها الطبيب قارورة ماء صغيرة شربت منها وتابعت كلامها بوضوح" في حفل أقامته عائلته، كان حفلا بمناسبة إفتتاح عائلتهم لشركة إنتاج الأجبان، حضر الحفل الكثيرمن رجال الأعمال والشخصيات المهمة.

– هل أنت بنت السيدة جمال حراج صاحب شركة OM للمجوهرات؟

– نعم.

ثم توسعت حدقتا المحقق وتغيرت نبرة صوته.

– ثمّ بعد ذلك. واصلي..

– عرضني أبي على بعض الأشخاص المهمين ومن بينهم أب إسحاق. الذي كان رفقة ابنه وبذلك تعرفت على إسحاق.

– لم تكملي إجابتك على سؤالي، ماذا يكون إسحاق بالنسبة لك؟

– خرجنا في عدة مواعيد، وكنا قريبين لبعضنا، لكن لم تكن العلاقة رسمية، يعني أصدقاء في علاقة مفتوحة.

– ماذا تعنين بأصدقاء في علاقة مفتوحة.

ثم التفت المحقق للطبيب خلفه ينتظر منه شرحا حول هذا المصطلح الجديد الذي يستعمله هؤلاء المراهقون

– كنا نتواعد. وكنت حبيبته!

– كنت؟

_حبيبته فقط.

_حسنا... وقد تقدم لخطبتي. ليس رسميا. لكن قد وضع علي اليد.

_وضع عليك اليد!

_يعني قد أعطى كلمة لأبي بخصوصي.

_حسنا قد فهمتك وبعدها.

– بعدها لم تدم العلاقة وانفصلنا.

_لماذا؟

صمتت أميمة لمدة:

_لا أدري. المكتوب.

– المكتوب آه..حسنا احكي لي ما لذي أخذك للمكتبة وكيف وجدت الجثة؟

– طلبت من الأستاذة الإذن بالخروج من القسم وكان ذلك من أجل أن أستعير كتابا من المكتبة.

– ما نوع هذا الكتاب؟

– كان رواية.

_أية رواية...ما عنوانها؟

_ رحل من دون وجه.

هل تقصدين هذه الرواية ثمّ أخرج الماحي الرواية من بين أوراق جريدته وعرضها على الطاولة أمام أميمة.

_هل تقصدين هذه الرواية؟

_نعم هذه هي.

_لماذا هذه الرواية بالتحديد.

_ لا أعلم.

_وهل هناك من يقرأ كتابا ولا يعلم لماذا يقرأه؟

_ربما فقط عندما رأيت إسحاق يقرأها، انتابني الفضول لأعرف محتواها.

– جيد، لماذا انتابك الفضول وهي مجرد رواية؟

_لا أعرف.

_لماذا؟

_لأن إسحاق ليس من النوع الذي يقرأ الروايات إذ ربما هذه أول مرة أراه يحمل

رواية، لذلك انتابني الفضول لأعرف ما لذي جذبه لقراءة الكتاب، انتظرته حتّى يفرغ من قراءتها لأذهب وأحضرها.

– كيف عرفت أنه أنهى قراءتها وأنه سيضعها في المكتبة في ذلك الوقت بالضبط؟ ولماذا لم تطلبيها منه مباشرة لماذا انتظرته حتّى يذهب إلى المكتبة وتبعته خفية؟

– لم أتبعه خفية وإنما عرفت أنه أنهاها لأنه معي في القسم وكنت أراقبه حين يخرجها ويقرأ، ولم أطلبها منه لأننا كنا متشاجرين، هذا فقط وليس شيئا آخر.

– كنت تراقبينه! ماذا تقصدين بهذا؟

– نعم كما أخبرتك لقد كنا في علاقة وأردت أن أعرف ما لذي يفعله في غيابي.

– لكنه كان يجلس معك في نفس الطاولة أليس كذلك؟

– لكنه غير مكانه.

_لماذا فعل هذا برأيك؟

_عندما سألته لم يجبني.

_حسنا.. حسنا. هناك زر مفقود من مئزرك! ما لسبب؟

– لا أذكر، الآن فقط لاحظت أني فقدت زرا من مئزري!

ثم صمت المحقق لبرهة راح يضرب الجريدة على كف يده ببطء ويفكر ثمّ التفت المحقق للطبيب وطلب منه أن يحضر له كأس ماء.

_وقبل أن تذهب أعطني ذلك الزر

_حسنا ها هو سيدي.

وسلم المحقق الزر الوردي لأميمة:

– هل هذا زر مئزرك؟

تفقدت أميمة الزر وقارنته بأزرار مئزرها الأخرى:

_نعم أظنه الزر الذي سقط من مئزري.

ثم أرجعت الزر للماحي، أمسكه وسأل أميمة وهو يميل رأسه نحوها:

_وهل تعرفين أين وجدناه؟

– لا.

– لقد كان عند رجلي الضحية.

تغيرت ملامح أميمة، شابكت أصابعها وراحت تلوكها على بعضها وقد لاحظ الماحي هذا، ثمّ تكلمت بنبرة سريعة دفاعية:

_لا أعرف حقا لماذا كان هناك، كل ما أعرفه أني عندما دخلت المكتبة ومشيت بين رفوف المكتبة جلست أراقب إسحاق، حتّى آخذ الرواية دون أن يعرف، ثمّ فجأة غاب عن ناظري ولم أعرف أين اختفى، حسبته أنه خرج من المكتبة بعدما وضع الرواية في الرف، اتجهت للقسم المخصص للروايات أبحث عن الرواية ولم أجدها، وفي تلك الأثناء رأيت أحدهم يخرج من باب المكتبة حسبته هو، لكني تفاجأت عندما رأيت إسحاق ساقطا على الأرض"وراحت تكمل جملتها بصعوبة تختلط بالبكاء" والدما....ء تس....يل. م..ن رأ..سه، فلم أعر..ف ما لذي أفع...له، فهر....عت بالبكاء، "ثم تمالكت نفسها ورفعت رأسها وأرجعت شعرها للخلف" في تلك اللحظة ربما سقط مني الزر دون أن أحس.

_هل أنت متأكدة من أنك رأيت اسحاق وهو يرجع الرواية إلى مكانها!

_ليس تماما. لأني لم أجدها هناك.

_هل تقصدين أن الرواية كانت بحوزته عندما تلقى الضربة.

_نعم هذا احتمال كبير.

_ولست أنت من تركها بجنبه؟ أو أوقعتها من يدك!

_لا.

_هل أوقعتها من الرف الذي بجنب الضحية مثلا. لأنها كانت واقعة في الجهة اليمنى من الضحية بينها وبين رف المكتبة.

_لا أعتقد هذا.

– حسنا قد أخبرتنا أنك رأيت أحدهم يخرج من المكتبة قبل أن تجدي اسحاق ميتا على الأرض.

_نعم.

_من الذي رأيته يخرج من المكتبة؟

– لم يظهرلي شكله بوضوح!

– من رأيته يخرج من المكتبة، كيف كان يبدوا، لمن يشبه من زملائك في القسم.

– لا لا أعرف، لكني أظنه...

– من تكلمي. من؟

– لقمان

– لقمان الصابري هكذا!

– حسب شهادة إحدى صديقاتك، لقد حدث شجار بينك وبين إسحاق قبل يومين، ما هو سبب الشجار؟

– إسحاق أحبني، وقد أعماه الحب لدرجة أنه أراد أن يتملكني وغيرته علي أصبحت تزعجني كثيرا، لذلك لم نتفاهم، وكل ذهب في طريقه، مكتوب كما يقولون.

– مكتوب! موت إسحاق حبيبك السابق بمجرد أن انفصل عنك هو مكتوب أيضا! هل أردت الانتقام منه لأنه صفعك أمام وسط الساحة، أم من أجل لقمان.

– لا لا ماذا تقول، لم أفعلها، لقد انفصلنا لمدة فقط، لكني أصارحك "ثم انفجرت بالبكاء شاهقة حتّى تجعدت ملامح وجهها".

ثم سكتت أميمة لحظة قصيرة، استجمعت قواها وقالت بنبرة واضحة

_أحبه يا سيدي.. أحبه ولم أحب رجلا مثلما أحببته لذلك أردت أن أعرف حتّى الكتاب الذي يقرأه، ولو يرجع للحياة لاعتذرت منه ألف اعتذار. لأني لا أصدق أنه قد مات لا أصدق، هو خطيبي وقد قررنا أن نتزوج بعدما ننجح في امتحان البكلوريا، كان دائما يخبرني أننا سندرس في كلية الطب مع بعض لكن...

ثم انفجرت بالبكاء وبإشارة من يد المحقق حملها طارق وأخرجها:

ثم التفت المحقق للطبيب، يسأله:

_ما رأيك في ما قالته!

– لا أدري يا سيدي بحق، أنا لا افهم كثيرا في العلاقات العاطفية لهذا الجيل، لكن! ربما قد أحبته حقا وربما تكون دموع تماسيح فقط.

– لو أحبته حقا لما تركته وبدلته بفتى أقل منه مكانة ومالا وجمالا... عندما تتركك امرأة من أجل رجل وأنت تعرف أنه لا يملك مالا أو جمالا أكثر منك وكل ما هو موجود لديه هو عندك، اعلم أنها لم تحبك من البداية وكانت تمثل فقط. وهذه

الفتاة تبدو ممثلة بارعة حقا. خصوصا إذا خدعتك مع فتى اسمه لقمان، لقمان مطلوعة. مقطوع من شجرة لا مال ولا جاه ولا نسب ولا حسب.

– هل تقصد أنها قد تقتله من أجله؟

– اثنان لا تثق فيهما يا أستاذ رشيد، شمس الشتاء وقلب النساء.

***

السيد لقمان الصابري

***

_هل تحب التفاح!

_لا

_ماذا تحب إذن؟

صمت لقمان.

_هل تحب المطلوع.

لم يرد لقمان واستمر في صمته:

_هل تحب أميمة؟

أمال لقمان رأسه، حرك رجله، وفرك أصابع يديه اللتان كانتا فوق الطاولة ظاهرتين أمام المحقق الذي لاحظ انزعاجه من سؤاله الأخير.

_فهمتك. علي أن لا أطرح عليك هذا السؤال لأنه واضح ولا يستحق إجابة، لكن أخبرني أرى أنك خائف لماذا يا ترى؟

هز مروان رأسه ورد بنبرة سريعة وواضحة:

– لا، لست خائفا!

_هل أنت متأكد؟

_نعم.

وأمر المحقق لقمان بأن يثبت يده أمامه حتّى يقيس درجة توتره من ارتجاف يده.

– اذن ارفع يدك وافتحها، ضعها أمامك هكذا...

– لماذا يدك ترتعش هكذا! إذن!

لقمان يسترجع بعض ذكرياته:

الأم واقعة على الأرض تصرخ وتبكي.

الطربوش الأحمر يتأرجح على الأرض.

الولد الصغير شاخص العيون وملامحه ككرتونة مبللة.

الدماء تسيل من رأس الرجل كان جثة من دون روح جاثما في الأرض على بطنه، خده ملتصق على الأرضية وعيناه جاحظتان أمامه في منظر مرعب، بركة من الدماء تسيح على الأرض وتبلل ملابسه، الفتى متجمد في مكانه، يتراجع خطوة للخلف، ينظر للمقص الملطخ بالدماء في يده ثمّ ينظر ببطء لأمه وهي تندب وجهها وتضرب على الأرض، تهز زوجها لينهض، شعرها الأسود مبعثر في الهواء ويديها ملطختان بدماء زوجها، تصرخ وتنحب مرددة:

_مات، مات... مااااات، ماااات، قتلته، قتله آاااه ربي يا لهواري.. يالهواري.. راجلي مات. راجلي مات.. قتلو.. قتلو

ثم يهرب الفتى مسرعا يحمل المقص في يده يجر عباءته مباعدا بين ساقيه. متجها لواد بوغولة، يصل فوق حجرة الغولة، يرمي المقص في مجرى الواد ويغسل يديه من الدماء والدموع لاتكف تنهر من عينيه بغزارة تختلط بالدماء على أصابعه.

***

– لا لا، لست خائفا فقط أنا....!

– ماذا!

– لا شيء!

– هل لديك شيء تريد قوله، هل هناك ما تريد إخباري به! لا تخف سرك في بئر.

– البئر يسقي كثير من الأشخاص العطشانة للأسرار.

– ماذا قلت!

– قلت لا يوجد شيء فقط أنا لا أحتمل النظر إلى الدم

– هاه، لا تحتمل النظر إلى الدم إذن! أم أنت لا تحتمل تذكر الدم! أنظر جيدا يا مطلوعة أنا أعرفك جيدا وأعرف حكايتك، أو بالأحرى أعرف صحة الحكاية التي حكتها لنا أمك في قسم الشرطة عن القاتل الذي دخل للمنزل وطعن الهواري أبوك لأنه لم يرجع له أمواله التي ربحها في جلسة قمار. وأنه استلف منه مالا حتى يسكر به ولم يرجع له.. لذلك قتله وهرب واختفى، وقد فتحنا تحقيقا في قسم الشرطة ومشطنا كل القرية ولم نجد رجلا بالمواصفات التي أعطتنا اياها أمك، وهل بالصدفة أنك لم تكن موجودا في المنزل ليلة الحادثة وكنت عند صخرة الغولة أمام النهر وبرنوسك ملطخ بالدم، وذلك الدم لا أظنه دم ختان، كنت تغسله في النهر أليس منو الغريب أن فتى جرحه لا يزال جديدا يذهب للنهر!

– ماذا تقول أنت لست من القرية ولا تعرف شيئا عن صخرة الغولة، وماذا يحكى عنها، يومها كنت صغيرا وكنت أؤمن بكثير مما يقوله المشايخ في القرية لذلك قد ذهبت لأرمي الجلدة التي نزعت مني في النهر حتّى تأخذها الغولة و لا تأخذ شيئا آخر مني، ثمّ غسلت برنوسي من الدم الذي سال مني عندما انزلقت رجلي وسقطت على طرف الواد.

–نعم هذه قصتك التي لم تدخل رأسي لا هي، ولا قصة أمك، وهذه هي نفس الملامح التي رأيتها على وجهك أثناء رؤيتك لأبيك ممددا على الأرض، ولا أظنك رميت الجلدة، وإنما في الحقيقة أنت رميت سلاح الجريمة في الواد، لذلك لم أجد الدليل على إدانتك في ذلك الوقت وللأسف لم يصدق أحد كلامي.

– هل أحضرتني هنا لتقص علي حكاية فاتت وتخبرني بكلام لا يتقبله العقل، وتقول أني قتلت أبي بطعنة سكين!

– لا علينا الذي فات قد مات، لكني ذكرتك فقط، كي تعرف أني لا أخرج من قضية إلا وقد حللتها وعرفت المجرم، مهما كان ذكائه والآن كل الدلائل هنا تشير إلى أنك أنت القاتل!

– أي دلائل تقصد!

– حسنا لنبدأ. ما هي علاقتك بإسحاق؟

– علاقة سطحية، هو زميلي في القسم ليس إلا.

– زميلك أم عدوك الذي كنت تغار منه لأن الفتاة التي أحببتها كانت خطيبته ! حتّى تدخلت أنت وكالعادة أفسدت كل الأمور.

– أي فتاة، هل تقصد أميمة؟

– نعم، أميمة ما هي علاقتك بها يا سي لقمان؟

– هي صديقتي، وزميلتي في نفس فوج الأعمال التطبيقية.

– إذن كنت تقضي وقتا معها، لكنك تعرف أنها كانت برفقة إسحاق لذلك كان إسحاق بمثابة العائق بالنسبة لك. ولهذا كان عليك التخلص منه.

– حقيقة أميمة كانت تعجبني ولطالما أردت أن أتقرب منها، وحقا كنت أكره إسحاق ليس لأنه حبيبها فقط، بل لأنه لم يكن يستحق فتاة مثل أميمة لأنه....

– لماذا سكت أكمل، لأنه ماذا!

– لانه كان يظن أنه يستطيع أن يشتري الكل بأمواله وسلطة أبيه، أعماه ماله ونفوذه لذلك كان يرى كل من هو أدنى منه مالا، يراه صغيرا وحقيرا.

***

– أرني ما هذا، أخبروني أنك ترسم جيدا؟

– ماذا تريد مني؟

– أنظروا، ماذا يرسم بيكاسو، دراجة هوائية، صحن فارغ، حقل قمح، بقرة وكلب، ما هذا الشيء؟

– أظنها قربة ماء يا زعيم

– ما ذا تعني بقربة!

– هي عبارة عن كيس مصنوع من جلد الماعز، تعلق في أعمدة خشب وتهزها النساء حتّى تفصل الزبدة عن الحليب، وفي الصيف يوضع فيها الماء ليبقى باردا، أعرف هذا لأن أبي كان يأخذنا عند جدتي في البادية في الصيف وعرفني بها.

– هه هه هه... هل تقصد أنهم يشربون من جلد الماعز، كم أنت مقرف أيها البدوي المتخلف، أنتم وعاداتكم، لماذا لا ترسم طبقا مملوءً وتأكل منه وتسد جوعك قليلا، هيا اضحكوا هه هه هه.

– أعطني أوراقي، أعطني أوراقي..

– انتظر سأملأ لك بعض الماء لتشربه في الطريق، هيا التفتوا

ثم فتح إسحاق حزامة سرواله وتبول فوق رسمة القربة ووضعها وسط الرسمات الأخرى.

– خذ هاك ستبرد في الطريق وعندما تعطش أشرب منها، هههه، هههه اضحكوا هيا، انصرف الآن... امشي... دعوه يمر.

***

– ولأنه كان يعتمد على أموال أبيه في كل شيء، كان يرشو حتّى بعض الأطفال من جماعة الصراصيرلحمايته.

– إذن كنت تريد النيل منه من قبل، لكن الفرصة لم تواتيك فقط، وليس هنالك مكان مناسب أكثرمن المكتبة الفارغة في المساء أليس كذلك!

– لا لا، رغم أنه كان شخصا لا يعجبني إلا أني لم أفكرفي قتله أبدا.

– حسنا أخبرني على الساعة الرابعة وعشرين دقيقة أين كنت؟

– كنت في المرحاض.

– هل أنت متأكد أنك كنت في المرحاض ولم تكن في مكان آخر؟

– نعم كنت في المرحاض مع مروان، وكنا نخطط للهروب من السور حتّى لا نحضرحصة الفرنسية المملة. أخبرت مروان بأن يخرج ثمّ تبعته.

– لماذا لم تخرج معه؟

– لأن الحارس سيلاحظ خروجنا، فلو خرجنا دفعة واحدة سنستغرق وقتا أطول.

– لكنك لم تخرج، لم تتبعه، أنت تكذب أين ذهبت؟

– لا لست أكذب.

– هل تعرف أن كل هذا التضليل سيلعب ضدك في المحكمة.

_تضليل!

_نعم، لأنني أعرف أنك في تلك اللحظة قد توجهت للمكتبة لتتعقب إسحاق.

صمت لقمان لبرهة ثم أجاب:

– في الحقيقة نعم قد توجهت للمكتبة، لكني لم أتبع إسحاق، بل قد كنت واقفا أمام حنفية الماء قرب المرحاض، لاحظت دخول إسحاق للمكتبة لم أعره انتباها، لكن بعده بلحظات رأيت أميمة تتبعه. لذلك دفعني الفضول فتبعتها حتّى أرى ماذا سيفعلان داخل المكتبة؟

– لماذا تبعتها؟

– لأنها كانت في علاقة معي وقد أخبرتني أنها لم تعد تحبه وقد قطعت علاقتها به من أجلي.

– من أجلك إذن.

_نعم.

_ لكنك قتلته.

– لا، لم أقتله.

– أميمة هي من رأتك تغادر المكتبة وبعدك بلحظات وجدت إسحاق مقتولا على الأرض. إذن الأمر واضح أنت هو القاتل، أنصحك بالاعتراف وهذا سيكون في مصلحتك في المحكمة.

– لا لا، لا تفهم الأمور هكذا، سأشرح لك الأمر.

_تفضل!

_ عندما تبعت أميمة إلى المكتبة رأيتها من جهة قسم الروايات، متخفية بين الرفوف تراقب إسحاق، في تلك اللحظة عرفت أنها لا تزال تحبه وهي تهتم بكل ما يفعله صغيرة وكبيرة، هناك استنتجت أنها قررت أن تكون معي فقط من أجل أن تثير غيرة إسحاق أو ربما حتّى تنساه فقط، قلبي لم يهدأ من جهتها، أحسست أنها تخفي شيئا عني، حتّى رأيت نظراتها له في المكتبة وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أنها لا تزال تحبه، ولم أرد أن أفسد الأمر عليهما وتركتهما لوحدهما في الداخل ثمّ خرجت من المكتبة مسرعا وهذه هي القصة كاملة.

– تقصد أنك تبعت أميمة ولم تتبع إسحاق، هل تعرف أنه من الحب ما قتل، وحسب كلامك أنك تستطيع أن تفعل أي شيء من أجل أميمة حتّى تثبت لها بأنك تحبها، لأنك لا تملك المال الذي يملكه إسحاق لكنك تملك شجاعة القتل الذي لا يملكها إسحاق.

_لا سيدي لم أقصد أن...

_ شكرا..شكرا..قد انتهينا الآن، يمكنك الانصراف الآن. وخذ هذه التفاحة هدية مني.

رمى المحقق التفاحة ليلتقطها لقمان، ثمّ نهض الماحي من الكرسي يقوم بطرطقة عظام ظهره.

***

قال المحقق متنهدا بصوت متعب:

– أوف لقد أرهقني هؤلاء الأوغاد..لقد كان تحقيقا طويلا.

رد الطبيب وهو يجلس في الكرسي أمام المحقق:

– إذن ما الذي استنتجته يا سيدي، من هو المجرم في رأيك؟

– في الحقيقة لكل شخص فيهم دوافع للقيام بعملية القتل، غيرة، حب، انتقام، هاجس نفسي، صداقة، حقد...لكل شخص فيهم دليل يورطه في الجريمة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وفي نفس الوقت لكل منهم حجج وبراهين يدافع بها عن نفسه، إمّا بنفيه التام لما قيل عنه أو بإبعاده الشك عنه بخلق شكوك في شخص آخر، وعندما يشك كل واحد في الآخر والآخر يشك في غير الشخص الذي شك فيه، تختلط علينا الاحتمالات ولا أظن أن هذا من عمل الصدفة فقط!

– إذن!

– أظن أن العمل مدبر ومخطط له مسبقا من أجل تضليلنا في التحقيق.

_ألا تظن يا سيدي أنك قد تكون بالغت في الأمر قليلا!

_ماذا تقصد ببالغت؟

_من وجهة نظري هم في الأخير مجرد أطفال، ومراهقون بالتحديد تسيطر عليهم مشاعرهم ونزواتهم وهي من تدفعهم للقيام بالجرائم. وليس...

ابتسم المحقق ابتسامة عريضة في وجه الطبيب وقال بنبرة جادة وعينين سارحتين في التفاحة أمامه:

_أطفال.. نعم أنت محق في ما قلته عن دافع الأطفال للقيام بالجرائم حيث تقودهم شهواتهم ونزواتهم وهرموناتهم غير المستقرة لفعل ذلك وهذا المعتاد في معظم الجرائم التي مرت علينا من قبل.

قال الطبيب:

_إذن....

_لكن صدقني أن هؤلاء ليسوا مجرد أطفال عاديين، لكل منهم شخصية متميزة ولكل منهم ماضٍ مملوء بالخيبات والألم. منهم من عرفته منذ زمن ومنهم من عرفت أقاربه ومنهم من عرفت شخصيته النرجسية المتحايلة وأشياء أخرى، صدقني أنهم ليسوا مجرد أطفال حتى ملفاتهم المدرسية تقول أشياء كثيرة غير متطابقة مع الواقع.

_كيف ذلك! هل تقصد أنه تم تعديلها أو العبث بها؟

_نعم هو احتمال كبير.حتى الرواية لم تكن هناك عبثا، كأنها لعبة مخطط لها من قبل كأنهم يريدون أن يتحدوني. لكنهم للأسف لا يعرفون من هو الماحي بل سمعوا عني فقط.

ثم قضم الماحي قضمة من التفاحة وساد الصمت لبرهة في القاعة. ليكسره الطبيب ويوجه كلامه للماحي الشارد في تفكيره.

– أظنك يا سيدي قد نسيت أمر ضربة اليد اليسرى والشخص الأعسر.

– لا تقلق يا دكتور فلم أنسها.

_لكن لم أرك تسألهم أثناء الاستجواب عن اليد التي يستعملونها أكثر.

_بلا قد فعلت ذلك، لكن بطريقة مباشرة.

_كيف ولماذا اعتمدت على طريقة غير مباشرة؟

_لأنه لو كان الأمر عن طريق طرح السؤال، ربما سيتعمد المجرم الكذب ويضللنا. لذلك أخبرني التفاح.

_التفاح!

_نعم السر في التفاح. وليس كل من يأكل التفاح من الملاح.

_ماذا تقصد؟

_قد ظهرت حتى أنت لا تعرفني يا دكتور رغم علاقتنا التي تمتد لأكثر من خمسة أعوام.

ضحك الدكتور وقال:

_ماذا تقصد؟

رد الماحي وهو يقلب التفاحة بين يديه.

_لو لاحظت عندما كنت أستجوبهم كنت أعرض عليهم أكل التفاح إمّا أرميه لهم أو أقسم لهم جزء منه. وأثناء ذلك كنت ألاحظ أي يد يمسكون بها التفاح وأيضا طريقة امساكهم له، فهذا يعكس كثيرا من نفسيتهم الخفية، ومن لا يأكل التفاح أعطي له ورقة ليسجل اسمه وعنوانه بالرغم أني أعرف كل ذلك من ملفاتهم المدرسية، ومن يتقدم ليصافحني لا أختبره بأي شيء مما سبق، فمسكة يده كافية لأن أعرف الكثير. وبذلك قد عرفت اليد التي يكتب بها كل واحد فيهم. وكيف يستخدم قبضته.

عقد الطبيب حاجبيه وابتسم من الطريقة التي استخدمها المحقق للكشف عن الشخص الأعسر بينهم:

_ههه طريقة ذكية يا أستاذ، أنا أعرفك منذ سنوات وأعرف أن التفاح لا يفارقك لكني كنت أظنك تحب أكله فقط. ولاحظت بعدها أنك تأكل التفاح فقط. عندما تحقق مع الآخرين. ولم أكن أعلم أنه خدعة تعرف بها كل هذا!

_هذا وأكثر.. ونعم أنا أحب التفاح... وهي مهدأ جيد للأعصاب بالمناسبة وأنا أستخدمه في أشياء أخرى غير هذه التي كشفتها لك الآن.

_ماهي يا أستاذ؟

_لن أقولها لك. فستنتبه لها أثناء التحقيق وتصبح غير صالحة، فمثلا لو أخبرتك عن خدعة إمساك التفاح. حتما عينك ستنحرف باتجاه التفاحة من حين لآخر وسيلاحظ الذي استجوبه أن في الأمر خدعة ما. هل فهمتني الآن.

_نعم أنت محق.

_والآن تذكر فقط أنه ليس كل من يأكل التفاح من الملاح.

– حسنا. إذن من هو الشخص الأعسر من بينهم!

– لا تفاجئ، لكن لا أحد فيهم يكتب بيسراه.

– لكن ربما قد...

ثم قاطع المحقق الطبيب وهو يلوي جريدته ويضعها في جيبه الخلفي:

– هل تريد القول أن هناك شخصا قد تعلم الكتابة بيديه الاثنتين! لا لا أظن أن هذا وارد، ولهذه الدرجة سيفكر قبل الجريمة، لأنك تعلم أن ذلك قد يستغرق أعواما من الممارسة. لكن لا تقلق كل شيء سيظهر في المحكمة. وهذا المجرم قد خطط لكل شيء بإحكام ودرس خطة القتل جيدا، كأنه يريد أن يختبر ذكائه معنا. كلهم أذكياء وأذكاهم من يتغبى بذكائه.

_إذن حسب كلامهم وما جمعناه من أدلة لحد الآن من تراه المشتبه الأول في قتل إسحاق؟

ابتسم المحقق وأخرج تفاحة أخرى من جيبه قضم منها ورماها للطبيب:

_ليس كل من يأكل التفاح من الملاح.

أحمد البغل والماحي

فتحت عيني على أصوات عراك وشتيمة، وجدت نفسي نائما على أرض إسمنتية باردة، أول ما رأيت شعاع شمس الصباح يتسلل خلف قضبان النافذة الصغيرة فوق رأسي، رائحة العرق تملأ المكان، أسرة حديدة حوالي العشرة الواحد فوق الآخر، رأيت قرب باب الزنزانة جماعة من خمس أشخاص بينهم عجوز وشاب في عمري، يتعاركون على عقب سيجارة من سيكون له آخر نفس، الرطوبة شديدة، أشعر أني أختنق لا أعلم كيف نمت البارحة وفوق رأسي هذا المرحاض القذر مباشرة. يبعث قذارته، ليلة كاملة وأنا أسمع خرير المياه، ظننت أني أحلم وظننت أن المطر يصب في الخارج، شعرت بطعم مرارة صدئ تحت لساني، ظهري متشنج ومتصلب.

سعلت، وسعلت بقوة أكثر. كنت ألبس قميصا داخلي أبيض بالي، ووجهي شاحب يميل لوجه جثة، تدحرجت من مكاني وقفت أمام القضبان متوجها للحارس حتّى أتمكن من الاتصال بأحدهم ليحضر لي دوائي، قاومت ذلك ولم أرد أن أتصل بأمي حتّى لا أقلقها، ناديت على الحارس الطويل وقد كان يضع رجلا على رجل ويقرأ جريدة، لم يستجب في المرة الأولى، قرعت القضبان بكأس حديدة ولم يستجب، بعد لحظات من النداء على الحارس دون جدوى، اقترب مني أحد من المساجين الذين لم يتم إصدار الحكم في حقهم بعد كان رجلا أصلع، يبدو في الأربعينات من عمره، ضخم الجثة، على ذراعه وشم امرأة حامل. بنبرة خشنة ومبحوحة:

– لا تتعب نفسك فهو يضع سماعات في أذنه ولن ينهض إلا للتبول فقط أو الأكل.

ثم أسندت ظهري للقضبان لأتلقى الخيبة وتنطحني التساؤلات عن حال أصدقائي.

قال السجين:

– سرقة, حشيش، سكر، شجار، تزوير هوية أم لا شيء مما سبق!

– لا شيء مما سبق.

– إذن أظنها جريمة إلكترونية فهذا أصبح منتشرا بكثرة هذه الأيام عند المراهقين، هي طريقة مسالمة لحد كبير أفضل من القتل والتيتيم من أجل أمور سخيفة، استخدام العقل أفضل من استخدام القوة، ليتني تعلمت ودخلت المدرسة مثلكم.

– كيف عرفت أني أدرس ومن أنت؟

– لا تقلق يا بني، هذا واضح من الحبر على سروالك، ولا يهم لماذا أتحدث معك، وراء هذه القضبان وبعد مدة لك وأنت هنا، تعتاد على تقشير الكلمات.

_تقشير الكلمات!

_نعم.. تعتاد على قتل الوقت بأي شيء كان قبل أن يقتلك، لذلك هنا وبين هذه القضبان لا شيء أمتع بالنسبة لنا من قصة جديدة نهضم بها ساعات الحبس الجافة، وكل وافد جديد هو قصة جديدة.

صمت قليلا. ثمّ تابع كلامه واضعا يده على كتفي:

– أو زوجة جديدة...

_ماذا تعني. انزع يدك عني...

عندما سمعت آخر ما قاله ابتعدت للخلف وشددت قبضتي على كأس الحديد في يدي.

–ههههه... لا تخف أنا أمزح معك فقط، منذ ماتت زوجتي عقدت العزم أن لا ألمس أحدا بعدها وأن لا أعشق بعدها.

أردت أن أستدرجه في الكلام لأعرف نيته:

– كيف ماتت زوجتك؟

– لا أعرف!

_وهل أنت نادم على ما فعلته!

_كنت سكرانا لا أذكر ما حدث في تلك الليلة. وماذا عنك هل أنت نادم على قتله ؟

– من تقصد؟

– زميلك في المدرسة.

– كيف عرفت أن...

– الحراس هنا من أجل سيجارة فقط، قد يعطونك ملف أي سجين.

– إذن تستطيع أن تعرف ما حل بأصدقائي؟

– هل تقصد سمير وطارق ومروان وفارس.

_نعم.

– لا أعرف.

_كيف لا تعرف وأنت تعرف أسماءهم و...

– أنظر هنا لكل زنزانة "بيفو" خاص بها، والبيفو هو الرجل الذي ينقاد لأمره كل من في الزنزانة أي أنه رئيس الدولة هنا ولا تخفى عليه خافية، وأنا البيفو هنا. وحين تخبرني كيف قتلته ولماذا قتلته، حينها يمكننا أن نتحدث جيدا.

_حسنا أخبرني أنت أولا..هل قتلتها حقا؟

– أنظر هنا "وأشار لأسفل عينه" هذه الدمعة تشير لخسارة شخص عزيز على القلب.

– لكن هناك دمعتان.

– نعم، هذه دمعة كبيرة من أجل زوجتي وهذه دمعة صغيرة من أجل ولدي.

– هل تقصد أنك قتلت زوجتك وولدك؟

– لا لا.

في تلك اللحظة تملكني الذعر وشعرت أني أمام كتلة بشرية من دون مشاعر أو عواطف.

– لكني أحببتها من أعماق هذا القلب المتحجر ولن أنسى قصة الحب التي عشتها معها أبدا.

– وكيف إن احببتها حقا، هل تقتلها؟

– اسمع هناك بعض الأمور يبتلينا بها الرب لأننا وصلنا لأن نحب عبدا مثل حبنا لله، وبذلك يريك الله قدرته ويحرمك من ذلك العبد وأشد الابتلاء أن يحرمك منه بيديك أنت.

تابعت أسمع للرجل في شرود وذهول وأكاد أفهم تلميحاته ثمّ لا أكاد...

لاحظت وشم امرأة حامل في ذراعه ولم أفهمها حتّى بدأ يسرد عليه قصته.

_فتيحة كانت أحب امرأة لقلبي، حينما كنت بعمرك، كنت أذهب كل يوم للثانوية لا من أجل الدراسة بل من أجل رؤيتها فقط، عشقتها حتّى النخاع وذات مرة أعلنت لها حبي وأعلنت حربا لأتزوجها وفعلت ذلك، ورحلنا إلى هذا المكان بالضبط

في سفح جبل اسمه جبل زكار، عشنا كل شهورنا عسلا، ذات مساء شتوي بارد وأنا عائد من الصيد رأيت رجلا يرتدي برنوسا ويقترب من بيت فتيحة، شحنت بندقيتي وصوبت نحو ظهره مباشرة لأسقطه أرضا وأرتمي فوقه لأكمل عليه، ولما نزعت عنه غطاء رأسه لأرى من هو الوغد الذي أراد أن يطال محبوبة القلب. وجدت أنها فتيحة.

_زوجتك... لكن كيف؟

_نعم فتيحة. بعدما كانت تدخل الملابس التي نشرتها في الخارج لبست برونسي من أجل أن تحتمي من المطرومن أعين الآخرين. فلم أعرفها من تخفيها ومن المطر أيضا.

بعدما أصبتها برصاصة في ظهرها. أسرعت بها إلى المستشفى وقد كانت حاملا بابني، استطاعوا في المستشفى أن ينقذوا ولدي لكن هي توفيت، بعدها أصبحت الدنيا ظلاما في وجهي، وضعت ابني في ميتم. وقررت الانتحار. وبعدما فشلت محاولة انتحاري هجرت البلد، ثم مرت الشهور والأعوام، واستجمعت نفسي وقرت أن أفتح صفحة جديدة فتزوجت من جديد، وأنجبت طفلا سميته فارس. هل تقصد أنت أب...!

_نعم فارس ولدي.

_لكن كيف دخلت السجن.

_بعد أعوام شكلت عائلة صغيرة، وتخطيت الماضي ونسيته. وذات يوم وصلني محضر من الشرطة تستدعيني. دخلت إلى الشرطة وهناك التقيت بمحقق فتح لي ملفا قديما..يورطني في جريمة قتل زوجتي. وهل تعرف من يكون ذلك المحقق!

_لا تقل لي هو الماحي نفس المحقق الذي حقق معنا.

_نعم وهل تعرف من يكون الماحي هذا ؟

_لا تقل لي أنه!..

_نعم هو ذلك الفتى الذي نسيته في الميتم، عاد ليصبح محققا وينتقم مني وعلى ما فعلته به وبأمه.

_ينتقم منك. ماذا تقصد.

_عندما استدعاني الى مقر الشرطة. لم يكن يملك الأدلة الكافية ليكشف جريمة قتل أمه. لكنه بحث عني لسنوات، هل تصدق أنه أصبح محققا فقط من أجل أن يجد قاتل أمه، وبدأ البحث والتحري منذ أن كان في الميتم. حتّى التحق بسلك الشرطة. ليحل قضية قتل أمه الغامضة والتي صرحت حينها أن من قتلها هو جارلنا. استدل الماحي بذلك الخيط حتّى يصل إلي ويجد الحياة الهادئة التي أعيشها، فأراد أن يذيقني ما أذقته. وقتل زوجتي أمام عيني ولفق لي تهمة قتلها.

_لفق لك تهمة قتلها. كيف!

_قضية معقدة هو القاتل والمحقق فيها. لذلك لا أمل من محاولة تبرأتي.

_لن يضيع حقك لا تقلق، سينكشف يوما.

_لا. هذا هو حقي. أنا أستحق ما أنا فيه. يجب علي أن أسدد ديني وأنا الآن أفعل ذلك.

_وهل سردت عليهم قصتك.

_نعم، أخبرتهم أني لست القاتل ولكن السكين وجد في جيبي، وضع سلاح الجريمة في جيبي وأنا نائم. وحين استيقظ فارس تفاجأ أمه جثة مذبوحة أمامي. والدماء تسيل من يدي وأنا متجمد مكاني. بعدها داهمت الشرطة المكان في طرفة عين اتصل. وهكذا لفقت لي الجريمة.

_أمر مؤلم حقا...

_ صدقني أن أكثرما يؤلمني هو أن فارس ولدي يراني قاتلا. ومنذ ذلك العام دخل في حالة نفسية صعبة جدا. ولم أروجهه منذ أعوام حتّى رأيته يدخل السجن أمامي اليوم فلم أصدق عيني. فارس ولدي قد كبروصار رجلا. لم أره منذ عشرة أعوام. وحتى أنت تغيرت كثيرا...

_ إذن قد كنت...

_نعم أتذكرك لما كنت تلعب مع فارس كرة القدم. كنت صديقه المقرب. هل تزال كذلك.

_طبعا فارس مثل أخي. الآن عرفت لماذا كل ما سألته عن أبيه يتغيروجهه. ويكتفي بقول أنه في الخارج.

_في الخارج!

_نعم

_لا ألومه. فقد كذبوا عليه مثلما كذبوا علي.

_كم بقي لك من عام حكم!

_عشرة أعوام أخرى.

_ربي معك.

– السجن يا بني ليس فقط للمجرمين والقتلة، السجن أيضا لمن خانهم الحظ وابتلاهم الرب، وتعرف ماذا يقولون "الحبس للرجال ". هذا هو عمك "أحمد باني "القاعد أمامك، الذي تداولت الصحف قضية قتله لزوجته بدم بارد وأصبح الماحي بطلا في تلك الرواية.

_كم هو حقير. لم أرتح له منذ البداية.

_دعنا منه، الآن دورك.

_دوري.

_ماهي قصتك!

–حسنا..اسمها أميمة وقد التقيتها أول مرة في سوق الخضار بعتها خبزة مطلوع، وقعت في حبها من أول نظرة لكنها من طبقة ثرية، كيف لها أن تكون من نصيب بائع مطلوع بائس. ثمّ في المدرسة........وأنقذت...... القلادة...ثم....

_هل تقول بأن الرجل الذي أنقذته هو أبوها وهو نفسه رهن أبوك المنزل له بعد موته.

_نعم ثمّ بعد ذلك................ سبعة أشهر....وأمي ت.....

– ثمّ ماذا جرى حينما أصبت بالسرطان؟

_قلت..........علينا...

– إذن قررت أن تقتله؟

– لا أعرف لكننا اجتمعنا نحن الأربعة بعد نهاية الدوام المدرسي في القسم أنا، فارس ومروان وسمير وطارق... وبدأنا بمناقشة الخطة التي سطرها فارس للنيل منه.

_لكن لماذا قررت فعل ذلك في المدرسة وليس في مكان آخر!

_ لأنه كان يحمي نفسه بجماعة من الصراصير كانوا بمثابة الحارس الشخصي له، وخارج المدرسة نفوذه أقوى منا بكثير، لذلك اقترحنا أن يكون المكان بعيدا عن الأعين وكان ذلك من اقتراح ابن أيضا.

_ماهي الخطة؟

_ سمير يبيعه بعض المهلوسات"ليظهر حين موته أنه انتحر إثر جرعة زائدة من المخدر". وأمّا كيف ندخله للمكتبة فهذا عمل فارس الذي دبر لعمل ذلك، بأن يغريه برواية بوليسية بطلها ينتحر في الأخير ولفعل ذلك عليه أن يتبادل ورقة امتحانه مع إسحاق ويحصل له على النقطة الكاملة وقد تمكن من فعل ذلك وسلمه الرواية وذكره بتاريخ إعادتها لرفوف المكتبة ليبدوا الأمر عاديا.

وكان يجب على مروان أن يستغل عامل المكتبة ليسرق مفتاح المكتبة ويقوم بمراقبة تحركاته خارج المدرسة فلاحظ حبه لكرة القدم، وتمكن من أن يختلس المفاتيح من جيب سترته في غرفة تغيير الملابس بعدما دعوناه ليشاركنا مباراة كرة.

أمّا طارق فهو الذي قام بتسميم شطيرة للمكتبي قبل موعد الجريمة بيوم:

– يالها من خطة عبقرية، لم أسمع بهذا الذكاء في حياتي الغبية من قبل، ولم يقصص علي سجين مثل هذه القصة...أكمل أكمل

و أمّا أنا فبقي لي آخر جزء وهو النيل منه.

_وهل حقا كنت تريد أن تقتله.

_لا أكذب عليك. كنت أعمى لا أعرف ما كنت سأفعله في تلك اللحظة. لكني كنت مترددا في ذلك. لهذا دخنت سيجارة حشيش من سمير حتّى لا أتردد أكثر. ولا أذكر ما فعلته. انتظرت في المرحاض أدخن وأراقبه حين يدخل المكتبة، وحين دخلها تبعته.

– ثمّ ماذا؟

_وقع ما لم يكن في الخطة وما لم يكن في الحسبان.

_ماذا وقع ؟

_رأيت أميمة وهي تراقبه من بعيد.

– تراقبه!

– نعم وجدتها هناك في المكتبة قبل دخولي.

_لماذا؟

_لا أعرف حقا.

_وهل قتله أنت ؟

_لا

_كيف إذن!

_وجدته ميتا.

_وكيف ذلك؟

_لا أدري لكن كل ما أعرفه أني حين اقتربت منه لأجهز عليه وجدته ميتا، فهربت مسرعا من باب المكتبة، ثمّ بعد خروجي مباشرة سمعت صرخة أميمة.

– إذن من تظنه القاتل؟

– لا أعرف هذا الذي يشغل بالي!

– هل تظنها أميمة!

– لا أعرف لكن...

_لماذا تبعته إلى المكتبة وقد انفصل عنها وأهانها وسط الساحة حين صفعها أمام الجميع.

– لا أظن أن أميمة بمقدورها أن تقتل نحلة، لكن ما زاد ارتيابي هو حينما كنا داخل القسم نخطط لقتل إسحاق سمعنا صوت سقوط كرسي عند الباب...

– هل تظنها كانت تعرف خطتكم وقررت أن تتم رأس الخطة لتنتقم من إسحاق وتلفق لك القضية

– لا أعرف حقا، وكل الذي أعرفه أن حبها لعنة لن تفارقني.

يوم المحاكمة

كنا خمستنا أمام القاضي، أمي تكتم دموعها بين أحضان جدي وسط الحاضرين، ونظرات الحزن بادية على وجهها أحسست أن العالم كله قد تواطأ ضدي، ليجعلني أتهم بالقتل وأصاب بالسرطان وأصاب بالعشق وأصاب بماضي مسخوط من القدر. رغم كل الفقر الذي نعيشه. قد تكفلت أمي وجدي بتوكيل محامي ليدافع عن قضيتي.

و بين الحضور تفاجأت بالسي جمال بين الحاضرين، يتابع مجريات المحاكمة بدقة وعلامات القلق بادية على وجهه.

مضت الساعات ثقيلة على قلبي وكثير من الأدلة كانت تشير ضدي.

و في الأخير رفع القاضي مطرقته في الهواء، وقبل أن يصدر الحكم اقتحمت المكان سيدة يبدو وجهها مألوفا، تجاوزت الشرطيين الواقفين في مدخل قاعة المحاكة ومرت أمام الكل وقفت وسط القاعدة ورفعت صوتها وقالت:

-........

مذكرات مشعة

ياربي حررني مني.

كل يوم أذهب إلى المستشفى، ترافقني أمي دائما نصل إلى الطبقة الثالثة تحت الأرض.أدخل إلى بطن المبنى. بالضبط إلى مركز "الراديوتيرابي. هذا السيناريو أصبح يتكرر كثير حد الملل البارد.

المرة الأولى حين وقفت أمام الباب. شعرت بأني لا أستطيع أن أتنفس قلت لنفسي أنه علي أن أتنفس مثلما يفعل غارق في البر، أتنفس بصعوبة. أخاف، أرتجف. أختنق تحت الأرض، عينا أمي تشع تحت عجارها والحزن ينبعث من ملامحها.

يستقبلني رجال يلبسون البرانس البيض وأسماءهم مطرزة على صدورهم باللغة الفرنسية بخيط أزرق. هندامهم حسن وبشرتهم بيضاء، يرتدون في أرجلهم أحذية بلاستيكية زرقاء.

كل شيء بدأ ببعض " السعلات " من الدم. اعتقدت بأنه مجرد مرض عابر. حاولت تناسي الأمر. لكن المرة التالية كانت أكثر جدية، فقررت أن أراجع الطبيب اللوناس نصحني باستشارة اختصاصي آخر، جرتني أمي. ووصلنا هنا إلى طبقة ثالثة تحت الأرض. بعد فحوص وركض من اختصاصي إلى آخر وأنا في حال إنفصال عن ذاتي، لا أصدق ما يجري. كأنني شاهد مفرغ من كل إحساس. وجوه. أوراق. دهاليز. مراكز متخصصة. ممرضات ممرضون.، أوراقي، اسمي. بطاقة الهوية. بطاقة التأمين الطبي. وجوه من حولي تأمرني بخلع ثيابي.

إلبس البرنس، ألبس البرنس الأبيض السخيف لأدخل إلى مكان صغير. ولأخرج منه إلى ممر فسيح تهجم منه موجة من الصقيع الذي يقزز الأسنان. من جديد أوامر:

اخلع

قف

ارفع يدك

لا تتنفس.

تنفّس طويلا.

انتظر قليلا.

شكرا.

البس.

على سلامتك.

يقولها وهو يفكر بالرقم التالي. كم الساعة؟ لا يهم. يردد الأوامر كالببغاء. الرغبات. لكل من يدخل إلى مملكته السقيمة.

يا ربي حررني مني.

هذا الوسواس الغيب لا يكف عن المماطلة بدحرجة أفكاري الثقيلة، وأنا أكتب هذه المذكرات السخيفة التي لن أعود لقراءتها، وبي رغبة عارمة في نزع كل ملابسي أريد التخلص من هذا الجسد المريض الذي أتعبني وأتعب أمي أكثرمني، أشعرأني أذوب من الألم، أتفتت من الداخل، أحيانا أشعرأني أختنق، أغرق، رئتي ثقيلتان كصخرتين، أضغط على نفسي لإخفاء الأمرلكن في الحقيقة قد تعبت من إظهارهذه الصلابة أمام عيشة، خشية أن أغبنها معي، بي رغبة أخرى بالخروج عاريا تحت هذا المطروالتجوال أحمرالجلدة مثلما ولدتني أمي... مثلما كنت صغيرا. أهرب لأمي عندما كانت تحممني داخل قصعة الماء الزرقاء. يحرق عيني شامبو الغسيل، أبكي وأمي لا تبالي، أبكي حين يسقط داخل عيني ثمّ أهرب مثل فرخ زاوش فرمن عشه.

أنزلق من بين أصابعها وأفر دون وجهة فقط لأخرج من قصعة الماء. الجميل أني أتذكر هذا كأنه البارحة. والسيء في الأمر إني نسيت إحساس أن يتجول المرء عاريا، لا يبالي بنظرات الناس أو بعادات وتقاليد تحده وتحول بينه وبين الوصول لتجربة أحاسيس متلبدة عنه وإدراك تجارب حية غريزية والتمتع بها... تراودني هذه الفكرة كثيرة، المشي حرا عاريا ومطاردة حبات المطر الصغيرة الجري والتعثر والسقوط والجراح في ركبتي والمشاجرة والحياة غير الرسمية، أكل التراب الأحمر، ولعب الغميضة والجري وراء الشاحنات المتوجهة للمفرغة، التمرغ في الوحل مثل الأيام الخوالي. كحلوف صغير لا أبالي لا أعرف معنى صنع صورة مناسبة في عين أبناء جلدتي وشخصية محترمة ثمّ تبا لكل هذه الحدود المصطنعة.

قضايا وآراء واعتقادات وقوانين فقط التجرد من كل شيء... كطائر مقنين مغرد بين أشجار العرعار والصنوبر.

المجابهة الأولى.

تسجيل. انتظار. أمي تنظر نحوي، لا أستطيع مبادلاتها النظرات لأني حتما سأتحطم أكثر. تقول لي ربي معنا. ربي كبير.

أجيبها بصوت خافت: ايه، ربي كبير. ربي كبير.

الساعات تمر ونحن على كرسيّينا. الناس يدخلون. يطلبون نتائج صورهم. يسجلون أسماءهم للتصوير. عالم جديد غريب عجيب. أتابع بعيني حركة مستديمة. ونحن نتفتت ببطء سمين بلا أكل. بلا شرب. بلا شراع. لا نعرف أين قد تقلنا السفينة التي ستأتي. أفكر كيف تعيش كل هذه الوجوه. هل هم يتوقعون الأسوأ؟ هل هم يخافون مثلي. ترتجف يدي. أحاول أن أخفي هلعي. أمي تعرف جيدا أنني محطم، رغم محافظتي على صمتي. لا تجد الكلمات التي تهدئني. أعتقد بأنها مرعوبة. مرعوبة يمكن أكثر مني. الأمهات رأسهن يشتغل بسرعة كبيرة عندما يكون الحدس قد تجاوز لديهم حال الاستنفار.

_السيد لقمان تفضل

أمي تمسك يدي. ليتها تستطيع أن تزيل البلاطة التي تضغط على رأسي. من هنا. أدخل إلى هذه الغرفة.اخلع ثيابك. البس هذا البرنس. أخرج وأغلق المقصورة. ستدخل بعد لحظات.

_ أدخل أين؟

يدلني بإصبعه على المكان الذي سأدخله.

_ هل الوضع مخيف؟

أتمنى من كل قلبي أن يقول لي: لا.

_ مزعج قليلا

تصل ممرضة وتقول لي أنني سأخضع للتصوير مرتين في كل مرة تستغرق الصورة من نصف ساعة إلى أربعين دقيقة حول الصدر في الرقبة والكبد وعشرين دقيقة لمنطقة البطن. أنظر إلى أمي. تبتسم وهي تقول لي أنا هنا عزيزي.

أدخل في وسط الغرفة، شبه سرير ضيق. أحدهم يقول لي اجلس. استلقي

. أنظر إلى الوحش المبروم الذي سيدخلونني إليه ببطء. أصرخ:

_ لن أدخل إلى هذا التابوت

أحدهم يرد علي

_أغمض عينيك. لن ندخلك كثيرا. يجب أن نصور صدرك. يجب أن نعرف وضعك. مضطرين" ثمّ يناولني كبسولتين ويقول لي "ضعهما في أذنيك“ ويخرج.

أتنفس بسرعة.أحاول أن أعد من الواحد إلى المئة، ثمّ المئتين، لم أعد أستطيع تحريك شفتي. أصغي إلى صوت السرير وهو يدخل ببطء تحت الوحش. لا أزال أرى جزءً من السقف. أتحمل. أعاود العد.

يفتح الباب. أسمع صوت أمي. مفزوعة وهي ترى الآلة تبتلعني، لا أعلم في تلك اللحظة لماذا راودتني ذكريات من طفولتي:

***

الطبيب بنبرة هادئة يهمس في أذن الفتى ويمسح على رأسه:

– لا تخف! أنظر للسقف هناك، هل ترى ذلك العصفور؟

– ن.نع.... نعم! "قالها الفتى بنبرة خافتة مع رعشة في صوته".

– جيد، جيد، هكذا. أغمض عينيك الآن، تنفس ببطء وتخيل أنك تركب العصفور وهو يحلق بك إلى أجمل مكان تتمنى الذهاب إليه وقد...

ثم تشك! "ضربة مقص حادة وخاطفة خادعة".

يرى الفتى العصفور يفرد جناحيه وينظر إليه بعينين جاحظتين يتطاير الشرر منهما.

صرخة طويلة، معدن حاد بارد يقطع جلدة من اللحم، الفتى يتخبط مثل مجاهد يعذب على كرسي كهربائي، جسده الهزيل يرتج، يرتعش، عيناه تفيضان مدامعا على شطآن خديه المشمشيتين، يلوي رقبته للوراء، يتخبط مثل قط في بركة ماء. عروق رقبته تنتفخ، تكاد تتقطع، وجهه يحمر وينتفخ مثل حبة طماطم، يتخبط، يتحرحز، يحاول الإفلات من بين ذراعي أبيه وقبضة جده، لكن دون جدوى!

يرى في ما يرى المختون العصفور ينفض ريشه ويتقدم نحوه بخيط أسود طويل يحمله في منقاره.

***

استرجعت ذكريات مؤلمة جدا من طفولتي المجروحة، لم تكن التجربة سهلة أبدا. رفضت أن يدخلوني أكثر في التابوت. صرخت حتّى دخلوا وحاولوا أن يهدئوني. لكنني رفضت. قلت لن أخضع. أريد أن أوقف كل شيء. لن أتابع. لم تقنعني أمي التي دخلت هي أيضا. قلت لها بصوت تعبان متذمر: "لا تحاولي أن تقنعيني فلن أرضخ. أريد العودة إلى البيت". عندها أقنعوني بأن وعدوني بأن أمي ستبقى معي، تمسك يدي، تملس شعر رأسي تهدئني.

أمي وأميمة

من أصدق؟ من هو الأفضل؟ نحمل الملفات ونركض من موعد إلى موعد ومن طبيب متخصص إلى آخر. أميمة ترافقني وتسأل عني وعن كل الأخصائيين المتاحين، تحزن لحزني وتمسكني من يدي عندما تغيب أمي تكون حاضرة لمساندتي بضحكتها، تمسح على شعري كأنها أمي الثانية. أستيقظ في الصباح لأجدها قد نامت على الأريكة قرب سريري وفوقها ملائة خفيفة تدفئها من برد المستشفى، وفي يدها كتاب يتكلم عن مرض السرطان وكيفية التعايش معه، كانت كل ليلة تحكي لي قصة من الكتاب، لأحد المرضى الذين شفوا من السرطان وتسرد لي القصة فرحة ومستبشرة بشفائي، تحاول أن تحييني وتبعث فيَ الأمل، هي تسرد لي القصة وأنا أتأمل تقاسيم وجهها الملائكي، وأغرق داخل عينيها، وأهمل القصة، وحين أرخي جفني وتشعر بأني نمت. تقبلني على جبيني مثل الرضيع الصغير وتذهب لتنام على الأريكة.

كثيرا ما كنت أغمض عيني متظاهرا بالنوم فقط من أجل أن أشعر بدفء شفتيها وهوما يوقعان على جبيني.

تستمع إلى شروح الأطباء أكثر مني. لم نعد نعرف ماذا نفعل؟ الشيء الوحيد الذي يعلق في الذهن هو أن العملية غير واردة لأن الورم يبلغ خمسة سنتمترات يعني أن الحل يتلخص بجلسات راديوتيرابي وشيميوتِرابي. ومن ثمّ يقرر ما إذا كانت العملية ضرورية. أي أن سرطان الرئة من الممكن الشفاء منه نهائيا. أول مرة أسمع كلمة شفاء. لم أهتم كثيرا للشروح الطبية. لكنني تأكدت بأن الشيميوترابي سيتسبب بسقوط شعري. سأخضع للعلاج مهما كان. سأستعيد حقي في الحلم بالغد وبرؤية أميمة.

مذكرات مشعة

أول تجربة

الاثنين 12 تموز

قابلت الطبيب اللوناس. فحصني. قال أن وضعي جيد، وإذا تجاوبت مع العلاج سأشفى. ثمّ قال تحتاج إلى خمسة وعشرين جلسة من الراديوتيرابي. نبدأ الأربعاء بالمروربجلسة "السكانر" وبجلسة "سيمولاسيون" لنأخذ القياسات للمنطقة التي ستخضع للأشعة ثمّ بجلسة تجربة نهائية اسمها MEP.

الجمعة قبل أن يبدأ العلاج الفعلي الإثنين التالي.

لم أعرف ماذا كان ينتظرني.

أول جلسة "راديو تيرابي" كانت تشبه الأفلام الخيالية. شباب باللباس الأبيض يدورون من حولي. أوامر. تمنيات. ترتيبات. وحدة قاتلة على سرير ضيق يعلو ويهبط بحسب الطلب. وأنا وحدي تحت آلة ضخمة تدور حول صدري المشرع على الأشعة. لم أعد أملك حرية التصرف بأنفاسي، يتلمسون صدري. يسمعون أرقاما. مرجعهم هو حبات من الرصاص زرعت عند الحدود التي ستخضع للأشعة. إنها كالوشم في منطقة واسعة من جهة صدري اليسرى من جهة قلبي يحركون أجزاء من صدري. يأمر صوت. لا تتحرك. أنظر وأنا متجمد على ظهري إلى السقف. هناك خطوط أفقية في السقف كالخطوط الحمر التي تزيح الأوراق المهيأة للهدايا. أسمع أنينا من شيء يدور حول صدري. أقرأ بعض الآيات من القرآن. ثمّ أعد وأنا أتنفس بصعوبة من واحد إلى ثلاثمئة ثمّ أتوقف. أنتظر. يدخل أحدهم. يغير أسطوانة.. يخرج. هذا فيلم مستقبلي. سأراه في الحلم أو في الكابوس حتما.

ثم يضاء المكان وأسمع صوتاً يقول:

_على سلامتك يا بطل

يساعدني على الجلوس ثمّ أخرج، جاء دور غيري. هكذا طيلة النهار معي ومع هؤلاء الذين أراهم جالسين في صالة الانتظار. يقول أحدهم إلى الغد. وأدخل المقصورة.

ثم بعد غد والذي بعده...

أخلع البرنس

ألبس ثيابي

أخرج

و تتعاود حلقة المرض الخ..

بعدما جربت علاج الشيميوترابي بدأت الكوارث. منذ الأسبوع الأول أصابني إسهال حاد وحتى اليوم لم يتوقف نهائيا. إسهال مصحوب بأوجاع في المصارين لا تحتمل. لكنني لم أفهم في البداية أنه بسبب "الشيميوتيرابي". كنت أعتقد بأن كل شيء يمر من دون تفاعلات جانبية. كانت" الكريزة" الأولى مساء الجمعة. تحملت الوجع. بكيت تذمرت. أمي تنظر إلي وأنا أتلوى من الوجع. أقول لها: لماذا هذا الوجع؟ لا أعرف إن كنت سأتحمل حتّى نهاية العلاج.

وهي تستمر في تشجيعي قائلة:

– قد انهيت الأسبوع الأول ولم يبق الكثير...

ما تتحمله أمي يوازي ما أتحمله تقريبا. تعاني مثلي أشعر بأنها ستختنق. أصمت، أقول لها سأرسم فأمسك بيدي اليسرى صدري وأرسم باليد اليمنى. أميمة في الكرسي أمامي، في وضعية جلسة فاتنة لإحدى عارضات الأزياء المثيرات تقول:

_ أرسمني هيا

وتلح على أن أرسمها وأنا أعجزعن فعل ذلك، وأكتفي بتأملها وهي أمامي لا أريد أن أضيع تلك اللحظة بالنظرلورقة الرسم، أصورها بعيني ثمّ لا أرسمها لأني أخشى أن لا أتمكن من إخراج جمالها مثلما هي في الحقيقة لا أبدا، لن أستطيع مضاهاة الرب في خلقه.

عجزي عن الحياة يجعلني أشتم الأطباء والعالم كله. أتساءل كيف يتحمل جميع الذين يتبعون هذا العلاج أوجاعهم الرهيبة. وفجأة عرفت لماذا يستلقون على الأسرّة عندما يخضعون لجلسة "الشيميو". خصوصاً هؤلاء الذين يتحملون جلسات عدة في الأسبوع وبنسب أكبربكثير مما يسري في عروقي في الجلسة الأسبوعية الواحدة.

بدأت أحاول التأقلم قررت التحكم بكل شيء رغم الواقع الذي أعيش. ولم أفقد عقلي ولم أستسلم لليأس حيث تصرفت وكأنني في حال منفصلة عن واقعي، لدرجة أني كنت عندما أشاهد أحدهم وأنا أخرج الى العلاج ويسألني بطريقة روتينية:

_كيف حالك؟

أجيبه أنني بخيرفي شكل طبيعي ليس فيه أي خبث.

المشكلة ليست فى الموت ولكنها فى الطريقة التي ستموت بها. أن تتكوم على هذا السريرالناعم وتشعربروحك تتسرب منك، ووفود الناس تروح وتأتي حاملة معها مصمصة الشفاه المعتادة، وكلمة:

_ مسكين.

التي تقفز إلى قلبك مثل السكين، دون أن ترفع سيفك لتقاتل لأن عدوك انتشاره سريع وأنت دفعاتك ضعيفة، والإمدادات الخارجية لا تسمن ولا تغني من جوع لأنهم لم يخترعوا الدواء بعد، فتجد نفسك مضطرا للموت كما لم تكن تحب، وتدرك حقا أن الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراه إلى المرضى.

بدأت بالبحث عن العلاج الكيميائي وعن تأثيره وما يفعله بالجسم. كل ما قرأت لم يكن مثلما كانت تقرأه لي أميمة وتضع له المكياج لتجعله مرضا عاديا مثل الزكام أو الحمى، في الواقع ما قرأته كان مرعباً! شيء ما بداخلي أخبرني أن العلاج الكيميائي سيقتلني. شعرت بأني منتهك أو أنه تم الاعتداء علي بعد كل ما قرأت.

"همّ يضحك وهمّ يبكي"

يستمر محلول الكيماوي بلونه الفاقع في الانسياب داخل أوردتي عبر آلة تعذيب تُسمى "الكانيولا"، ثمّ يستمر لستة ساعات أخرى محلول آخر يسمى "المابثيرا". ماذا تفيد الأسماء؟. محاليل تليق بمريض أورام يريد منها أن تقتل خلاياه. يتقبّل القتل بصدر رحب، مهما تسبب القتل في تساقط شعر، أو ألم بطن، أو شعور بغثيان، أو إحساس بعجز. وأنا أهم بمغادرة الغرفة في حالة إعياء، وزوجة ذاك الرجل الذي هدأت المقصات في بطنه، ترمقني بنظرة التي عرفت أنني مريض أورام، وتنظر لزوجها بصوت خافت لكني أسمع حسيسه:

_ شوف على الأقل احمد ربك الذي عافاك مما ابتلى به جارك.

أشد أنواع الابتلاء في المرض أنّه يسلبك القدرة على ممارسة حياتك. تلك الممارسة الطبيعية التي لا مجهود فيها. أن تمكث في الخارج لساعات عقب المسح الذري، لأن جسدك أصبح مشعًا بما يمنع اختلاطك بالناس، جهاز المسح الذري هو آلة تعذيب نفسي لا تؤلم جسدياً. أكثر مما تستنزفك نفسيا، من ساعات الانتظار السخيفة بين وجوه مرضى سرطان مرتعبين. لا يتحدثون إلا لترديد أحجية من يستعد لطرق عزرائيل على الباب. تحملك الممرضة البائسة وهي تحادثك بطبقة صوت منكسرة محاولة إبداء التعاطف لأنّك

"مسكين مريض بالسرطان"

تجلسك على سرير معدني ضيق، ترى كتل شحم تتناثر على الطرفين لمن هم من محبي الطعام أو المصابين بالسمنة. ستكون سيئ الحظ أكثر من عشق الشاعر محمود درويش، لو خضعت للمسح الذري في الشتاء مثلما ما أقوم به الآن وحسب القصص التي سمعتها تروى بين المرضى.

بعد لحظات تشبك ذراعيك خلف رأسك في وضع تعذيب مثالي، ويخبرك صوت الممرض/ الطبيب عبر ميكروفون مشوّش ألا تتحرّك قيد أنملة.

يسري صقيع في الغرفة ترتجف بفعله رغمًا عنك، يحرّك فنّي الأشعة جسدك جيئة وذهابًا لكي تتمكّن الأشعة من سبر أغوار جسدك، حيث تنير المادة المشعة باللون الأحمر في المنطقة التي تحمل أوراماً سرطانية. يستمر هذا الطقس التعذيبي لنحو أربعين دقيقة. بينما أرتدي ملابسي وأسعل من شدة البرد، ولأن الورم خاصتي جاثم على قصبتي الهوائية، أسأل الممرضة عن إن كان الصقيع مهمًا لمفردات العلاج، فتجيب في سخرية مريرة:

الجهاز غالي وحساس. يعني أن أي حركة ونخسر الملايين من أجل إصلاحه وفي ذلك الوقت يكون قد مات الكثير من المرضى بسبب هزة من ذراعك.

يضيف الطبيب ميت القلب، إنّ كلامها منطقي متبعا:

_الجهاز السلك فيه فقط باهض، لذلك هو غير متوفّر بكل مراكز الأشعة، وهي مجرّد دقائق بالنسبة إليك لكي ترحل. إذن لا تتحرك حتّى لا تقتل غيرك

لماذا نخشى الأمراض الخطيرة؟

ليس إلا لأنّها تزيد من فرص الموت، والموت يسبب الفقد، والفقد يسبب الكآبة، والكآبة تجعلنا نضيق بالحياة ونشك في أسباب وجودنا. لكن الموت لا يحتاج المرض لكي يزور أصحابه، يزورهم في الطرق السريعة، وفي مجال عملهم، وبينما يضحكون ويعبثون. أخبروني أن العلاج النفسي في أهمية العلاج الكيميائي. ربما لأن قدرة المرء على الاحتمال تزداد بشكل طردي مع الحالة النفسية. كان أكثر ما يثير كآبتي هو التعامل بشكل يثير الشفقة معي. النظر إلى أنني فاقد لجزء من أهليتي لمجرد إصابتي بمرض يجفل الناس من ذكر اسمه. في بداية إصابتي أعلمت أصدقائي المقربين فقط. كان من يسألني عن شعري الغائب، وأنا المعتاد بوجوده أجيب: "نيولوك". نظرات التعاطف والكثير من "لا حول ولا قوة إلا الله" و"أعرف ناس كانوا مثلك وشفوا" تزيد

من إحساس بكوني مريضاً، وأنا لا أريد لهذا الإحساس أن يتعاظم.

قتلني انتشار كلمة "مسكين" داخل رأسي، أكثر من ما قتلني انتشار السرطان في جسدي.

في الجحيم تولد الملائكة

الحادية عشر صباحا / سجن النساء / بعد أسبوعين من المحاكمة

– نعيمة الحراشي.

_نعم

_عندك زائر!

استغربت نعيمة وعقدت حاجبيها لأنها منذ أن دخلت السجن لم يزرها أحد.

من وراء الزجاج في غرفة الزيارة يظهر لها فتى وجهه يبدو مألوفا فرحت بالزيارة، إلا أنها أرادت أن تخفي فرحتها مثلما اعتادت طيلة حياتها:

– ماذا أتى بك إلى هنا. هذا ليس مكانا تأتي إليه؟

– بل أنت التي لا تنتمين إلى هذا المكان.

– لا يابني أنا مرتاحة هنا. وهنا سأكمل حياتي.

– لماذا فعلت هذا. لم أفهم مالذي دفعك للقيام بهذا. لقد...

– شوف يا مطلوعة. الأسباب عديدة ومتعددة. لكن ما فعلته هو الصحيح وكان علي أن أفعل هذا. على الأقل لأريح ضميري ولو قليلا.

– وهل تريحين ضميرك بالقتل؟

***

قبل عشرين عاما

مدينة وهران

كان الجوباردا والضباب يغطي تلك الفيلا الإسبانية المزركشة بزخرفات معمارية متقنة الصنع ذات هندسة بهية، تغلف حيطانها الأعشاب الخضراء المتسلقة لنبات اللواي الأخضر، وأمام مدخلها البارز أزهار الأقحوان.

و الياسمين والبنفسج يرسم لوحة تشكيلية لونية خلابة مثبتة بأشجار مقلمة الأعراف والأوراق، واحدة على شكل دلفين والأخرى هناك بشكل رجل يمسك مرشا. وعروس تطلق ثوبها الأبيض. يتعالى خرير صوتها. في المنتصف نافورة تحيط بها سبع من حوريات البحر تقذف الماء من خياشيمها الصغيرة في السماء بدقة وانتظام..

الأمطار تتناطح في سماء ممسوحة النجوم لتسقط برفق على تللك الأرصفة والطرق الإسفلتية، لتلمع هي الأخرى وتنطط قطرات المطر الباردة التي تتهاوى فوقها لتنتهي في الأخير داخل المجاري على حواف الطريق.

بين تلك الظلمة الحالكة والأمطار المتسابقة والضباب الهلامي الأبيض كطيف يحرس مدينة وهران الباهية ليلا، بين مواقف الحافلات.

بالتحديد من جهة سوق الحمري بمكان ليس ببعيد عن محطة القطار في جامعة سينيا، كانت تقبع تلك الفيلا الجميلة.

ليل ممطر صامت، كانت هناك مثل سندريلا عندما انتهت من حفلتها عائدة إلى المنزل من نبيلة إلى خادمة بعجارها الأسود المسدول على وجهها الصغير، وجسمها الهزيل.

***

المتسولة ذات العجار تراقب السيدة المفزوعة، وترتب أوراق الكرتون تحتها، بجنبها قطة سوداء مبتورة الأذن نائمة قرب فتى نحيل يخفي مقصا صغيرا تحت يده ويسند ظهره إلى الجدار ضاما رجليه بيده نحو صدره، أشعث الشعر، يصر شفتيه ونظرات الخوف بادية عليه.

حافي القدمين وفوق جسده الهزيل بعض الأسمال الرمادية البالية والمثقوبة من كل جهة، ساكنا من دون حركة كأنه إعتاد على الجلوس في تلك الوضعية...الدهر حفره والدنيا آلمته كثيرا.

كانت تلك السيدة تبدو غامضة تخفي ملامحها بعجار أسود يمتد حتّى ذقنها، حجابها أسود سميك يغطي جسدها الهزيل، بيمينها القطة والفتى الكئيب، وفي حجرها تحمل رضيعة صغيرة ذات شعر ذهبي تشع جمالا وعلى يسارها صحن فارغ أزرق اللون داخله بعض العملات النقدية الصغيرة، تجمع فيه ما شاء الله أن تجمع من صدقات من بقي في هذه المدينة من المحسنين وذوي القلوب الرحيمة. وعند فراغها من جمع التبرعات داخل الصحن، تفتت بعض الخبز والماء أو بقايا طعام داخل ذلك الصحن لتطعم القطة مبتورة الأذن والفتى الصغير.

تنهض السيدة حاملة بيدها سلتها المنسوجة من الدوم اليابس. تنظر هنا وهناك تلتفت يمينا وشمالا لتقطع الطريق. وتصل إلى سور الحديقة، تدفع الباب بحذر وتقتحم مساحة الفيلا بخطوات القط متختلة على أصابعها، تقف قليلا وتنظر ورائها كأنها تفكر في الرجوع، ثمّ تستمر في مشية اللص إلى أن تصل إلى باب الفيلا. تتفقد سلتها الباهتة المنسوجة للمرة الأخيرة، تصعد السلم المكون من أربعة درجات لتضعها في الأخير عند عتبة الباب وتطرقه طرقا قويا.

كانت رجلها اليمنى على السلم كأنها في وضعية تستعد للهروب بسرعة عند طرقها للباب.

طرقت الباب حوالي خمس طرقات ثمّ انصرفت تاركة السلة ورائها. اختبأت المرأة بين أشجار حديقة البيت وما ظهر منها سوى قدميها شبه الحافيتين، انتظرت

متخفية تحت السور ولم يخرج أحد، فعادت مجددا لتلاحظ هذه المرة وجود جرس عند الباب. اقتربت من الجرس وقرعته وأرخت أذنها لتسمع وقع أقدام قادمة بتراخي متجهة لتفتح الباب.

التفت المرأة وهربت مسرعة تسحب حجابها الذي يعرقل جريها، تركض قليلا ثمّ تتعرقل وتتهاوى ملقاة على الأرض ثمّ تنهض متلقفة أنفاسها المتقطعة وتعود مجددا للركض، كانت الأمطار تسقط عنها خمارها وتتبعثر على جبهتها الناصعة، لتقع في الأخير على حجابها المبلل المتشبع بالماء الذي يلتصق بها ليظهر جسدا نحيفا وهزيلا.

تبتعد المرأة لتختفي وتتبخر في ظلام الشارع، في الأخير بعدما تأكدت من إتمامها لمهمتها وانتظارها خارج سور الحديقة.

بعينين باكيتين ويدين مرتعشتين تراقب بمكان غير بعيد.

خرجت سيدة طويلة القامة بشعرها الأصفر تلبس بجامة النوم. حملت السلة، نظرت هنا وهناك ولم تشاهد أحدا سوى الصمت، نادت رجلا أسمرا عريض الكتفين خرج حافي القدمين وأمسك بالسلة. فتحها... كانت المفاجئة تظهر في عيني السيد والسيدة...أخرج من السلة لحافة بيضاء ولحافة صفراء تلفان داخلهما جسد فتاة صغيرة، مكورة اليدين ذات أصابع صغيرة وضحكة ملائكية. لون عينيها أزرق بلون الزمرد البارد. وشعر حريري أصفر خفيف ساقط على جبهتها الملساء البراقة. عند عتبة البيت ومصباح ينير المدخل يعكس ضوئه على مشهد امرأة ورجل يحمل ملاكا صغيرا بين يديه حمل الرجل الرضيعة بين يديه عانقته السيدة والتصقت به، عيناها تلمعان خوفا وحبا تناولتها السيدة وحملتها بين ذراعيها.

فجأة لاحظ الرجل وجود ورقة مخبأة داخل السلة، فتحتها وبدا بالقراءة

بنبرة خشنة وبطيئة:

إلى السيد جمال

ها أنا وكلي يتقطع حزنا وأسفا وكأني أذبح من الشريان إلى الشريان. أرسل لكم هذه الرسالة ويكتبها بدلا عني شيخ طيب وجدته في الشارع. لأني لا أجيد الكتابة والقراءة.

أنا امرأة أمية ومعدمة، أقص جزءً من كبدي وأتخلى عن أنفاس عميقة من روحي، وأحشرها داخل هذه السلة وأناشدكم هذه الصبية وتربيتها وعسى الله أن تجد بين أحضانكم الملاذ والدفء الذي لم تجده في حضني والذي لن تجده في الشارع. الله وحده يدري كم أحبها وكم قاسيت من أجلها وحملتها تسعة أشهر في بطني وحملت معها الجوع والمرض.

و صبرت على البرد ونظرات الناس وكلمات الشفقة التي يرمونها في وجهي ولا أحد وقف بجنبي مثلما فعلت أنت يا سيدي جمال، كنت القابلة والمستشفى والعائلة التي لم أجدها برفقتي يوم جاءني المخاض، لم أجد أحدا سواك يا سيدي "الشحاذ عازف المزمار" وكم أنت طيب وشجاع لن أنسى تلك الليلة التي وجدتني ساقطة تحت حاوية القمامة في ذلك الزقاق المظلم، أعاني المخاض ولم أكن أقوى حتّى على الصراخ كجثة بدون روح أنتظر ملاك الموت ليخطف روحي، بجنبي "مبارك" ولدي الرضيع الآخر، أرخيت جسدي وأنا أعتصر ألما أنتظر ملاك الموت وأدعوه أن يأتي مسرعا ليريحني من الألم الرهيب الذي يقطع أحشائي، حتّى ظهرت أنت وقد حسبتك هو. حتّى أعرف بعدها أن ملاك الحياة، أتذكر كيف هرعت مسرعا نحوي ودون أن تنتظر مزقت قميصك وأفرشته تحت ظهري ولم تجد شيئا آخر تضعه داخل فمي سوى مزمارك أعض عليه لأتحمل ألم الولادة، ولن أنسى كيف أمسكت يدي وضغطت على كفي وهمست في أذني وتللك الكلمات لاتزال تترقرق في أذني كأنها البارحة "أغمضي عينيك وتخيلي أنك في الجنة، وبعد لحظات ستقابلين الملائكة "

كلماتك تلك بعثت في جسدي قوة رهيبة ساعدتني لأخرجها من بين أحشائي، ولن أنسى كيف كسرت زجاجة الكحول المرمية بجوارنا وقطعت بها حبل السرة، سامحني سيدي لأني كسرت مزمارك من شدة الألم وها أنا سيدي أكتب لك ولم أستطع أن أقابلك بعدها خجلا من فضلك علي وأقول لك: أغمضت عيني كما قلت لي

وجلبت الملائكة من الجنة، لكن يا سيدي الملائكة لا تعيش في الشارع. ولا أحد أطمئن لحال فلذة كبدي عنده مثلك أنت لأنك رجل بحق. إني وضعتها بين يديك أنثى

وسميتها أميمة وأتركها أمانة بين يديك إلى يوم الدين، ربما مثل ابنتك واستمر في العزف لها مثلما كنت تعزف أمام الحانة تلك الليلة وجاءك ذاك الرجل الغريب وفتح عليك أبواب الخيرومن يومها رحلت عنا واشتقتنا لعزفك وألحانك التي كنت تواسينا بها في ليلنا الطويل البائس.

سأدعو لها الرب بأن يحميها ويرزقها العيش الطيب ويبعد عنها كل المصائب، وسأدعو لكم معها على أمل أن نلتقي في الجنة.

السيدة نعيمة.

***

– وهل تريحين ضميرك بالقتل؟

– لا. لن تفهمني. لكن مكاني هنا. حقا. لأني لا أستحق الحرية

– ماذا تقصدين.

_لقد فعلت ذلك من أجل أن أحافظ على حياة ابنتي.

ثم تنهدت وبعمق راحت تستطرد في كلامها ومطلوعة يحاول. أن يجمع ما بين السطور:

– أذكر يوما أني كنت أتقطع من الجوع عندما رمى بي إسحاق في الشارع. ذلك الفتى الضال. المتعجرف. فقط لأني غسلت سرواله وقد نسي داخله سيجارة حشيش. بدأ بمعاملتي مثل الحيوان. أمام صمت أبيه. الذي لا يرد له طلبا.

***

السيدة نعيمة تتذكر عندما كانت عاملة نظافة وإسحاق يرمي لها ملابسه الداخلية على وجهها. ولما أخبرت أب إسحاق بأمر السيجارة التي وجدتها في جيبه. ضربني إسحاق ورماني في الشارع بعدما صبرت أشهر على الذل والمهان من قبله.

وفي إحدى المرات وأنا على شفير الموت من الجوع. دخلت حانوتا في السوق ولما رأيتني. أذكر أنك كنت تملك خبزة من المطلوعة. اقتسمتها معي. وأعطيتني خمسين دينارا وابتسمت في وجهي ومضيت. عرفت أنك كنت بأمس الحاجة لتلك الخبزة. وأن حالك ليست بعيدة عن حالي. وقد تذكرت فعلك ذاك ولم أنسه ما حييت لذلك قررت أن أنفذ بدلا منك الخطة.

– الخطة!

– نعم. كنت هناك في ذلك المساء. أقوم بتنظيف الأقسام. عندما سمعتك ورفاقك الأربعة داخل القسم. تهامسون وتبدو على ملامحكم الجدية.

فرحت استرق السمع من الباب. وعرفت كل خطتكم وكيف ستنفذونها.

***

مطلوعة يتذكر أنه سمع صوت ضجيج قادم من عند الباب. كأن أحدهم أوقع شيئا وعندما فتح الباب ليتفقد الرواق بين الأقسام لم يجد أحدا.

و بذلك قررت أن أكون مكانك. ودرست الخطة جيدا حتّى لا يكون مشكوكا في أمري.

– لكن هل كل هذا من أجل الإنتقام؟

– من أجل أشياء كثيرة. تضحية وتكفير عن ذنب قديم.

– ماذا تقصدين بذنب قديم؟

– هناك بعض الأخطاء. عندما تقع لا نستطيع أن نصلحها لكن نستطيع أن نخطأ من أجلها حتّى لا نزيدها سوءا.

– أخطاء من أي نوع!

– عندما كنت شابة أخطأت مع أحدهم وأنجبت منه توأمين. البنت لم أرد لها أن تعيش حياة الفقر التي عشتها أنا. لذلك تركتها أمام بيت عائلة ثرية بعدما تركت لهم رسالة ليربياها ويجعلاها ابنة لهما. تركتها أمام منزل ذلك الرجل الذي فتح الله عليه بيبان الخير بعدما كان أشد فقرا وحاجة مني. وقد كان هو الذي ساعدني في ولادة أميمة.

_أميمة!

_نعم أميمة بنتي.

صمت مطلوعة وبلع لسانه واستمر في الانصات لكلام نعيمة وهي تسرد قصتها بكل ألم.

_ثم بعدها هجرت مدينة وهران لأسكن هنا.

_لقد قلت أنك أنجبت توئما! إذن أين...!

_نعم حين دخلت إلى مدينة عين الدفلى وجدت إحدى العرافات التي تملك بيتا تضم فيه المهمشين والطلابات والمومسات ومن لا مأوى لهم. آوتني" خيرة الكحلة "ولما رأت الولد وقد كان في أشهره الأولى. ولد بحلمتين زائدتين وقدم أطول من قدم. أخبرتني أن ابني هو "وريث الشيطان "وأن علي التخلص منه لأنه ابن زنى بعدما جاءتها رؤيا في الحلم بأنه سيتسبب في موتي، فتركته في سلة أمام "مسجد الخضراء "وسط مدينة عين الدفلى. عملت كخادمة في البيوت لأعوام. ثم وجدت أخيرا عملا في مدرستكم. وطويت صفحة كبيرة من حياتي. ومع بداية هذا تفاجأت بفتاة جديدة حسناء. كانت لطيفة معي بشكل كبير، ذات يوم ساعدتني في غسل الأرضية، لما كانت تنحني لاحظت وشمة على رقبتها مثل الوشمة التي في رقبتي أنظر"وأرت مطلوعة جزءا من رقبتها كانت نفس الوشمة المميزة على شكل نصف قلب".

قفز قلبي من مكانه لأرى ابنتي بعد أعوام بعدما قد هجرتها وتركتها بين أيادي السي جمال والرب.

– وهل أخبرتها أنك...!

– لا

ثم صمتت قليلا وتابعت كلامها وقد تغيرت نبرة صوتها لتميل إلى الحزن أكثر.

– كنت عدة مرات أريد أن أصارحها. وأعانقها وأطلب منها المغفرة عن ما فعلته بها وعن طعم الأمومة الذي حرمته منها. لكن لم أقدروعندما رأيت ما هي فيه من رغد العيش في رعاية السي جمال لم أرد أن أفتح لها جرحا لم تعتقد بوجوده.

– وهل هي تعرف الحقيقة. بأن والديها ليسا حقيقين!

– لا أعرف. لكني أظنها تجهل الأمر. لأني في رسالتي كتبت لهما بأن تربياها مثل ابنتكما ولا تخبراها بالأمر حتّى لا تجعلاها تحس أنها ناقصة دوما. كنت كل يوم عندما أراها أتآكل ببطء أريد أن أرمي دلو المنظفات من يدي وأجري لأعانقها وسط الساحة، وكنت أحزن أكثرلما أراها رفقة إسحاق. ثمّ ابتسمت ابتسامة باردة وثقيلة.

– "كيف للشوك أن يكون مع "حب الملوك "

لذك يا مطلوعة ولدي. عندما وقعت الجريمة لم أردها أن تدخل السجن بتهمة لم ترتكبها ولن يرتكبها غيري أنا. لم أرد أن أخطأ أكثروحان الأوان لأحاسب على ما فعلته. لذلك قلت لك أن مكاني المناسب هو هنا.

_لكن ماذا تقصدين بأنك فعلت هذا من أجل أن تحافظي على حياة ابنتك.

_بعدما سمعت خطتكم المدرسة بيوم وصلتني رسالة من دون مرسل. عندما تقرأ الرسالة ستفهم.

قبل أن تكمل كلامها سمعت حارس السجن ينادي بأن وقت الزيارة قد انتهى وضعت الرسالة بين يدي مطلوعة وانصرفت.

ثم عند باب السجن قابل مطلوعة الماحي.

قال مطلوعة:

– هل هي حقا من فعلت ذلك؟

– تقبل الأمركان صعبا بالنسبة لي. وتفاجأت لما قاطعت المحاكمة في آخر لحظة واعترفت بأنها القاتلة. شككت في الأمر. لكن هل تعرف الشيء الذي كان سببا في إنقاذك من أن تكون خلف القضبان الآن. أنت وجماعتك. هو الحظ فقط.

– الحظ!

– نعم لأن السيدة نعيمة غير متعلمة. يعني أنها لا تجيد الكتابة والقراءة.

– وما دخل هذا في أن تتأكد بأنها الفاعلة!

– أثناء التحقيق كنت أستعمل بعض الطرق التي لا تبدو لكم لأعرف فقط من هو الشخص الأعسر بينكم لأن الضربة القاتلة التي تلقاها الضحية كانت في الجهة اليسرى من رأسه ويستحيل على شخص أيمن اليد فعل ذلك. وفي المحكمة قبل أن تخرج السيدة نعيمة أعطيتها قلما لتمسكه فلاحظت أنها تمسكه بيسارها وكي أتأكد أكثر أمرتها بأن تكتب اسمها فأخبرتني أنها غير متعلمة. فقلت لها أن توقع فقط فاستعملت يدها اليسرى في التوقيع. حين ذلك أكدت لي حقا أنها هي الفاعلة رغم أني ما زلت أشك أنها تلقت رشوة أو تهديدا ما حتّى تقدم على فعلتها.

_تهديد!

_نعم.

_ماذا تقصد. مثل ماذا؟

_هذا ما أبحث عنه. وبعد ما تعمقت في التحقيق أكثر وجدت أن السيدة نعيمة كانت تعمل خادمة في بيت اسحاق وكان يعاملها بطريقة سيئة. ربما دافع الانتقام هو الذي دفعها لقتله. لكن لماذا تقتله في المدرسة! هذا السؤال الذي دفعني لأن أفكر بأن لها علاقة بأحد المتهمين في التحقيق الذي أعلمها بوقت وقوع الجريمة لتجهز عليه. لأن السيدة نعيمة هي التي وجهت الضربة القاتلة فقط. وقبلها قد وجهت أربع

ضربات للضحية قوية لكنها غير قاتلة والضربة القاتلة هي ضربة المدور في الجهة اليمنى الأمامية فوق عظمة الرقبة مباشرة، وهي ضربة نعيمة حتما.

لكن من أعلمها بالوقت الذي ستتم فيه الجريمة. لأن احتمال كبير يرجح أن ضربة نعيمة كانت هي الأخيرة. حيث لما وصلت وجدت اسحاق ساقطا على الأرض مغشيا عليه وبتلك الوضعية سهل عليها توجيه الضربة القاتلة. لأن السيناريو الذي شكلته في رأسي وهو الأقرب للمنطق. أن الضربة الأولى أوقعته أرضا وأرجح بأنها كانت ضربة طارق لأنه أقواكم. وبعدما سقط اسحاق على الأرض لم يكن قد فقد وعيه بعد. دخل مروان ووجه له ضربة على رأسه بشيء ثقيل أفقده وعيه وأسال الدماء من رأسه. وتبعه مباشرة سمير الذي على الأرجح وجد اسحاق يسبح بين دمائه قام بالتأكد من نبضه فوجد أنه لا يزال حيا فأخرج آداة حادة من جيبه وطعنه تلك الطعنة التي لاحظنا وجودها بجانب صدره. ورغم ذلك لا أظن أن تلك الضربة قد كانت كافية لقتله. لكن الضربة الرابعة كانت هي الضربة القاتلة بالمدور. والمتسبب بها هنا شخص كان تحت ثورة من العواطف حتما لأن الضربة قد وجهت للرقبة مباشرة وهذا الشخص حسب نفسية المشتبه بهم. أرجح بأنه إمّا أميمة أو أنت يا مطلوعة. ولم أكن أتوقع أبدا أن تكون السيدة نعيمة هي الطرف الثالث في القضية. وهي القاتلة. لذلك أنا أرجح بأنك أنت من قمت بتهديدها وإجبارها على القيام بجريمة القتل. لأنك تخاف الدم منذ حادثة أبيك وقد أصبحت عقدة بالنسبة لك وغيره الكثير من نفسيتك التي ترجح غيرك بأن يستعين بشخص آخر. شخص يكون بعيدا عن كل الشكوك. حتّى تبقى جريمة القتل غامضة. وهذا هو رأيي. ورغم هذا أظنه لا يهم فقد مسح سلاح الجريمة كله في نعيمة.

ثم صمت المحقق قليلا أخرج من جيبه علبة تبغ وضع دكة شمة تحت شاربه من دون ماصة. نفض يديه وتابع كلامه:

_لكن هناك قطعة ناقصة في القضية.. وحتما سأكتشفها عاجلا أم آجلا. وأنت يا مطلوعة ستقع بين يدي يوما وتخلصها غالية غالية... والأيام بيننا.

ثم أخرج مطلوعة الرسالة التي من جيبه وأعطاها للمحقق:

_أعطتني اياها السيدة نعيمة. ربما قد تساعدك في أن تجد هذه القطعة الناقصة التي تتحدث عنها. وتعرف أني لم أقتل اسحاق. وأن السيناريو الذي في رأسك ليس حقيقيا.

أمسك المحقق الرسالة وقرأ على ظهرها بالخط العريض.

هذه الرسالة خاصة ويقرأها لها يحي الصابري

هذا عنوانه: حي البلبال أمام البيت بجنب الخروبة الكبيرة

سئل المحقق مطلوعة:

_هل فتحتها من قبل؟

فتح المحقق الرسالة وبدأ قراءتها بصوت مسموع.

السيدة نعيمة الحراشي أنا أعرف أن أميمة ابنتك وأعرف كيف كانت معاملة اسحاق لك عندما كنت خادمة في بيتهم، إن أردت أن تحافظي على حياة ابنتك فعليك بأن تقتلي اسحاق مرصلي وذلك على الساعة الثالثة والنصف بمكتبة المدرسة التي تعملين بها حيث ستكون المهمة مجهزة لك. وإلا ستموت ابنتك.

أغلق المحقق الرسالة ونظر إلى مطلوعة:

_هل أخبرتك من أرسلها لها؟

_لا

_يحي الصابري

_له نفس لقبك!

_هو جدي.

_نعم قد تذكرته.

_نحن الآن أمام احتمالين إمّا أن تكون السيدة نعيمة تجيد الكتابة والقراءة وقد كتبت هذه الرسالة في السجن لنفسها. حتّى تخفف الحكم عليها أمام القانون بعدما ندمت على فعلتها وأرادت أن تخلق لنفسها قصة القتل تحت الإكراه والتهديد. وهذا مرجح بأن من أرغمها سيفكر بما أفكر بأني سأفكر بهذا ويجعلني أعتقد هذا الاحتمال وأورط السيدة نعيمة أكثر.

ثم وضع الماحي يده على قفاه وحك خلف رقبته ليفكر..

سأله مطلوعة:

_والاحتمال الثاني.

_الاحتمال الثاني هو أن أحدكم كتب هذه الرسالة لها حقا وأرادك أن لا تقتل اسحاق وأن تقوم نعيمة هذا بدلا منك. إمّا أن تكون أميمة بسبب حبها لك وبسبب أنها تعرف أن نعيمة أمها بطريقة ما، لذلك أرادت الانتقام منها لأنها تخلت عنها. وإما أن يكون أحد أصدقائك بسبب الصداقة. وإما أنت.

_كيف تشك بي وأنا أعطيتك الرسالة دون أفتحها وأقرأ ما فيها.

_نعم يبقى احتمالا واردا أن تكون أنت الذي كتبتها حتّى تصنع لي قصة أخرى في التحقيق وتبعدني عن القصة الرئيسية. وهذه الرسالة بطريقة أو بأخرى هي رسالة تحدي لي، كأن الرأس المخطط للجريمة كان يعلم بأن هذه الرسالة ستقع بين يدي عاجلا أم آجلا وأني سأذهب لأزور جدك وأحقق معه وربما أيضا أجد أنه لقنه الكلام الذي سيقوله أثناء تحقيقي معه ويرميني إلى قصة أخرى أبعد من هذه القصة. لكن تذكر أن حبل الكذب قصير.

ثم أخرج المحقق حبة تفاح من جيب معطفه. قضم منها. وقسم منها جزءً أعطاه لمطلوعة...فقضم مطلوعة قضمة من التفاحة:

_ألم تخبرني أنك لا تحب التفاح؟

***

انطلق الماحي متجها للتحقيق مع السيد يحي الصابري.

غدروه!

وأنا عائد من سجن النساء وبي دهشة من الحقائق التي أخبرتني بها السيدة نعيمة. لأفاجئ بمجموعة من الأشخاص عند باب الدار. اقتربت لأجد جدي ساقطا على الأرض في حجر أمي والدماء تسيل من رأسه. أحدهم يصرخ من بعيد أن الإسعاف قادم.

أمي تبكي وتصرخ وعباءة جدي ملطخة بالدماء. جثوت على ركبتي وأمسكت رأسه ولحيته متشبعة بالدماء التي تسيل من رأسه. لاحظت وجود مسدس صغير بين أصابعه. نزعته من يده وخبأته في جيبي حتّى لا يراه أحد. بسرعة وقبل أن تصل سيارة الإسعاف كان الماحي في المكان رفقة مساعدين من الشرطة، نباح الكلب غير طبيعي، أمي تبكي وتصرخ ملئ حنجرتها.

_ غدروه... غدروه.. الخونة... قتلوووووه يا ناس من أجل بقرة... قتلوووه.

فهمت من بكاء أمي أن أتباع النذل جمال هم من فعلوا هذا وعندما تصدى لهم جدي أردوه قتيلا وأخذوا البقرة. ونهروا الكلب.

نهضت وعيناي تفيضان بالحقد والشر على من قتل جدي وقابلت الماحي مباشرة فوق رأسي:

_مات ومات معه سر القاتل

_هل هذا ما يهمك. هل أنت بشري! هل أنت تحس؟

_إن هذا القاتل قد...

قاطع مطلوعة الماحي وأمسكه من كتفه:

_جمال حراج من قتله. هيا اسرع لنقبض عليه. هيا.

مطلوعة يجر في الماحي من كتفه. لكن الماحي لا يتحرك ويستمر بجمع الأدلة والبحث في جيوب الضحية:

_ أنتم كلاب الدولة تسكتون على الحق.. تطبقون القانون على الفقراء فقط.

ثمّ دفعت الماحي وانطلقت لأبحث عن الوغد جمال. وضعت في جيبي المسدس الصغير لجدي. وكان يحمل داخله رصاصة واحدة. قعدت فوق صخرة الغولة وبدأت أتفتت من الحزن والألم على فراق جدي. انفجرت باكيا وصرخت بقوة وسط النهر.

بقيت أتأمل أحداث حياتي التي تجري بسرعة جريان مياه النهر. لا أعرف لماذا التاريخ يكرر نفسه. نفس الحادثة التي حدثت معي قبل أعوام ها هي تعاود نفسها.

***

الفتى الصغير أمام النهر. يحمل في يده مقصا تقطر الدماء منه.

الفتى كبروها هو أمام النهر في نفس المكان يحمل في يده مسدسا.

***

مسحت دموعي وتأملت النهر وأحزاني تسيل أمامي. أتنفس بصعوبة جسدي يختنق وروحي تختنق.. أنا أغرق في البروكل الغابة تذبل أمامي وزرقة الماء تحول لحمرة داخل ذاكرتي وفي عيني.

فتحت المسدس فوجدت رصاصة واحدة كأنها إشارة واضحة من القدر أن على أحدهم أن يموت الآن. وقفت فوق صخرة الغولة. وضعت الرصاصة داخل ماسورة المسدس التي تحمل ستة ثقوب. وتذكرت لعبة الروليت التي حكى لي جدي عنها ذات مرة هنا. وأراني كيف ألعبها.

وضعت الرصاصة داخل ماسورة المسدس. نسبة موتي هي واحد من ستة أي 1/6 يعني 16% احتمال موتي. في الحقيقة والفكرة العامة هي نسبة جيدة أفضل من

التي أخبرني بها الطبيب حتّى لا أموت بالسرطان. أنا ميت على قيد الحياة على كل حال، لم يتبق لي سوى أمي. التي سأريحها مني وأريح نفسي مني من أجلها ومن أجلي.

ثم أغمضت عيني، وضعت المسدس مباشرة في رأسي ثم...

إنسان مضغوط

" ياربي حررني مني"

أنا مكتظ بالفراغ ومختنق بالعبث إلى حد الألم. لم أستطع أن أكون ما أريد، ولم أعرف حتّى إن أصبحت ما لا أريد. أنا مجرد شخص معتوه وبليد إلى منهى السخط على هذه الحياة. حياتي التي تطحنني ثمّ تعجنني مثل خبزة مخمرة بالأمل. أريد أن أقدم استقالتي من هذه الحياة العبثية المغرية.

أنا أشعر بروحي متورمة داخل جسدي على وشك التقيح. ومشاعري أصبحت صدئة من مطر الحب، وحيد أنا مثل صرصور ليل مبتور الأقدام يعبر الطريق إلى اللامكان. لم ترحمني الحياة بنت الكلب ولم يرحمني أي من بنيها. أشعر بالظلم والحقد على نفسي في كل لحظة، فهل أضحك على نفسي حتّى الجنون أم أرثوني شأو الشهقة؟ وهل أنتحر أم أستمر في محاولة الحب؟

الألم لسعة الحياة وثقب الإدراك والوعي الوجودي، ذلك الوعي السمي المفرط، يهلكني، يمرضني، ويضغط المشاعر داخل روحي المجوفة. وكم تخنقني معرفة أني سأقتل هذا المخلوق المضغوط، على كل حال هذا لا يهم، لأنهم سيبكون على عدم وجودي أياما أو أشهرا، ثم يواصلون تواجدهم الممل. وإنما الحياة تيار مستمر من الألم. والموت قاطعة تيار عادية، أمّا الإنتحار فمقص من حديد يقص الخيط. كل الوجود ينهار أمامي والمسدس بارد في يدي مثل قطعة ثلج. ميت أنا على قيد الحياة، وحياتي قيد الإصرار والتحدي الوهمي العسير على حالتي الصحية والنفسية. أنا مضغوط بالألم والمرض والحب والكره والانتقام والملل والأمل والفراغ.

فهل لحياتي هذه معنى! أم أنا مجرد ذرة في فراغ متكاسل غير آبه حتّى بوجوديتي الموحشة؟

أشعر أني في مقلب سخيف من مقالب الكاميرا الخفية وسيخرج لي أحدهم عندما أضع المسدس في رأسي ويكشف المقلب. أو أنني ضحية لتجربة علمية، تجربة ضغط الألم النفسي داخل الجسد وهناك من يراقبني ويدرس انفعالاتي وتجاوبي مع الألم ويحقنني بجرعة أكبر. حتما هذه ليست حياتي. لا أذكر أني فرحت يوما واحدا فرحة كاملة. لا شيء سوى جرعات الألم المتزايدة. وفي بعض الأحيان الطويلة، أشعر أني شخصية في رواية سوداوية لكاتب مريض يريد أن ينتقم من حياته المملة فخلقني من أجل أن أمثل الألم على طول الصفحات. كاتب شرير لا يستطيع عيش حياته يريد أن يشفي غليله ويتلذذ بتعذيبي وتمزيقي ليشعر برضى نفسي وراحة داخلية من نوع خاص. لو كنت أمسك ذاك القلم لصنعت لنفسي رئة جديدة وحياة سعيدة وامرأة تحبني.

سيدي الراوي أكتب في آخر الرواية أن هذه الشخصية هربت وقفزت من الورقة أو أنها انتحرت. صدقني يا سيدي إني ما عدت أبالي ولا أهتم بتلك الشخوص التي صنعتها في حياتي ولا بتلك العلاقات والروابط التي شكلتها لي. أعلم أنها وهمية ومطلية بالخيال. أعلم أنني غير موجود سوى لإرضاء شهوتك المرضية السادية في التلذذ بألم الآخرين، أنت حقير وأعرف أنك جعلتني أتحدث فقط من أجل أن تبث في شخصيتي بعدا حيا آخر، لكنك كاتب فاشل لأنك لست أدرى بنفسي مني ولن تمنعني من وضع هذا المسدس في رأسي، بكل بساطة لأني أدرك أن حياتي وهمية وعبثية إلى حد مفضوح، وأنت ما يدريك ربما تكون شخصية كاتب في رواية كاتب آخر من عالم مختلف. هل تظن أنك تسيرني بمحض إرادتك وتمنعني من أكون مخيرا؟ هل أنت ربي أم أنا أهذي أم أنت أنا وأنت موجود فقط في خيالي؟ ربما أنت غير موجود وأنا صنعتك الآن وخلقتك وجعلتك تراني. أو ربما أنا وأنت لسنا سوى شخوص من عالمين متوازيين نتشارك في خيط خيال وألم. هيا لا داعي لكل هذا ولننتحر فقط، أموت الآن وأنهي الرواية فليس من الإنسانية أنك تعذبني أكثر. هل تدرك معنى أن تعيش بحطام ذاكرة أسود أن تتخيل أبوك يسقط أمامك بطعنة مقص من يدك كل يوم. أن تعيش فقيرا معدوما. وأن تصاب بمرض قاتل وأنت تموت داخل موتك الحي ببطء، لو أنهيت حياتي في الأول أحسن، لكنك رجل مريض وبغيض تصنع مني فتى في

قرية من غباروفقر، وتسلط علي شتى أنواع العذاب ثمّ تجعلني أصاب بمرض لا صلة لي به، حبكة سخيفة من كاتب سخيف يعتمد على صدفة القدروعبيثته من أجل بناء سرد روائي قوي، ثمّ من وحشيتك أن تجرب إدخال الحب في حياتي، وتزرعه داخل قلبي. أنت لست ربا ولن تجاريه في خلقه. تفووووه عليك إن كنت تعتبرنفسك إنسانا، فقط تعذبني من أجل أن تسلي قراءك في بضع صفحات وأنت غيرمدرك أنها حياتي التي تكتبها وأنا أحس هنا وأشعر. أنا من دم ولحم وروح، أنا موجود وأفكروأعي وكم هذا مؤلم؟

هل تسمعني هناك هاي... هلا توقفت لحظة أرجوك، توقف بالله عليك وبحق ما تؤمن به. أقتلني أو اجعلني حجرا لا يحن لشيء أو اصنع مني صرصورا طائشا يدهسني بطل الرواية تحت رجله دون أن يحس. ردني إلى قطرة مطرتنتحرفي عاشر صفحة، أوذرة من هواء تؤثث مشهدا جانبيا في رواية منسية، أوحولني إلى شعاع شمس أوجزءً من الفراغ فراغ البداية في أول السطرمثلا، شيء جميل أعدك أني لن أتحرك ولن أشتكي ولن أهرب وسأبقى فارغا للفراغ فقط.

أقتلني أرجوك فما عدت أحتمل أن أخسر أحبائي أكثر. ما عدت أقوى على المتابعة في روايتك هذه. لقد حملتني ما لا أستطيع. صدقني دعني أرمي نفسي في النهر وستكون نهاية عبثية لم يجرؤ كاتب قبلك على التفكيربها. أودعني أضع المسدس داخل رأسي وأنتحروتكون نهايتك تراجيدية بذلك تغدوشكسبيرزمانك، وأعدك أني سأقوم بالانتحاربمشهد يقطع الأنفاس ولا يمحى من ذاكرة من يقرأ روايتك. ما رأيك في هذا هل نجرب؟

على كل حال هل تعلم ماهي أمنيتي قبل أن تنهي شخصيتي؟

أمنيتي هي أن تجعلني أحس بذلك الإحساس الذي تحسه وأنت تتلذذ بألم غيرك عندما تنهي شخوصهم وتضع حدا لحياتهم لسبب يخدم متن السرد وحقن التشويق. لكن من العبثية أنك قتلت جدي لا أعلم هل تريد أن تصبح ربا أم تريد أن تزيد التشويق في متن الحكاية أم عبثا فقط.

لا أرى أي سبب يخدم الحبكة أو شخصية طيبة مثل شخصية جدي تستحق الموت؟ هل حياتك غير عادلة مثل حياتي؟

دعني أخبرك وأكن صريحا معك من الآن وصاعدا أني سأتمرد على ما تكتب. وسأحاول إنهاء شخصيتي مع كل حدث. لأني أعلم أني مخير ولست مسيرا فتبا لك من إنسان مريض.

سأموت في النهاية وهذا ما كتبه في مخطوط الرواية.

هل تعلم فنيا لا فائدة لك مني الآن بعدما فضحت نهايتي للقراء. لست شخصية مشوقة الآن. هل رأيت أنا أتمرد على عقيدة صمت الشخوص وتطبيقها للمخطوط والمكتوب. أنا أعرف مكتوبي لكنك لا تعرف مكتوبك. عجل في مماتي الآن وأنت تستطيع إكمال الرواية من دوني عندك الكثير من الشخوص الغامضة والمشوقة غيري. فدعني أموت وشأني.

الطلقة الأولى

فتحت المسدس فوجدت رصاصة واحدة كأنها إشارة واضحة من القدر أحدهم يجب أن يموت. وقفت فوق صخرة الغولة. وضعت الرصاصة داخل ماسورة المسدس التي تحمل ستة ثقوب. وتذكّرت لعبة الروليت التي حكى لي جدي عنها ذات مرة هنا. وأراني كيف ألعبها.

وضعت الرصاصة داخل ماسورة المسدس ذات الستة طلقات على وجه الموت. نسبة موتي هي واحد من ستة أي 1/6 يعني 16% احتمال موتي. في الحقيقة والفكرة العامة هي نسبة جيدة أفضل من التي أخبرني بها الطبيب حتّى لا أموت بالسرطان. أنا ميت على قيد الحياة على كل حال، لم يتبق لي سوى أمي. التي سأريحها مني وأريح نفسي مني لها ومني.

أغمضت عيني، وضعت المسدس مباشرة في رأسي ثم...

شعرت أن مثانتي ممتلئة. نزلت تحت الصخرة لأتبول في النهر. فمن غير اللائق أن أموت وأنا غير مرتاح.

وحين كنت أتبول تذكرت الروليت التي حكى لي جدي عنها وكيف لعبنها بمسدس فارغ ذات مرة هنا. أتممت بولتي وصعدت فوق الصخرة. نزعت حذائي "صابر" فمن غير اللائق له أن ينتهي الأمر به في رجلي منتحر جبان مثلي.

أغمضت عيني تنفست بعمق وقلبي يخفق بشدة وخنقة شديدة على صدري كأن أحدهم يضع "كوشة "فوق صدري قبل أن أضغط الزناد.

تذكرت الشهادتين. ثمّ تذكرت أن المنتحر مصيره النار فنسفت هذه الفكرة لأن حالها مثل أن تشرب ماء زمزم في زجاجة ويسكي وتقول بسم الله قبل أن تسكرها. عصرت عيني لأتلقى الرصاصة داخل جمجمتي...

_تك...

قبل أن تدور ماسورة المسدس في ثلاثة أجزاء من الثانية على وجه الدقة الانتحارية.

رأيت شريط حياتي يمر أمامي بالعرض البطيء.

الفتى الصغير بطربوشه الأحمريجري بين المروج الخضراء، يرعى الغنم ويتمرغ في الحشيش. يلعب فوق دراجته ويفتح ذراعيه للهواء وللحياة كأنه يعانق الكون، يحمله أبوه فوق ظهره ويمر به وسط القرية، يعلمه جده كيف يصطاد في النهر. كيف يصاد الأرانب والحجل في الغابة. يلعب الكرة بجورب ممزق، يقفز في الهواء، يتذكر أمه وهي تعجن الخبز. السوق والقرية. المدرسة والمدينة. أميمة والحب، عدة والمخفي. بلوطة، فارس والمارطو، سمير ومروان. وكل الكون كان يسير داخل عينه ببطء سام.

انزلقت دمعة من عيني وارتجت شفتي.. أحسست ببرد رهيب ينقر ساقي، تنفست بعمق وشهقت...ضغطت على الزناد.

تك...طلقة فارغة

جبيني يعرق وإصبعي يرتجف فوق الزناد. سعلت وتذكرت سخرية القدر مني. تبول الحياة فوق مصيري... ابتسمت. انفلتت مني نصف ضحكة غريبة متصاعدة بسرعة نحو سماء الجنون. ثمّ انقطعت.. لتحول إلى بكاء مضغوط. مثل رضيع أخذوا منه ألعابه تلك اللحظة التي تسبق انفجاره. تلكما العينان الشاخصتان اللتان تظهران تلك الحيرة في وجهه حين لا يفهم ما يحدث حوله. كانت تعلو محياي.

كيف لم أمت لحد الآن؟ هل هو الحظ أم أن القدر يسخر مني ويعذبني أكثر. الطلقة الثانية أشعر أني على وشك أن ألامس حافة الجنون أو حافة الشجاعة. هل الانتحار هو قمة الشجاعة أم قمة الانكسار والهوان؟

وهل هذه الحياة حقا تستحق أن تعاش؟ وتستحق أن أبكي عليها أو بالأحرى أن أبكي على نفسي وأنا أفارقها بهذه الطريقة؟ لا لن أحزن. فلا أحلام لي لأتركها تتبخر. ولا رابط لي مع هذه الدنيا الدنيئة. عندما أقابل الرب سأخبره أني انتظرت أن يطلع علي ضوء الصبح ذات يوم. لكن طال انتظاري في غياهب الفقر والحزن ومع الوقت بدأت أدرك أن كل حياتي ماهي سوى ليل طويل كلما زاد طوله كلما زاد برده.

وضعت فوهة المسدس داخل فمي تذوقت طعم الصدئ تحت لساني أغمضت عيني، تقدمت أكثر حتّى أسقط داخل النهر...ضغطت الزناد بقوة.

تك.. طلقة فارغة.

كأن الحياة تضحك علي وأنا أموت مع كل ضغطة فوق الزناد دون أن أموت. كل ضغطة تأخذ شطرا من روحي وتقتل داخلي أطنانا من المشاعر وتجمد الكثير من الإنسان داخلي.

عضضت على شفتي بقوة. غيرت مكان المسدس لأضعه في وسط جبهتي، أمسكته بكلتا يدي وسبابتي. من سخافة الأمر. إصبع السبابة هذا له سر كبير فقد يأخذك للجنة مثلما قد يدخلك النار. بدأت أفكاري تنهشني وتتلاطم داخل رأسي والأصوات تنبح في الفراغ، والضوء يتكاسل أمام عيني، الأشجار تذوب ومياه النهر تغلي. تذكرت أمي وصرخت...تذكرت أميمة وعينيها وكيف سأخرج من حياتها لأن أمثالي لا يليقون بأمثالها. أنا دمار وظلام. أنا النحس وأنا من تسبب بقتل الكثير من الأرواح علي أن أنتقم مني الآن. نعم هذه هي النهاية جثوت على ركبتي.. تذكرت جدي لما أعطاني القلادة وأخبرني أنها حامية وعامية وشافية..ضغطت الزناد بلا مبالاة باردة..

تك.... طلقة فارغة.

تفوووه على الحظ وتفووه على عبثية الوجود.

أمسكت تلك القلادة، تأملتها لوهلة وتذكرت ما قاله جدي.

هل يا ترى ما قاله عنها صحيح... هل هي التي حمتني من الموت الآن وهل هي التي حمتني من دخول السجن؟ وهل هي التي كانت تحميني عدة مرات من الموت المحتم؟ أم أنه مجرد حظ...

تك...طلقة فارغة...

تك...طلقة فارغة...

آخر طلقة في المسدس.

استسلمت أخيرا وأنا أعرف أن هذه نهايتي.

قبل أن أضغط على الزناد شعرت أن يدا تمسكني من الخلف

التفت لأجد "المخفي "بشحمه ولحمه.

بنظرة جادة لم أره من قبل في تلك الجدية عينان ملتهبتان تكلم بنبرة واضحة وشديدة:

_" جدك مات رجلا فمت رجلا "

ثم مضى في طريقه دون أن يزيد كلمة أو يلتفت نحوي

مكررا جملته المشهورة:

"ما يبقى في الواد غير حجاره "

"ما يبقى في الواد غير حجاره "

عجيب أمر هذا المخفي بجملة واحدة قلب كل أفكاري.

"جدك مات رجلا" يعني أنه مات مدافعا عن شرفه وحرمة بيته. فمت رجلا... فيجب علي أن أموت مثله مدافعا على رجولتي.

المخفي أوحى لي بفكرة جهنمية. حيث أخرجت الرصاصة من المسدس تأملتها "لم يعد لي شيء لأخسره".

اتصلت بطارق وفارس ومروان وسمير وأخبرتهم بالخطة.

الطلقة الثانية

نصبنا كمينا للسيد جمال في جلسة قمار بعدما تسللنا للفندق الذي يقامر داخله ويلعب البوكر ويغش بطرقه الخبيثة.

انتحل فارس شخصية الفتى الثري والطائش الذي يملك الكثير من النقود ويريد أن يقامر بها وهو يبحث عن شخص ثري ليدخل معه التحدي. فارس هو الطعم. وطارق هو حارسه الشخصي. طارق خيط الصنارة. أمّا مروان مكان النادل الذي يضع الحبوب المنومة داخل كأس السي جمال. مروان يلعب دور العصا التي تهز الخيط لتجهد قوى السمكة في شد الخيط، وسمير يحرص على أن تكون المباراة مغلقة وأن لا يتدخل أحد من الخارج. سمير يلعب دور الخطاف الذي يثبت السمكة ولا يدعها تهرب. والسي جمال هو السمكة التي علي أنا الصياد أن أخلص النهر منها ومن وحشيتها واستبدادها. فارس كان يجيد لعبة البوكر جيدا وكل الألعاب الأخرى التي تعتمد على الذكاء كان ذو ذكاء غير طبيعي. ولما أحس السي جمال بأن خسارته بدأت بالتضاعف وخدعه لم تعد تفلح أمام فارس. لجأ لحيلته المشهورة. وأخرج تلك القطعة الفضية وبدأ بتحريكها بين أصبعه. وهنا أين ابتلعت السمكة الطعم.

وقبل أن يعرض مقامرته الكبرى على سمير عرض عليه مروان الشراب المنوم.

ثبته الخطاف وسحبه الخيط، وجاء في وعاء الصياد.

نجحت الخطة ونام السي جمال على طاولة القمار. حمله طارق وأدخله الغرفة المجاورة. أقعده قبالتي. صفعه سمير على رقبته حتّى يستيقظ. أراد النهوض فوجد نفسه محاصرا بنا نحن الخمسة.

– هل تريد أن نقامر هاه.. ليس نصف ما تملك وليس كل ما تملك لنقامر بحياتك إذن هيا...

– لا لا! ماذا تفعل؟ توقف.. أنت لا تعرفني جيدا!

– كفانا نحن نعرف بعضنا وواحد منا يخرج حي من هنا.

– لما نلعب على كل حال. هيا اقتلني مباشرة. فحتى لو تمكنت منك ومت أنت، سيقتلني أصدقائك بعدك هذا واضح.

– أن تموت وتخرج روحك خير من أن تموت وأنت على قيد الحياة.

لا تخف لن نقتلك فأصدقائي رجال ونحن الفقراء رأس مالنا كلمتنا. ليس مثلكم أيها الأثرياء الأنذال رأس مالكم هو مالكم. لكن لن أضمن لك انتقامهم منك بعد أن تخرج من هنا. عليك اللعب إن أردت أن تعيش فقط العب هيا لنبدأ اللعبة.

ثم بإشارة من يد مطلوعة أغلق طارق فم السي جمال:

– شوف في هذه الغرفة واحد منا سيخرج على قيد الحياة. إمّا أنا أو أنت. هذا الكون لا يتسع لكليا. يا لوهراني. أنت قاتل وأنا قاتل والقاتل البارد هو من يربح.. أنت تستحق الموت وأنا أستحق الموت.

فتح مطلوعة المسدس وضع رصاصة واحدة داخله وأدار الماسورة ثمّ أغلقه. أداره فوق الطاولة. لتقع فوهة المسدس موجهه نحو مطلوعة. حمل جمال المسدس وضعه مباشرة في وجه مطلوعة الذي قابل فوهة المسدس بكل برود وابتسامة منطفئة. كأنه ميت على قيد الحياة.

وضع يده على الزناد وضغط بقوة.

تك... مطلوعة لم ترمش عينه. كان مثل كتلة جليد صلبة.

طلقة فارغة.

ابتلع جمال ريقه ونظر في عيني هذا القروي الذي كان كل حلمه أن يبيع كل ما في سلته من مطلوع. هذا الفتى القروي لم يعد له شيء ليخسره. كيف للخادم أن يقتل سيده؟

أمسك مطلوعة المسدس وببطء مرعب شمر على ساعديه. مباشرة وضع المسدس على بعد سنتمترات من جبهة السي جمال. ثمّ تكلم بنبرة هادئة وبطيئة:

_هذه من أجل أبي هواري اللازالذي به كنت سببا في صنع قاتل ومقتول في ليلة واحدة.

***

قبل ثلاثة عشر عاما.

أمام عيني الفتى الصغير صاحب الطربوش الأحمر. الأب يترنح وسط الكوخ ورائحة الخمر تفوح من ملابسه وبصوت مبحوح يقول:

_الوهراني الكلب... خدعتني في داري وصحتي... الهواري الكلب.

***

ثم يفتح مطلوعة عينيه ويضغط على الزناد.

تك... طلقة فارغة

يعصر جمال عينيه وتكاد روحه تخرج قبل أن يتلقى الطلقة. جبينه يعرق وأنفاسه تتصاعد بتواتر واضح، تكاد روحه تخرج منه قبل أن تخرج روحه.

يضع مطلوعة المسدس أمام السي جمال. يتردد في حمل المسدس فيضغط طارق على كتفه من الخلف. فيحمله بيد مرتعشة. يفتح ربطة عنقه ويباعد بين ساقيه، ضاغطا على أسنانه.

مطلوعة يبتسم ابتسامة عريضة تبث الرعب في قلب جمال. ثمّ يضغط الزناد حتّى يطمس هذه الابتسامة المرعبة عن وجهه. وقبل أن يفعل ذلك التفت ليتفقد الأربعة الجاثمين وراءه على الحائط. يزداد مطلوعة قوة مع كل رصاصة لا تقتله. كأنه يطبق ما قاله له جده المرحوم.

"الضربة التي لا تقتلك تقويك "

ضغط على الزناد بكلتا يديه

تك... طلقة فارغة

لم يتبق في المسدس سوى أربع رصاصات. السي جمال يعرق بشدة ووجه محمر. حلقه جاف. وعروق رقبته بارزة من الضغط الذي يكتمه داخله. المصباح يتدلى من فوق الطاولة يعكس ضوءه الخافت على سطح المسدس ا ذي الفم القصير. الموت شبح ثقيل يصرخ في جو الغرفة. الأيادي تعرق والقلوب تخفق بسرعة ملاك الموت متعطش لقبض روح لاتزال ساخنة خارجة من جسدها لتوها.

يحمل مطلوعة المسدس بأنفاس باردة وملامح متصلبة يضع فوهة المسدس في وسط جبهة جمال.

نظر خلفه نحو الباب. كأنه قد سمع تحركا في الخارج.

بنبرة بطيئة ومبحوحة قال مطلوعة:

_هذه من أجل صديقي بلوطة الذي أخذت منه كل ما يملك.

و من أجل جدي الذي أعطاك الحرية لتنعم في هذا الوطن

ثم ضغط على الزناد:

تك... دماء على الحائط... طلقة تخترق الجمجمة...السي جمال جثة هامدة على الكرسي. أخذ منه مطلوعة القطعة الفضية وخرج الجميع ليتركوا السي جمال غارقا بين دماءه وخده ملتصق بطاولة القماروضوء المصباح فوق رأسه ينعكس على دماءه القانية فوق الطاولة.

الطلقة الثالثة

في تلك الليلة لم أستطع النوم بعدما تذكرت ما قالته لي أميمة ولم أستخلص من كلامها شيئا إلا من بعد ما انتقمت من السي جمال.

***

إنها هدية من أبي سلمها لي يوم عاد إلى المنزل مبللا بالكامل وهو يسعل ويكح والدماء تسيل من رأسه. أمسكته وقد سقط عند الباب. قبل أن يفقد وعيه ظننت أنه سيموت فرحت أبكي على صدره. حتّى فتح يدي وأهداني هذه القلادة ثمّ أخبرني أنها ستحميك من كل شر وأذى مثلما حمتني أنا. وعندما استيقظ حكى لي القصة وكيف أن أحدهم دفعه من على الجسر فسقط في مياه النهر الجارفة وتشبث بصخرة يواجه الموت حتّى تدخل أحدهم فجأة وأنقذ حياته. أخبرني أبي أنه مدين لذلك الشخص بحياته. وهذا كل ما وجده في المكان عندما استيقظ ولم يجد ذلك الشخص قد اختفى وكل ما تبقى منه هو هذه القلادة.

***

يعني أن السي جمال هو أب أميمة الذي هو في الحقيقة من رباها فقط وليس أبوها الحقيقي وهذا حسب ما قالته نعيمة التي هي أمها.

وأميمة لا تدري أن السي جمال ليس أبوها الحقيقي. إذن هي تعتقد أني قتلت أبوها. جاءني خبر بأن الماحي يبحث عني وأني متهم في قضية قتل.. وانتشر اسمي في الصحف والجرائد.

تسللت في الليل نحو القرية دخلت لمنزلنا قبلت أمي في جبينها تركت لها تحت وسادتها كل النقود التي أخذتها من السي جمال قبل أن أقتله. ومضيت نحو المدينة تحت جنح الظلام.

انتظرت أميمة بعدما كانت عائدة من قسم الشرطة. أمام عتبة المنزل أمسكتها من الخلف وضعت يدي على فمها حتّى لا تتمكن من الصراخ. أمرتها بأن لا تصرخ. كان الشرر يتطاير من عينيها لتضربني. أرخيتها ببطء بعدما لاحظت أنها كفت عن المقاومة لتباغتني بصفعة خاطفة، تلقيتها كجثة ميتة. أرادت أن تضربني فلويت ذراعها وثبتها بإحكام تحتي. رأيت كل ملامح الحقد في عينيها أغلقت فمها مرة أخرى.

– دعيني أوضح لك الأمر! لقد

قبل أن أكمل جملتي عضتني من إصبعي. حتّى كادت أن تقتلعه، عجبا أين هي تلك الفتاة الوديعة، راحت تلعنني وتدعو علي وكل ما تكرره

– أنت قاتل.. قتلت أبي... لماذا! لماذا؟

أردت أن أخبرها الكثير من الأمور لكنها لم ترد أن تسمعني.

انتبه الجيران لصراخها وبكاءها. ولم أرد أن يقبض علي بعد. ليس الآن... ثمّ هربت مسرعا.

بعد عشرين يوما كنت متهما بجريمة قتل والماحي يمشط كل القرية بحثا عني. كان اختطاف أميمة هو آخر مهمة علي القيام بها قبل...

***

ربطتها على الكرسي من رجليها ويديها. وضعت المسدس على الطاولة، انتظرت استيقاظها. رحت أغرق في تفاصيل وجهها وهي نائمة.

استيقظت مفزوعة وزاد فزعها لما وجدت نفسها مقيدة على الكرسي والمسدس أمامها على الطاولة.

– الآن ستسمعين كل ما سأقوله لك، حتّى أموت وضميري مرتاح ونعرف هل أحببتني حقا أم لا!

– أنت مجنون قد فقد عقلك.. أنت مجنون... اتركني...

انتظرتها حتّى تفرغ كل دموعها وتصرخ ملئ حنجرتها وتخرج غضبها في الصراخ والشتيمة.

– لا تتعبي نفسك بالصراخ فهذه المزرعة اسمها مزرعة الحركي وهنا كان يعذب الفرنسيون المجاهدين وكانوا يحتسون أقداح الشراب في الغرفة المجاورة من هذه الغرفة، لذلك هي مصممة خصيصا لعزل الصوت. فلا داع لتتعبي أنفاسك بالصراخ. فنحن وحدنا هنا. أنا وأنت والرب ورصاصة واحدة داخل هذا المسدس.

–ماذا تريد بعد هذا فقد قتلت أبي بدم بارد.. أنت وحش لم أكن أعرف أن هذه حقيقتك، أنت وحش حقا وقد فقدت عقلك. تفووو قاتل.

مسح مطلوعة وجهه من البصاق، وابتسم ابتسامة باردة وحزينة. أمسك المسدس أخرج الرصاصة من جيبه وضعها داخل عجلة المسدس ولف العجلة بسرعة ثمّ أغلق المسدس بحركة خاطفة، ووجهه مباشرة نحو وجه أميمة. ابتلعت ريقها وكفت عن الكلام. يكاد يضغط مطلوعة على الزناد ثمّ يكف. ينهض من كرسيه، يحوم حول أميمة، يقف فوق رأسها، يمسك خصلة من شعرها، يتفقد القلادة في رقبتها فلا يجدها.

_أين القلادة!

أميمة لا ترد فينزع القلادة من رقبته ويضعها حول رقبتها، ثمّ يهمس في أذنها:

– هذي حامية، شافية، عامية

يرجع لمكانه.

– سنلعب هذه المرة يا روحي سنلعب حتّى الموت، حتّى يحيينا الحب أو يقتلنا الحب ومن الحب ما قتل وبما أنك روحي، سألعب مع روحي بدلا منك حتّى أخرج روحك أو أخرج ما في روحك.

_أتركني... النجدة... النجدة. أنت مجنون.

أميمة تعود للصراخ والبكاء بقوة أكثروالدموع تمتزج مع كحل عينيها لتسيل على خديها وتصب على أطراف شفتيها.

_لا تخافي فالحامية في رقبتك، مثلما حمتني من الموت عدة مرات ستحميك أنت. لكنها لم تحمِني من الموت فيك حبا ولم أجد لمرض حبك دواء، حبك أسوأ من السرطان الذي يخنق رئتي، حبك يخنق روحي ويمزقني مع كل خيال لك يمر أمامي، يحرق أنفاسي ويحرقني كل ما رأيتك مع غيري، ولن تكوني لغيري وأنا لا أستطيع العيش إلا وأنت بجنبي، أنت كل ما تبقى لي في هذه الحياة بعدما خسرت كل شيء، نحن وجهان لعملة واحدة. لن أتوقف حتّى أسمع منك تصريحا بأنك تحبينني ووعد بأن لا تكوني لغيري.

_قولي أحبك فقط.

لا ترد أميمة.

ثم رفع مطلوعة المسدس ووضعه في صدره.

أول طلقة.

يضغط مطلوعة على الزناد ويقول بنبرة هادئة:

_ قولي أحبك فقط.

_تك.

طلقة فارغة.

بعدها يوجه المسدس مباشرة لرأس أميمة "أميمة تبكي وتتنفس بصعوبة".

_قولي أحبك

تسكت أميمة.

لا تخافي يا روحي فقد أخبرتك أني سألعب مع روحي ثمّ وجه المسدس للجدار وضغط الزناد.

– قبل أن أموت أريد أن أعطيك بعض الحقائق التي يجب عليك معرفتها.

_حقائق!

_نعم أمك لم تمت بمرض السرطان. أمك لا تزال حية وهي في السجن.

"زمت أميمة شفتيها، فتحت عينيها وعقدت حاجبيها مستفهمة"

_ماذا تقول... ماذا تقصد أنت تكذب!

ثم وضع مطلوعة المسدس في وسط جبهته ينتظر من أميمة كلمة تنطق بها ليتوقف. لم تتكلم أميمة وبقيت مندهشة مما أخبرها به مطلوعة. بعدما عقد الصمت والخوف لسانها.

_قولي أحبك.

لا ترد أميمة. يضغط مطلوعة على الزناد.

_تك."تصرخ أميمة صرخة مرعبة"

الطلقة الثانية فارغة.

يوجه مطلوعة الطلقة الثالثة للحائط خلفها.

_قولي أحبك.

تبتلع أميمة ريقها وتكتفي بالصمت.

_حسنا. أنت لا تريدين الكلام. أنت لا تحبينني قد عرفت هذا. على كل حال هذه آخر طلقة وستنتهي داخل رأسي. ورغم أنك لا تحبينني سأترك لك بعض الحقيقة حتّى لا تعيشي الوهم في حياتك. مثلما عشته أنا في حبك.

_قولي أحبك.

أميمة تصرخ.

_تك...

الطلقة الثالثة فارغة.

ثم يضع مطلوعة المسدس على جبهته.

_أرجوك توقف يا لقمان أرجوك.

– السي جمال ليس أبوك... السي جمال أو مثلما يلقبونه بالوهراني، هو السبب في رهن أبي للمنزل وهو السبب في مقتل جدي، وعاملة النظافة نعيمة هي أمك التي عندما زرتها في السجن كانت تحمل وحمة مثل التي تحملينها في أسفل رقبتك، وأمرتني بأن لا أخبرك. ولأنها فعلت ذلك لتحافظ على حياتك فقد وصلتها رسالة تهددها بقتلك إن لم تنفذ هي مهمة قتل إسحاق. ومن أجل أن تنقذنا من السجن قامت بفعلتها لأن إسحاق فتى بغيض وكان يستحق الموت بيديها لأنه لطالما أهانها وأذلها مثلما حكت لي. وبالمناسبة إسحاق قد أحبك فقط لأنّك من الطبقة الاجتماعية وأبوه هو صديق السي جمال مربيك. إسحاق لا يستحقك يا أميمة لا يستحقك... أنا الذي أستحقك وأنا الذي ضحيت بكل شيء من أجلك. أنا الذي أستحقك لكنك لم تقدري وجودي معك.

_أنا أحبك يا أميمة. أحبك.

يضغط على الزناد بقوة.

_تك.

الطلقة الرابعة فارغة

يصوب باتجاه الحائط ورائها الطلقة الخامسة. وكانت تلك آخر فرصة ليعيش مطلوعة يعيش بكلمة واحدة فقط من أميمة.

_تك...

الطلقة الخامسة فارغة.

_الوهراني هو السبب في أن أفقد أعز صديقي لي... هو الذي أخذ كل ما يملك وجعله يهجر القرية.. ذلك الفتى الذي دفعه من الجسر هو أعز صديق لي. وأنا الذي أنقذت أبوك ولم أعرف أنه هو أبوك؟ وأنا الذي قتلت أبوك ولم أكن أعرف أن السي جمال هو أبوك ولكنك لم تدعي لي الفرصة لأشرح لك ذلك اليوم. ولكنه يستحق الموت وهو لم يكن أبوك في الحقيقة... الوهراني غشاش وقاتل يستحق الموت وأنا أستحق الموت أنت فقط من تستحق الحياة.

وضع مطلوعة المسدس على رأسه ونظر في عيني أميمة الدامعتين كانت تلك الطلقة السادسة والأخيرة في المسدس وحتما ستكون في رأس مطلوعة.

_قولي أحبك.

وقبل أن يضغط الزناد صرخت أميمة:

– أحبك..أحبك..

_لم أسمعك جيدا.

_أنا أحبك... توقف أرجوك.. توقف

ابتسم مطلوعة ولمع بريق شديد في عينيه وكأن الحياة دبت في وجهه من جديد.

أغمض عينيه. ووضع المسدس على صدره مباشرة.

_حسنا إذن..وداعا.

_لا توقف.

_وداعا

_لا آااه يا ربي لا تفعل هذا.

_نعم هذا الذي سيريحني سأقتل نفسي وأقتل السرطان وأقتل قلبي وأقتل حبك داخل هذا القلب.

أميمة تصرخ وتبكي وتردد:

_ أحبك أرجوك توقف.

يضغط مطلوعة الزناد

الطلقة السادسة.

_تك...

***

– ثمّ بعد ذلك ماذا حدث؟

يسأل أحمد البغل متشوقا لمعرفة بقية القصة:

– كيف لم تمت؟ هل ضغطت على الزناد حقا؟

يرد مطلوعة مبتسما:

– نعم لقد ضغطت على الزناد.

– كيف هذا!

– كانت الطلقة فارغة.

_كيف ذلك. وقد أخبرتني أنك وضعت رصاصة داخل المسدس.

_نعم. لكن!

_لكن ماذا!

_ قبل أن أدير ماسورة المسدس خطفت الرصاصة وأوهمت أميمة بأني وضعتها داخل المسدس.

_وكيف تمكنت من إيهامها بهذا؟

_ قد تدربت على هذه الحركة مثلما تدرب أبوها على حركة القطعة الفضية وهذا فقط من أجل أن أعرف منها إن كانت تحبني أم لا؟

–وماذا استنتجت؟

–نعم هي تحبني. وسأخرج من هنا وأتزوجها ولن تكون لغيري أبدا لن تكون.

–وكيف أمسكوا بك؟

–الماحي تبعني لمزرعة الحركي وأوقع بي وهذا كان هدفه من البداية من قضية إسحاق وحتى لو لم يوقع بي. كان سيلفق لي جريمة قتل مثل التي أوقع بها أب فارس صديقي. الماحي ذاك محقق فاسد ومجنون أكثر مما تتخيله.

***

بعد عشرة أعوام

نحن أحياء هذا الصباح..هنا لم نزل

قد بكينا طويلا

طوال الظلام على من بكى وعلى من قتل

وكنا على ثقة

ليس أقسى علينا من اليأس إلا الأمل

ابراهيم نصرالله

هنا الوقت يتكاسل ويمشي بأرجل حلزون سمين، الساعات مسنّة والأيام توائم من ضرع واحد، حركة الكون مقعرة إلى الداخل والألوان تبهت مع كل نومة، الكل يحمل قصة تلازمه كظله العنيد الهارب من الحرية، قد مرت عشرة أعوام عجاف تنسحب فوق أضلعي لتعقبها مطبات الذاكرة المحفرة، أربعة حيطان بلون اللّاذوق، تحمل في جيدها رسماتي المبتورة من لوحة حياتي المباغتة، الفتى يحمل طربوشا أحمر بين يديه يعد الدنانير، الدموع تتغرغر في عينيه، دموع الظلم والقهر والقدر المكشر أنيابه في جلدي منذ طراوته، لا أزال أدس ذلك الفتى الهش في زاوية مغبرة من مقبرة قلبي، مثلما كانت تدس له أمه حبات التمر والتين المجفف في محفظته، لا يزال يضحك ويحلم بدراجة هوائية أشعر به يسير داخلي، فوق كبدي يتمرغ، ثمّ يمشي بحذر على رئتي المحفرة، لا يزال هناك معانقا أطراف برنوس روحي الرثة، بين القضبان أنا وبين الأضلع هو، في مقبرة الذاكرة لا زال يبحث عن أزهار الحميضة بين القبور المسيحية المنسية في مقبرة النصارى بالقرية، لازال يركض وراء شاحنات المحجر كل صباح، ويحمل قفة المطلوع ويبكر إلى سوق الجمعة، لا يزال يحلم بدراجة هوائية يرسمها على الورقة ثمّ يمحيها بدموع عينيه، لا يزال هناك بين القبور يبحث عن حب مستحيل، عن وطن ضائع وعن مستقبل مضبب، مضت ذي السنون على جرح الذاكرة ونسيت كأني لم أكن يوما، هنا في السجن لا يحسب الوقت بالأيام ولا بالساعات، بل يحسب بالأنفاس والضحكات هل أنا أستحق كل هذا يا ترى؟ هل أنا أستحق العيش بعد كل هذا؟

وهل هذه حياة تستحق أن تعاش؟ وهل أنا مخلوق من أجل الألم أم أن الألم مخلوق من أجلي! أسئلة بليدة تنفخ في وجه شمعة الأمل بالحياة، قطار الحياة يمر بي مسرعا، لا أركبه بل تعلق فيه رجلي ويجرجرني ورائه وأنا أصرخ وأصرخ لكن القطار لا يتوقف ولا احد يسمعني، لا أموت ولا أستطيع. وكلّما أردت أن أسحب رجلي العالقة في مؤخرة القطار أزداد ألما وتعلقا، هناك يد من بعيد أراها تمتد نحوي ولكن لا أمل

من الركوب في قطار ربما يكن مخصصا لركوبي من الأصل. هاهنا أنا أتمنى الحياة ولكني لا أستطيع بها لحاقا، حجارة الحياة تخدش روحي وأنا أصرخ والدمع الأحمر في عيني ولا ملجئ لي سوى هوامش سكة القطار لتقطع جسدي بدلا من تهشمه حجارة الحياة.

***

بعدما ألقى الماحي القبض علي، واصلت علاجي الكيميائي في السجن. ومرت علي أيام سوداء وكوابيس مرعبة يعلمها الرب فقط، وبعد عامين صرت مثل كلب سلوقي. جلدا على العظم، ميت على قيد الحياة رأسي أصلع مثل حبة بيض مسلوقة، وسقط معظم الشعر في وجهي. رموشي أهدابي ولحيتي. مشاعري ذبلت، أستمر في الحياة فقط من أجل أن لا أقتل أمي وهي لا تزال على قيد الحياة.

ثمّ ذات ليلة مريرة تبقى موشومة على ذاكرتي، تلقيت خبر وفاتها، ماتت العزيزة وخلات مطلوعة حزين، ماتت عيشة.. نقل إلي الحارس الخبر بقلب بارد، شعرت عندما سمعت خبر وفات أمي التي ضحت بنفسها من أجل أن تربيني وتجعلني رجلا بأن كل الكون قد سقط فوق صدري، بنجومه وشره وبئسه. بكيت لأيام وأيام وذقت المر وتجرعت ألم اليتم والفراق.

وعندما رفضوا طلبي في السجن من أجل حضور جنازة أمي حتّى أتمكن من تقبيل جبهتها ورؤيتها للآخر مرة، كرهت كل البشر وشعرت أن شيئا قد مات داخلي، أظنه قلبي، شعرت أني وحيد جدا، وحيد مثل قط ميت على حافة طريق معزولة، وحيد مثل قطرة مطرة بعد صحوة السماء، أخربش على ذا الجدار وذا الجدار، أبكي والدم يتلاطم على شطآن خدي، رحماك يا من صنعتني، طينك ينشق من الألم، ارفعه عندك ميت أنا أو حي حد سواء.

في تلك الليلة عندما جاءني مأمور السجن بقرار الرفض ورماه لي من بين القضبان بدم بارد، شعرت أني أختنق بروحي وأني لم أعد أقوى على المقاومة أكثر من هذا لذلك قررت أن أضع حدا لحياتي الباهتة، فقمت وعقدت عقدة من فراشي

وصنعت منه حبلا، لففته حول رقبتي، صعدت فوق سريري، وكدت أن ألحق أمي لولا أن أنقذني أحمد البغل، بعدما عرف قصتي وعرفت من قصته أنه هو الأب الحقيقي لأميمة والسيدة نعيمة هي زوجته، أمسكني من ذراعي وهدأني، ووقف بجنبي طوال هذه الأعوام أعطاني حنان الأب الذي لم أحظ به، وعلمني الكثير من الأشياء التي ساعدتني على أن أقاوم ولا أغرق داخل أحزاني،ومع الوقت والحكايات الطويلة. تأكدت حقا بأن أحمد البغل هو زوج السيدة نعيمة وهو أب أميمة الحقيقي.

وقف معي وقفة رجال وشجعني على مقاومة السرطان. وبعدما توفيت أمي لم يعد لي من يقوم بالتكفل بجلسات العلاج الكيماوي، استلقيت على سريري في انتظار ملك الموت ليأخذ روحي، وأنا في انتظاره أصبح الوقت ثقيلا وطويلا يعذبني ويجعل روحي تسيح من جسدي بالتقطير. وأنا أتعذب أكثر، حينها أدركت أن الأسوأ من الموت هو أن تبقى معلقا بين الموت والحياة، هو أن تموت روحك قبل أن يموت جسدك.

بعدما قررت الاستسلام كليا، جاءني أحمد البغل مسرعا ونظرات الفرح بادية على وجهه، يحمل ظرفا بين يديه، فتح الظرف وقرأ لي أن متبرعا لم يرد أن يذكر اسمه، قد تكفل بإجراء عمليتك الجراحية، لاستئصال الورم، أحياني من جديد، وشجعني أحمد البغل على أن أقوم بالعملية، وفي الليلة التي كنت سأدخل فيها غرفة العمليات همس لي في أذني:

_" أسرع بالشفاء يا صهري "

ثم نجحت العملية بأعجوبة ورجعت إلى السجن لأكمل فترة نقاهتي. وسجني.

بعد أيام بلغتنا رسالة من السيدة نعيمة مفادها أن أميمة لم ترد أن تزورها في السجن وقد قررت مغادرة البلاد لتتابع دراستها في الخارج وتعيش حياة جديدة، هدأني أحمد البغل عندما قرأ علي الرسالة وأخبرني أنه عند خروجه سيبحث عنها. وأقنعني أكثر عندما قال لي: لا شك أنها هي المتبرع المجهول وقد قامت بالتكفل بعمليتك بطريقة غير مباشرة، لأنها تحبك ومحال أن تنسى المرأة من أحبته بصدق. أقنعني بهذا فعدت لأربي الأمل من جديد.

كتبت لها العديد من الرسائل، طيلة الأعوام التي قضيتها في السجن، لكن لم يصلني حتى جواب منها، يا ترى هل قرأت تلك الرسائل التي كتبتها لها، أو أنها لم تصلها ؟

خرج أحمد البغل قبلي من السجن. ودعني وأخبرني أنه ينتظرني بالخارج، ترك لي فراغا كبيرا وصرت لا أكلم أحدا من السجناء. انطويت على نفسي أنتظر أن تنقضي مدة سجني، الأيام تتمدد كلما بقيت وحيدا للصمت، العزلة تهلك الروح قبل أن يهلك الوقت الجسد... صرت أتفتت ببطء وأتفكك من الألم كلما تذكرت أصدقائي وحالهم وأخبارهم، صرت كل يوم أنتظر رسالة من أحدهم لتؤنسني في عزلتي الباهتة.

رسائل من الحياة

من بلوطة إلى مطلوعة

عزيزي وأخي مطلوعة أنا أكتب لك هذه الرسالة ولا أعلم من أين أبدأ لك. ولا أعلم كيف سارت هذه الأعوام بيننا وانقطعت أخبارك. ونحن من كنا ننقع الخبز في الماء وننام تحت الخروبة ونسرق البرتقال من حوش الحاج عدة، يا ترى هل ما زال على قيد الحياة؟

الدنيا بنت الكلب فرقت بيننا يا خويا مطلوعة لكنها لم تفرق بين قلوبنا وعمري ما نسيت العشرة والأخوة التي بيننا. أنا في الغربة نعم قد غادرت الوطن وركبت البحر، قد سألت عنك كثيرا وبحثت عنك في مواقع التواصل الاجتماعي لكن لم أجد لك أثرا، حتّى تلقيت خبرا من فارس بأنك دخلت السجن وعرفت هذا عندما توفيت أمك، أنا أعزيك في خالتي عيشة تلك المرأة الفحلة التي صنعت منك رجلا. أمّا إن كنت تسأل عن أخباري وماذا حدث لي بعدما فارقت القرية، فأنا قد هجرت البلاد وأنا لا أملك فلسا واحدا قطعت البحر وهجرت إلى اليونان ومن اليونان إلى فرنسا، رأيت الفقر والظلم مثلما لم أره في قرية البلبال، كدت أموت ذات ليلة إثر عضة جرذ وأنا نائم على الرصيف في شارع من شوارع باريس قد رأيت الويل، ومع مرور الأيام اضطررت للعودة لبيع المحاجب للجالية المقيمة في مارسيليا، لا تتخيل كم هم كثر هنا ولا تتخيل فرحتهم عندما يأكلون المحاجب يقولون لي أنها تفكرهم في "ريحة البلاد". الغربة صعبة يا مطلوعة خويا. بعد أشهر وفرت بعض المال وفتحت حانوتا صغيرا لبيع المحاجب والأكلات التقليدية الأخرى كسكس، حريرة، شربة، حتّى المطلوع، لا تعلم كم يحب الفرنسيون المطلوع لكني أعرف أنه ليس مثل المطلوع الذي كانت تعده أمك، ثمّ قمت بتشغيل بعض الحراقة الجزائريين لأقوم بتوسيع المحل، ثمّ بدأت ببعض الاستثمارات مع محلات تجارية رأيت أن المغتربين الجزائريين يدخلونها كثيرا لأوسع التجارة وأفتح شركة مختصة بالعجائن وهل تعلم يا صديقي أني قد سميت تلك الشركة على اسمك، "شركة مطلوعة للعجائن ". وأنشأت تجارة

مربحة والحمد لله في هذه اللحظة التي أنا أكتب لك هذه الرسالة لقد اشتريت تذكرة لي ولزوجتي وأنا قادم لزيارتك. آه نعم لم أخبرك لقد تزوجت هنا وقد صار لزواجي أربعة أعوام من فتاة جميلة من الجزائر وبالمناسبة هي طبيبة مختصة بالسرطان، لها قصة تشبه قصتي إنها يتيمة ولا أحد لها في هذه الحياة غيري أنا الذي صرت سندا لها تزوجنا في آخر المطاف ورزقنا بولد جميل اتفقنا على أن نسميه لقمان. نعم مثلك كما هو يشبهك ويذكرني بك لحد بعيد لا أعرف لماذا؟ المهم أخي الغالي لقد وكلت محاميا مرموقا ليتكفل بقضيتك ونستطيع أن نخرجك بكفالة في أقرب وقت، وهكذا ستكون حاضرا في ختان لقمان ابني لأني قررت أن يكون ختانه في الجزائر حسب تقاليد أهل البلاد، وتكون تلك فرصة للم الشمل مجددا مع كل الأصدقاء بعد غياب طويل. و إن شاء الله لن يكون ختان لقمان ابني مثل ختانك ههه....هل تذكر يوم ختانك دون مخدر كيف كنت تتلوى وتصرخ وأنا عند الباب أتمرغ من الضحك.

صديقي أنا أنتظر رؤيتك في القريب العاجل، اعتني بنفسك لذلك الحين فأنت كل ما تبقى لي من ماضيَ القاحل ويا ترى ماذا حل بزبيدة وبارجي؟

صديقك المخلص بلوطة.

من مطلوعة إلى بلوطة

صديقي وأخي الذي لم تنجبه أمي بلوطة. قد استلمت رسالتك البارحة وقد سعدت بها كثيرا عندما قرأت بأنك المرسل. وفرحت أكثر لأنك تعلمت القراءة والكتابة. إن كنت تسأل عني فأنا بخير يا صديقي أنا أقضي ما تبقى لي من أيام سجني. وبالمناسبة مبارك زواجك وربي يرزقك الذرية الصالحة، أنت رجل طيب وتستحق كل خير، لقد أخذت لك الثأر من الوغد جمال الذي نهب كل رزقك وكان سببا في هجرك للقرية. وهكذا ضميري مرتاح من جهتك، ورغم هذا أظنه كان خيرا لك عندما هجرت البلاد، فلو بقيت هنا لما وصلت إلى ما وصلت عليه، أنا أتوق لرؤيتك ولإعادة لم الشمل مع أصدقاء الطفولة، سنلتقي في القريب العاجل يا أخي فقد اشتقت إلى طعم المحاجب التي تعدها، يا ترى هل ما زلت تعدها مثل زمان أم أن شركة مطلوعة قد ألهتك ههه.

صديقك المخلص مطلوعة.

من سمير الفار إلى مطلوعة

مطلوعة كيف حالك وكيف حال صحتك؟ أعلم أنك تستطيع أن تدبر أحوالك وأمورك لا أخاف عليك فلطالما كنت أقوانا وأشجعنا، اشتقت لك واشتقت لأيام الثانوية ومزرعة الحركي، هل تذكر آخر مرة انتشينا فيها حتّى وصلت للهذيان وأحرقنا المزرعة وهربنا. أنا أبتسم كل ما تذكرت تلك الحادثة، وقد فرحت كثيرا عندما عرفت أنك نجوت من السرطان، أمّا أنا فبعدك اجتزت امتحان البكلوريا ونجحت بتقدير جيد بفضل الله وبفضل المدير المكلف بمركز الامتحان الذي عرفت من عينيه على أنه مدمن على الحشيش فأذقته سلعتي الخارقة وأغمض عينيه من جهتي. وأنت تعلم التفاصيل الأخرى، بعدها سجلت في قسم الصيدلة ونجحت فيها بطرق أخرى، هل تذكر يوم قلت لي مازحا ونحن في مرحاض المدرسة، أني إن استمريت في بيع الأدوية المهلوسة للتلاميذ سأفتح صيدلية، وهو كذلك يا صديقي وقد حققت ذلك الحلم، وأتممت دراستي وتمكنت من فتح صيدلية، ووظفت فيها بعضا من الطلبة لبيع الدواء وأنا تكفلت بأدوية أخرى لأشخاص آخرين..

ودون أن أقول لك. السلعة التي يدخنونها هناك على يد من تمر!

المهم أنا متشوق لرؤيتك عن قريب

اعتني بنفسك وبرأسك يا صديقي

تقبل تحيات أخيك الصيدلي المزطول.

#الفار

من مطلوعة إلى سمير

خويا سمير إن شاء الله تكون بخير، أنا أحمد ربي عندما أرى أن أصدقائي لم ينسوني رغم التغيرات التي حدثت في حياتهم، أنا فرحان بك كثيرا، ولطالما آمنت بك وآمنت أنك ستصل إلى مبتغاك ليس لذكائك وحيلتك فأنت لست فارس شكسبير طبعا ههه، بل لطيبة قلبك. على طول عشرة أعوام كانت تصلني السجائر التي ترسلها لي وأنا ممتن لك لأنك لم تنسني. رغم أني حذرتك من تلك الشوكولاتة الملغمة إلا أنك لا تتغير وتستمر في التباهي بسلعتك آه خويا. أنا متشوق لرؤية صيدليتك وإن شاء الله لا تكون وكرا للحشيش فقط. وأتمنى أكثر أنك لم تتوهم قصة الصيدلية وكتبت لي آخر رسالة وأنت مزطول. أعلم أنك تفعل ذلك كثيرا.

لا تشغل نفسك بي يا صديقي فلم يبق لي الكثير حتّى أخرج من السجن ونعيد لم الشمل مثل الأيام الخوالي. وإلى ذاك الحين اعتني بصحتك من أجلي. وسأوصي عليك طارق حتّى يدخلك إلى صالة الرياضة حتّى تستعيد بعضا من لياقتك فأنت تبدو مثل القط. في آخر صورة أرسلتها لي رفقة فارس ومروان وطارق. لكنك تبدو وسيما أيها الوغد وأنت تبسم بكل ثقة بعدما رممت أسنانك. هذا ما يدل على أنك في حالة مادية جيدة. أتمنى أن تبقى تلك الابتسامة على وجهك حتّى نلتقي. دمت في رعاية الله وحفظه.

صديقك المحب مطلوعة

من فارس إلى لقمان مطلوعة

أيها الطيب أنا أكتب لك هذه الرسالة بعدما كتبت عنك الكثير من الكلمات قبل هذا، صديقي المميز مطلوعة، أشتاق لرؤيتك شوق سجين لحريته، وها قد مضت بنا الأعوام وفرقنا الزمن البغيض لكن لا تزال منقوشا على جرح الذاكرة ولا أزال أكتب عنك في كتبي، ستصلك نسخة عن قريب من روايتي الثانية والتي سميتها "مطلوعة "خبزوحب" "والتي كنت فيها شخصية رئيسية. جاءتني فكرة كتابتها بعد كتابتي لروايتي الأولى "رجل من دون وجه "حيث ألهمتني الأحداث التي جرت لك في حياتك والتي أخذتها من مذكراتك ومن معرفتي بك وبأصدقائنا لأنسج خيوط الرواية، وأبسط تكريم لك هو أن أعطيها اسمك. بعدما أصدرت الرواية حازت على أكبر جائزة وطنية في الرواية في الجزائر جائزة رئيس الجمهورية "جائزة علي معاشي "وقد أحدثت ضجة كبيرة في الوسط الأدبي بعنوانها الغريب وسمع بها الصغير والكبير. ومن ناحية أخرى قد كتبت الرواية لتكون بمثابة أمل لكل مرضى السرطان ومرضى الحب والأمل، وسهرت الليالي حرصا على أن تكون عملا أدبيا يرقى إلى المستوى المطلوب، فبعدما توفيت أمك رحمها الله وكانت امرأة فحلة ورمزا لكل نساء الجزائر المكافحات،قد حرصت على أن أخلدها في الرواية، قبل أن يغلقوا منزلكم دخلت لغرفتك لأجد مذكراتك. وهنا أعتذر منك لأني أخذتها دون اذنك وقرأتها مرات ومرات، حتّى ألهمتني لأصنع منها رواية تشارك الناس بعض آلامهم وأحزانهم وقد قررت أن تكون أول طبعة مجانية أوزعها لمرضى السرطان في المستشفى الذي كنت تذهب للعلاج فيه ولتكون قدوة للمرضى في الإصرار والمقاومة وتحدي المرض، وقد ساعدني مروان بتكفله بمصاريف الطبع والنشر. ورغم كل هذا أنت أعظم من أن أخلدك في كتاب يا مطلوعة أنت رمز للكفاح والحب والأمل وسيبقى اسمك مخلدا على كل لسان يقرأ الرواية وستصبح رمزا مطبوعا في ذاكرة الأدب الجزائري.

وإن كنت تسأل عن أحوالي الاجتماعية فقد تخرجت من معهد الهندسة المعمارية وصرت مهندسا كبيرا وأنا الآن دكتور في الجامعة وكلما ذكرت لطلبتي مثالا عن العزيمة والإصرار، أذكرك أنت صديقي العزيز. و بالمقابل قد درست تخصصا آخر هو علم النفس والآن لي عيادة خاصة كطبيب نفسي.

أتمنى أن نلتقي في القريب العاجل لأعرفك على طلبتي المتشوقين للقائك ومعرفتك شخصيا.

و أختم لك بهذين البيتين لعلهما يلخصان ما أريد قوله لك:

لا شَيْءَ في الدُّنْيا أَحَبُّ لنَاظري

منْ مَنْظَر الخلاَّن والأَصْحَاب

وأَلَذُّ مُوسيقَى تَسُرُّ مَسَامعي

صَوْتُ البَشير بعَوْدَة الأَحْبَاب

تلميذك في الحياة الدكتور فارس.

من مطلوعة إلى فارس.

هل أقول لك الدكتور فارس أم الطبيب فارس أم الروائي فارس، المهم أنك حقا مفخرة لنا، وقد رفعت علمنا عاليا، كنت أعلم يا صديقي أنك ستصل إلى البعيد كيف لا وأنت أذكانا. وإن كان أحدهم يستحق أن يكون بطلا للرواية التي كتبتها فهو أنت يا صديقي فليس مثلك في الكفاح من أجل الحياة والأمل بعدما. فقدت عائلتك في سن مبكر في ذلك الحادث المؤلم. الذي لا طالما أردت أن أفتح معك موضوعا في خصوصه وربما لم أستطع ذلك عندما كنت تزورني في السجن وتقابلني. وربما هذه فرصة لأقول لك شيئا ربما أنت لا تعرفه ورغم أن هذه الحكاية قد مضت عليها أعواما إلا يجب أن لا تبقى طي النسيان والكتمان وكل شاة تعلق من ساقها ولكن بعض الشاة لم تعلق يا صديقي بل فعلت ولفقت ونجت بذكائها وخبثها.

في السجن التقيت "بأحمد باني" أبيك وأخبرني قصته من الأول وأخبرني أنه بريء من دم أمك. وأن المحقق الماحي هو من لفق له تلك الجريمة حتّى ينتقم منه لأنه الماحي هو ابن حميد أبوك أي هو أخوك. أخوك الذي أنجبه من امرأة أخرى قتلها بالخطأ بعدما أنجبت الماحي الذي تركه في ميتم وكبر الماحي وأصبح محققا فقط من أجل أن يجد الذي قتل أمه ورماه في الميتم. حتّى وصل إلى مكان أبيه فوجد أنه يعيش حياة سعيدة. فاستدعاه إلى قسم الشرطة وأمره بأن يعترف بأنه قاتل أمه. فلم يعترف أبوك بفعلته، ولم يجد المحقق دليلا يثبت تهمة أبيك في قتل أمه. لذلك أراد أن ينتقم منه، فقتل زوجته وأدخله السجن. الماحي هو من قتل أمك يا فارس وأردت أن أخبرك هذا فقط حتّى تعرف أن أبوك بريء. وتنزع من قلبك ذلك الحقد من جهته أتمنى أن تقابله فهو مشتاق لرؤيتك ولعناقك فأنت ابنه الوحيد.

مع محبتي مطلوعة صديقك ومجرد شخصية ثانوية في روايتك.

من طارق المارطو إلى مطلوعة

كيف حالك أيها الشجاع، أظنك بخير فأنت لا تموت مثل القط بسبعة أرواح، قد اشتقت إلى أيامنا الجميلة. أيها الحارس القط هل يا ترى لا تزال تمارس الرياضة هناك؟ فأنا بانتظارك بالخارج لألقنك درسا، أنا أكتب لك هذه الرسالة وغدا هو يوم مهم بالنسبة لي لأنها المباراة النهائية للبطولة الوطنية في الملاكمة وسأنتصر وأعدك أني سأهدي لك فوزي. وأضيف حزام البطولة للكؤوس الأخرى التي أحرزتها، لم يكتب لي الله أن أنجح في امتحان البكلوريا مثل فارس ولم أرد أن أغش مثلما فعل سمير، ولكني اتخذت طريقي في الرياضة وبدأت أتمرن صبح مساء لأصل إلى ما وصلت إليه الآن من إشهاريات رياضية ومقابلات تلفزيونية، والحمد لله بعدما كنت أهوم بين المباريات غير القانونية التي تلعب في المدينة وأحيانا أخرى أضع نفسي كيسا ملاكمة للعديد من الأبطال المحليين الكبار، من أجل أن أوفر المال لأشارك في المسابقات الرسمية والدنيا تدور يا مطلوعة. من كان يقول أن طارق المارطو الذي كان يعمل كيس ملاكمة بشريا يصير بطل الجزائر في الوزن الثقيل.

ومن أجلك ومن أجل قصتك قررت أن أتبرع بقيمة هذه الجائزة لجمعية متكفلة بالأطفال المصابين بمرض السرطان.

سأزورك في أقرب وقت. كل جيدا ولا تنس ممارسة الرياضة

اعتني بنفسك أيها الشجاع

صديقك المخلص طارق.

من مطلوعة إلى طارق

صديقي البطل أنا سعيد من أجلك وأفتخر بك ولا زلت أتبع الحمية التي كتبتها لي مؤخرا وبرنامج التدريب الذي خصصته لي، وقد لاحظ حتّى السجناء نوما بارزا في عضلاتي والفضل يعود لك يا أخي.

وزد من فضلك وخذ معك سمير الفار أدخله إلى النادي حتّى يبتعد قليلا عن المخدرات وأنا أراهن على أنك ستغيره قبل أن أخرج. هذا هو تحديك الجديد. وحتى مروان أخبرني أنه يحتاج لحارس شخصي فصديقنا قد أصبح من أثرياء المدينة. أنا في انتظار لم الشمل من جديد اعتني بالجماعة من أجلي إلى ذلك الحين.

مع كل محبتي

صديقك الضعيف مطلوعة.

من مروان إلى مطلوعة

مطلوعة صديقي العزيز أتمنى أن تكون بصحة جيدة، قد اشتقت لرؤيتك واشتقت لتلك المغامرات مع بعض، الله يصبرك في غربتك يا أخي الغالي مكانك دائما محفور في الذاكرة وكل الرسمات التي رسمتها لا أزال أحتفظ بها وقد عملت على أن أضعها بين الأيادي التي تقدر الفن، والحمد لله الذي أنعم علي بالرزق بعدما كنت استثمر في أشياء صغيرة، لم أنجح في اجتياز شهادة البكلوريا للأسف. لكني لم أتوقف عند ذلك الحد ودخلت ميدان التجارة وبالتدريج بدأت بالاحتكاك بأشخاص أثرياء وذوي شأن في عالم الأعمال التجارية والمشاريع التنموية. واليوم قد أنشأت شركة كبيرة للألبسة وابتكرت ماركة خاصة بي أسميتها"matlouâa "مطلوعة"، ومن سخرية القدر أني لم أدخل الجامعة مثلما فعل الآخرون، إلا أني أشغل في شركتي العديد من خريجي الجامعة من بينهم سارة الخباشة أظنك تذكرها! وصديقنا فارس أصبح دكتورا في الفلسفة وكاتبا معروفا وأنا مدير أعماله، ونحن نحضر لك مفاجئة جميلة عندما تخرج، وصديقنا طارق قد تكفلت بمصاريف تدريباته الرياضية وأصبح عارض أزياء في شركتي وسمير قد مولته بالأدوية في الصيدلية، وأمّا أنت يا صديقي فلم أنسك وكيف لي أن أفعل. هل تذكر كل تلك اللوحات التي قمت برسمها في مقهى بلهاشمي، أخذتها بعد تلك الحادثة وقمت بالاحتفاظ بها، إلا أن شاءت الأقدار والزمن أن أعرضها باسمك في الكثير من المتاحف العالمية وبجانب هذه الرسالة كل المقالات التي كتبت في الجرائد عن لوحاتك الفنية التي أثارت إعجاب كثير من الفنانين التشكيليين البارزين وهم يتوقون لمعرفتك ولقاءك شخصيا وعندما تخرج سنلم الشمل في منزلي ونجتمع نحن الخمسة مثل الأيام الخوالي، أنا في انتظار لقاءك بفارغ الصبر.

مروان صديقك إلى الأبد.

من مطلوعة إلى مروان.

صديقي المخلص مروان. أنا سعيد من أجلك فأنت تستحق كل الخير وأشكرك على الملابس التي أرسلتها لي فهي أنيقة لدرجة أن السجناء هنا قد يشتهونك إن لبستها كلها دفعة واحدة وخرجت إلى الساحة ههه.

وأشكرك لوقوفك بجنب أصدقائنا، هذا ليس غريبا منك فهذه شمة مغروزة في شخصيتك وأخلاقك منذ أن كنا في المدرسة وكنت تجلس بجنبي هل تذكر حين دخلت أميمة أول مرة ورتبت لي معها موعدا وذهبنا لنشتري ملابس لي. وغيرت من هيئتي لن أنسى تلك الأيام يا صديقي. أنا أرجوا لقاءك في أقرب وقت ويسعدني أن نلم الشمل مجددا في بيتك. حتّى بلوطة أخبرني أنه قادم من فرنسا حتّى يلتقينا فتواصل معه. وأخبره عن مكان تواجدك لنلتقي مجددا. فضلك علي كثيريا صديقي. وقد فرحت كثيرا بخصوص رسماتي وما فعلت لها. فلم أتوقع يوما أن تحقق ذلك النجاح الذي تحدثت لي عنه. إن الفن ملجأي ولا يزال هو مهربي الوحيد الذي أنفسه به عن أحزاني. وأنت الآن قد أشهرت حزني للناس فنا. وما يفعل هذا سوى الأشخاص المبدعين والمقدرين للفن وللآخرين.

على أمل أن نلتقي في القريب العاجل. اعتني بنفسك من أجلي.

صديقك مطلوعة.

هل ما تزال تحبك؟

في زنزانة كبيرة يجلس القرفصاء في المنتصف، يلتف حوله مجموعة من السجناء ينصتون لقصة مطلوعة التي كان يقص لهم منها كل ليلة جزءًا، ينتظرها السجناء بفارغ الصبر والسجائر ليسمعوا بقية القصة، كانت تلك نهاية القصة، كانوا متأثرين ومطلوعة يقرأ لهم الرسائل التي كتبتها له أصدقائه من خارج السجن يترقبون الإفراج عنه.

ثم يسأله أحد السجناء وهو يدخن سيجارة ببطء:

–وماذا عن أميمة هل أرسلت لك شيئا!

مطلوعة نظر لباب الزنزانة وشرد في خياله.

ولم يرد!

فأضاف السجين:

– قصدي هل ما تزال تحبك...مثلما تحبها!

رد مطلوعة دون أن يلتفت إلى السجين:

– هل ترى هذه القطعة النقدية.

_نعم

_سنسأل الحظ.. هذا الوجه طرة يعني أنها لا تزال تحبني. وهذا الوجه نقش يعني أنها لم تعد تحبني.

ثم رمى مطلوعة القطعة في الهواء لتسقط على الأرض أمام أنظار السجناء.

فسقطت متوازنة في المنتصف على حافتها.

لقمان أم إسحاق!

سلمني حارس السجن عند بوابة المدخل صندوقا خشبيا فيه أغراضي التي ترجع لأعوام خلت، ملابسي وأشيائي التي أخذوها مني عندما دخلت السجن قبل عشرة أعوام، فتحت الصندوق وجدت حذائي، أمسكت "صابر"الذي لا يزال على حاله، لبسته باحترام متبادل مثلما اعتدت أن أفعل من قبل قد صار ضيقا نوعا ما على رجلي مثلما ضاقت علي الدنيا من قبل، لكن حتما سيلائم رجلي بقليل من المشية، مثلما قررت أن أستمر في الحياة التي سأجعلها تلائمني وأنا أقابلها بروح جديدة، روح تولد من جديد، سألتأم و أفتح صفحة بيضاء جديدة هذا ما قرّرت فعله.

في الصندوق رأيت تلك الرسمة التي لم أكملها، رسمة أميمة وهي تحمل آلة العود في يدها، نسيت أني رميتها داخل الصندوق حتّى رجعت بي الذاكرة إلى الوراء، إلى أول مرة أحببت فيها، إلى أول مرة شعرت أني موجود، وأدركت بعد كل ما مر بي في السجن وفي الحياة، أن كل مرة أكاد أموت فيها يحييني الحب، الحب فقط هو ما يجعلنا نواصل الحياة.

سلمني الحارس أوراق إطلاق سراحي المشروط لأوقع عليها، أعرت من الحارس قلم رصاص، استغرب من طلبي لكنه سلمني القلم.

فتح لي الباب وابتسم في وجهي، رأيت نور الشمس وهواء الخارج كأني لم أره من قبل لمست قدماي رصيف الطريق بعد عشرة أعوام، وقفت وسط الطريق، الناس تمر حولي مسرعة مهرولة، الكثير من الكلام الكثير من الصخب، الحياة في الخارج أصبحت تمضي بسرعة على عكس السجن، أين تعلمت أن أقدر كل لحظة تمر بحياتي أقدر كل حدث كل ثانية، أعيش عمرا صغيرا مع كل ضحكة أتلاقاها دون مقابل وأدون كل ذكرى سعيدة لأن تلك اللحظات في حياتي نادرة، قعدت على طرف الرصيف، أخرجت قلم الرصاص من جيبي، هممت أرسم. قررت أن أكمل

رسمة أميمة التي رسمتها قبل عشرة أعوام، أغمضت عيني لأسترجع تلك الليلة، تلك الحفلة المدرسية وأميمة فوق الخشبة وبيدها آلة العود، لاحظت أني رسمت تلك الرسمة بطريقة سريعة وبخطوط هاوية حيث من الصعب علي الآن أن أقلد خط يدي بعدما مضت عشرة أعوام. بعدما احترفت الرسم في الزنزانات وفي وشم أجساد السجناء. إن الأصعب من أن تكون محترفا هو أن تكون محترفا وتحاول أن ترسم مثل هاوٍ، ولن تكون محترفا حقيقيا إن لم تستطع فعل ذلك، أن ترجع إلى فنك البسيط. أتممت الرسمة وحاولت أن لا يكون الفرق متباينا في ما أضفته للرسمة حتّى أكملها. سوى قِدَم الخط الذي لم أرد أن أهشر فوقه لأترك بصمتي الفنية للذكرى، وحتى تستطيع أميمة أن تلاحظ الفارق وتعرف أنها نفسها تلك الرسمة التي كانت تصر على أن أكملها لها قبل عشرة أعوام.

ثمّ وأنا على الرصيف لاحظت فتى صغيرا يقطع الطريق إلى الجهة الأخرى وشاحنة رمي النفايات راجعة إلى الخلف باتجاهه مباشرة، حتما ستدهسه إن لم أتصرف بسرعة، الغريب أنه لا أحد انتبه له أو تحرك من جهته. حتّى القريبين منه، كل الناس تحشر رأسها داخل هواتفها، حيواتهم السريعة لا تسمح لهم بالانتباه للأشياء البسيطة، قبل أن تصل الشاحنة للفتى الصغير، نهضت مسرعا وارتميت لأنقذه بأعجوبة من تحت عجلات الشاحنة، حملت الطفل الصغير بين ذراعي وكان جميلا أسود الشعر بعينين خضراوين، الفتى الصغير يبكي وينادي على أمه مشيرا للمحل المقابل بيده لسيدة مفزوعة تركض باتجاهي لتلتقط ابنها، حين اقتربت مني، تجمدت لما رأتني وأنا صعقت حين التقط نظراتنا، شعرت أن قلبي يخفق بشدة يكاد يخرج من صدري وأنفاسي تتسارع بشكل ملحوظ، رأيت الدموع متحجرة في عيني السيدة، ساد صمت رهيب بيننا. وهدئ الولد بين ذراعي كحمل وديع،

في الجانب المقابل من الطريق يعبر زوجان مسنان، العجوزة تحمل باقة ورد في يدها والعجوز يحمل خبزة وعصى.

لم أستطع التحرك حين سقطت عيني في عينها. شعرت بخدر وصعقة كهربائية داخل رأسي لما رأيت تلك القلادة على رقبة الفتى، أصبحت كتمثال حجري من دون

روح ولم أستطع أن أسلمها الولد الذي يضع رأسه على كتفي، وفي تلك اللحظة من الصمت الموحش، اختفى الزوجان وخرج رجل أنيق من المحل الذي ظهرت منه السيدة أمامي، بدى لي وجه الرجل مألوفا من بعيد وقد كان يحمل بين يديه مجموعة من الأكياس البلاستيكية وعندما اقترب منه عرفته ليهم مسرعا مبتسما باتجاهي:

– أووه مطلوعة صديقي العزيزها أنت ذا....

– ب....ب....ب..بلوطة! "قلتها بصعوبة وبصوت متقطع وأنا أقلب النظرات بينه وبين السيدة أمامي والسيدة تستمر للنظر في الرسمة التي كنت أحملها في يدي".

– نعم هذا أنا بلوطة صديقك. أنظر لنفسك لم تتغير كثيرا منذ آخر مرة.

لم أستطع تحريك لساني من شدة الدهشة والذهول:

_يبدو أن إسحاق قد نام بين ذراعيك.

_إسحاق!

– آه نسيت أن أعرفك على عائلتي. هذا ولدي إسحاق الذي أخبرتك أنه يشبهك وهذه زوجتي أميمة.

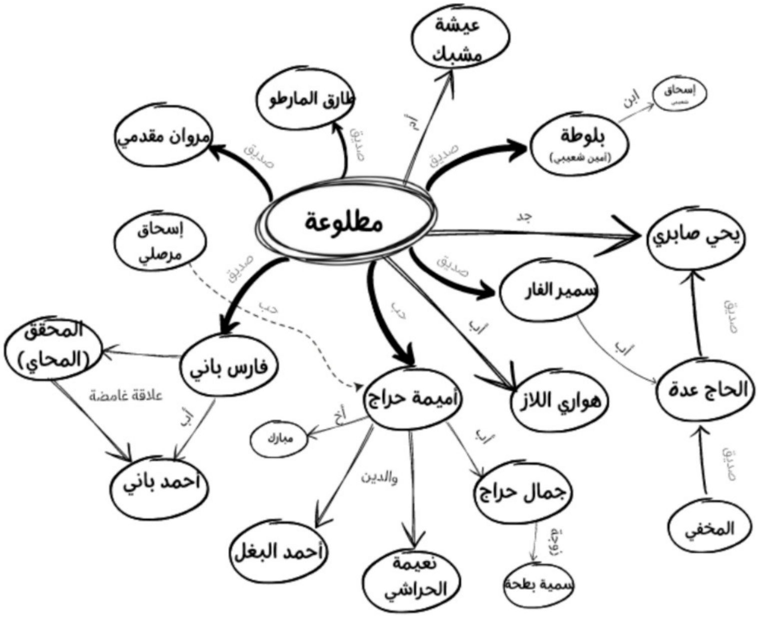

خريطة شخصيات رواية مطلوعة

أترك أثرا هنا:

....

24 جانفي2021

للتواصل مع الكاتب:

Basset01bani@gmail.com